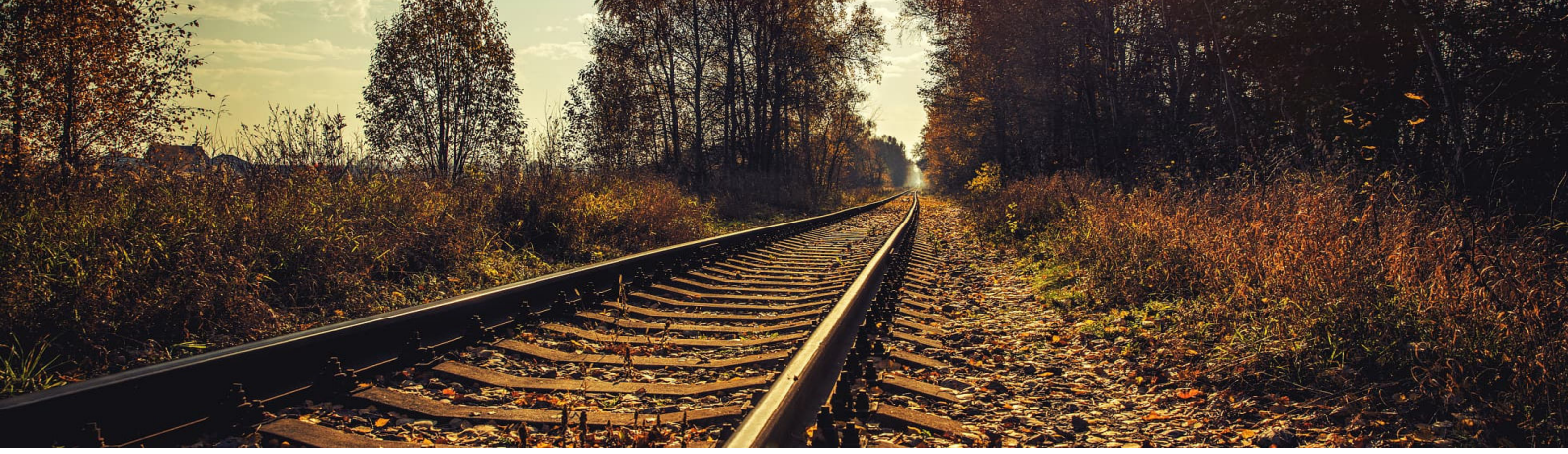


**طريق إلى الحرية**

**رواية**

**هاينز كونزاليك**

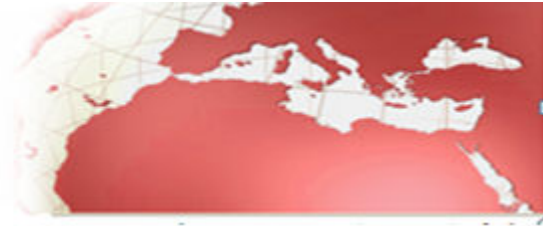


**ترجمة**

**د. ضرغام الدباغ**

**العنوان الأصلي للرواية باللغة الألمانية: Strasse in die Hölle**

**المؤلف:.....Heins G. Kosalik**



**الطبعة الثانية باللغة العربية**

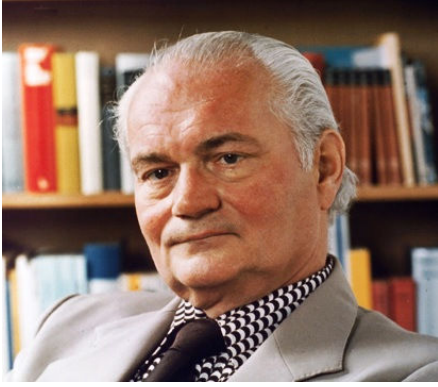
**دار نشر: المركز العربي الألماني / برلين**

**2020**

**الرقم 43**

**المطبوع مجاني**

## الكاتب : سيرة ذاتية



ولد هاينز كونزاليك في 28 / مايو / 1921 في مدينة كولن (Köln) وسط ألمانيا، وتوفي في 2 / أكتوبر / 1999 في سالسبرغ بالنمسا ودفن في مسقط رأسه، درس في كولون وميونخ وفيينا، درس العلوم المسرحية وتاريخ الأدب واللغة الألمانية، وقد خدم كونزاليك أبان الحرب العالمية الثانية على الجبهة السوفيتية حيث أصيب بجرح بليغ.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عمل في البداية كمدرس للدراما، وفي الصحافة، ثم تفرغ للكتابة منذ عام 1951، ومن أهم أعماله طبيب في ستالينغراد، السماء فوق كازاخستان، ناتاشا، ليالي الحب في تايبغا، وقد بلغ العدد المطبوع من مؤلفات كونزاليك في جميع أرجاء العالم أكثر من 60 مليون نسخة.

كونزاليك كاتب غزير الإنتاج، قدمت بعض أعماله في السينما.

**إهداء**

**إلى مناضلي الثورات الشعبية في وطني العربي وكافة أرجاء العالم**

**أهدي هذا العمل المتواضع**

**الحرية قضية واحدة لا تتجزأ**

**سلاماً لمحبي شعوبهم ومن يفتدونها بحياتهم**

**سلاماً للأبطال**

## مقدمة

كنت في أواسط التسعينات قد قمت بترجمة روايتان من أدب المقاومة الألمانية لأثنين من الكتاب الألمان، الذائعي الصيت وهما: كلاوس مان(Klaus Mann)، وهارالد هاوزر( Harald Hauser)، أمل أن يشاهدا النور في أقرب فرصة ويوضعان تحت أنظار الجمهور. وبطريق الصدفة ووسط ظروف موضوعية لا توصف بأنها جيدة، وقعت على مجموعة من الأعمال الأدبية الألمانية، واستطعت بسهولة أن أتبين أن هذه الرواية التي بين يدي القارئ الكريم هي أفضلها ووقع اختياري على ترجمتها.

تدور أحداث هذه الرواية في أدغال الأمازون في البرازيل، وعن انتفاضة عمالية. والمؤلف يسند دور الراوي لمهندس ألماني يعمل كاستشاري لشركة برازيلية تعمل على شق طريق يمتد من مدينة كيرس إلى مدينة ريوارغوايا، والشركة البرازيلية، ومن أجل جني المزيد من الأرباح كانت تستغل آلاف العمال وتضطهدهم وتصادر حقوقهم، فنتضج كنتيجة لذلك ظروف أنفاضة عمالية شأنها كشأن أنفاضات لا حصر لها في تاريخ الحركات العمالية والتحريرية والثورات المغدورة في العالم الثالث التي في تصاعدها وتراكمها تزداد خبرة وتمرس في خوض نضالات التحرر الوطني، مع نتائج أخرى جانبية أكثر وضوحاً في تعمق الأزمة الإنسانية في تلك المجتمعات وتسلط ديكتاتوري يسفر وبخلف ضحايا وقصص بطولة.

ولست واثقاً إن بوسعنا أن نعد هذه الرواية من أدب المقاومة، فمؤلفها ليس ببرازيلي حيث تدور الانتفاضة، كما أنه لم يكن عضواً في الحركة الثورية، أو الانتفاضة بمعنى أدق، بل أن موقفه منها وهو التقني الأوربي، موقف ليبرالي. ففي الوقت الذي يدين فيه صراحة النظم الديكتاتورية ونظم التعسف وحكومات الأقلية التي تملك المال (الأوليغارشية)، أو الحكومات الكومبرادورية التي هي امتداد طفيلي للاحتكارات الرأسمالية العالمية ومتربولاتها، إلا أنه ومن موقفه الليبرالي لا يستطيع إدراك قوانين تراكم التناقضات واحتدامها وأخيراً انفجارها. فرغم أنه يقدم تأييده للنضال التحرري، وينتقد أساليب الحركة الثورية، ولسنا هنا بصدد مناقشة آراء المؤلف التي سيطالعها القارئ واضحة في سطور الرواية، بل إننا مهتمون بتصنيف هذا العمل الأدبي الهام، وهي رواية شاهد يعرض فيها المؤلف عرضاً لأفكاره وأحداث انتفاضة ثورية، وهو لا يستطيع إدراك التفاوت الكبير في الموقف الاجتماعي والاقتصادي بين بلاده ألمانيا أو أوربا الغربية وبين البرازيل وعموم أميركا اللاتينية وخصائصها المتميزة.

ولكن الرواية هي من أدب الثورات، والكاتب على لسان شاهده المهندس الألماني يعبر في مناسبات عديدة بأنه لا يفهم مفردات كثيرة عن مجرى النضال وخطوطه السياسية والفكرية والنضالية العملية، وذلك يعكس الطبيعة الخاصة لنضال حركات التحرر في الأقطار النامية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

فنحن إذن أمام رواية تتحدث عن أحداث ثورة بضمير الشاهد، ضرب من ضروب أدب الثورات قدم فيها هيمنغواي رواية لمن تفرع الأجراس، وأندريه مالرو في رواية الوضع البشري، وكذلك روايته الأمل، وبرغم أنني لا أريد بأي حال أن أقارن بين هذا العمل وتلك، ليس فقط بسبب اختلاف مستوى الأدباء فحسب، بل والتجربة الثورية والإنسانية بأسرها، والحدث الإنساني الذي مثل العقدة الدرامية للرواية.

والمؤلف لا يريد أن يصدر حكماً غيابياً على أطراف الصراع، بل هو يدع أبطال روايته يجرون الحوارات فتدور شيقة زاخرة بالحجج، والكاتب يريد أن يكون حيادياً، فهو يدع أبطال روايته حتى رجال الأمن ومؤسسات السلطات الحكومية بعرض وجهات نظرهم، ويسعى للحفاظ على حياديته وقد أفلح في ذلك إلا قليلاً، فهو وإن عبر عن شجبه لقمع الفاشيات العسكرية والأنظمة الديكتاتورية والأنظمة البورجوازية العليا المتحالفة مع كبار ملاكي الأرض والفئات المهيمنة على الفعاليات الاقتصادية وهي من أذرع الإخبطوط الرأسمالي العالمي، بيد أن المؤلف لم يستطع أن يستوعب قوانين الثورة ولم يضع نفسه في معسكرها، وإن أن أبدى تعاطفاً كبيراً معها، فنحن إذن أمام شهادة، وربما شهادة مهمة لأنها صادرة عن كاتب ليبرالي يضع على أفواه أبطاله لا سيما المهندس الاستشاري الألماني شعارات ومفردات موقفه السياسي والاجتماعي.

ويعرض الكاتب ببراعة موقف الثورة، فقائد الثورة يقول (ص106) "إنهم لا يستطيعون تجويعنا بعد أكثر، وعندما ستهدر القنابل والمدفعية الثقيلة سنكون قد أوقدنا شعلة الحرية في كافة أرجاء الوطن. لا يمكن إيقافنا.. البرازيل قد أفاقت".

والدكتور سنتالوس بحديثه هذا لربما يدرك بذكائه وهو رجل متقف أن معركته خاسرة على المدى القصير، ولكنها رابحة على المدى البعيد، إن إستراتيجية حرة التحرر في مواصلة النضال الدامي وانتزاع المكاسب وبالتالي الانتصارات من أيدي خصومهم لن يتم إلا عبر أشلائهم ونضالهم هو الوحيد الذي ينهي عبوديتهم وهذا الموقف النضالي لا يعبر عن اليأس أو التورط، فهذه حسابات سياسية تقليدية لا يتعامل بها الثوريون والمؤمنون بقوة الشعب وإرادته.

بل أن قائد الثورة واع للمشكلات التي تصاحب العمل الثوري واحتمالات الإخفاق بقوله (ص107) "هؤلاء البشر الذين تركوكم لوحكم هل يستحقون ذلك..؟" هو موقف يعبر عن وعي عميق بالقوة الكامنة لدى الشعب، فهو ينظر إلى جماهير الانتفاضة "وهل بوسع أحد إيقاف مسيرة هؤلاء، لقد أشتعل البركان، دعه يندلع إلى أن يتداعى نهائياً".

ويبلغ هذا الوعي ذروته عندما يوجه الشاهد اللوم إلى قائد الثورة بأن الانتفاضة لا تجد استجابة في أي مكان، وإن الناس سينسون تضحياتهم، ومشاهدة مباراة بكرة القدم هي أهم من نضالهم وموتهم، فبجيب قائد الثورة: "هناك أعمال فردية لدعم الانتفاضة ولكن حتى قيام الانتفاضة العظمى والثورة سنكون نحن القدوة" فيسأل الشاهد وهل يستحق ذلك الموت هكذا بعداب؟ فيجيبه "نعم، فبدون نموذج أعلى لا توجد هناك ثورة، هل كانت ستوجد مسيحية بدون مسيح معلق على الصليب؟؟".

يردد الكاتب/ الشاهد في كثير من الصفحات أنه لا يفهم مفردات كثيرة في مجرى النضال، سواء في خطوطه السياسية والفكرية أو العملية وذلك يعكس دون ريب الطبيعة الخاصة لنضال حركات التحرر في الأقطار النامية.

ومن جهة أخرى تقدم لنا هذه الرواية معلومات تطور ثقافتنا عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدائرة في البرازيل الذي يعتبر من البلدان النامية المهمة، وعن بلدان أميركا اللاتينية بصفة عامة.

المترجم / أبو غريب - أواسط أيلول / 1998

كانوا يصرخون " العدالة ! عمل يليق بالإنسان ! ونريد أن ننام أيضاً ! " يحملون فوق رؤوسهم لافتات حمراء مشدودة إلى جذعي شجرتين من أشجار البامبو، وبعبارات ثقيلة مليئة بالأخطاء، مستهلكة، مهلهلة تدل على بدائيتهم، وعندما نحاول هنا أن نحولها إلى اللغة الألمانية: العدالة بتمديد حرف أ إلى أي لتصبح عدالي، أو كلمة نريد بتعميق حرف ي. كانوا يسيرون عبر المخيم بجموع كثيفة متلاصقين وكأنهم يخشون أن يتفرقوا عن بعضهم البعض، ولذلك ينبغي عليهم أن يبقوا متماسكين ليحافظوا على شجاعتهم، وليفتحوا أفواههم لغرض غير تناول الطعام والشراب. كان لويس جيزوس جالساً في إحدى البراكات \* واضعاً قبضته على ريشيش (مسدس رشاش، غدارة) ملئ بالذخيرة، الجدران التي كانت مغطاة بخرائط تفصيلية لمشروع العمل، وسبعة من مراقبين العمال يقفون شاحبين دون حراك يبدو عليهم القلق، وكان رتل التظاهرة العمالية قد وصلت الآن إلى إدارة المشروع وأحاطوا بها كسياج بشري رؤوس وأفواه مفتوحة، فيما كانت اللافتات ترفرف فوق رؤوسهم في الهواء.

" العدالة وأوقات عمل معقولة، وطعام أكثر لنأكل نحن أيضاً بشر " زمجر الرجال.

" أسمعوا ... أسمعوا ما أقول " قال لويس جيزوس أريراس وأطل من النافذة، كانت طاولة مكتبه مليئة بالجداول والتخطيطات وقوائم الأجور وتقارير " لقد تحول النمل عندنا إلى وحوش يريدون أن يعضوا ..! "

" إنهم يريدون مهاجمة البراكة " قال أحد المراقبين بصوت منخفض.

" أبدأ " قال أريراس وهو يهز رأسه وأردف " أنهم يعلمون تماماً بأنني سأطلق النار، وأنتم ستطلقون النار كذلك " ثم بصق من فوق الطاولة باتجاه النافذة " إنهم جميعاً كلاب جنباء لهم أنوف طويلة "

" لا أعلم لويس " قال أحد مراقبي العمال وهو يحك برأسه " منذ أسابيع وهناك شعور كما لو أن بركاناً سيندلع حالاً، بركان يثور في الأعماق، التموين ليس ناجحاً، المستوصف السيارة لم يأت، الأجور لم تدفع إلا نصفها، ولكن الكد يتواصل في ورديات تبدأ من الفجر حتى المساء وبالعكس، وهذا ما لا يتحملة حتى الخنزير "

" الألس عندكم وكل ما تحتاجونه، ها ..؟ " نهض أريراس ومضى صوب النافذة، وما كاد المتظاهرون يشاهدونه، حتى علا صوت الصراخ والزعيق والصفير، ورفعوا قبضاتهم مهددين.

" كان عليكم أن تكونوا سعداء، ذلك أنكم تعيشون جيداً، أي مخلوقات أنتم ..؟ مهجنين .. خليط من هنود وزنوج، لقد أخرجناكم من القاذورات وها أنتم تريدون بعد حقوق ..! ألم تأتكم قبل أربعة عشر يوماً العاهرات من برازيليا (العاصمة)، الشراهة والسكر والنساء، هذه هي حياتكم وفجأة تصبحون عنيديين وجموحين "

استند أريراس على حافة النافذة وأطلق ضحكة على الجموع المزمجرة، ثم تناول ريشيشه من على منضدة الكتابة، وركزه أمامه على حافة الشباك وقال " انتبهوا لا تقتربوا أكثر، بوسعكم أن

تصرخوا ما شئتم، وإذا كانت القحاب قد أصابوكم بالملل، فهذا شأن شخصي، ولكن خطوة واحدة أخرى نحو عتبة البراكة، فإني سوف أوفر أجور البعض منكم..!".

ساد الصمت في الساحة أمام إدارة العمل، وكفوا عن الصراخ، مئات العيون كانت تشخص صوب النافذة، وكان الصمت المفاجئ مهيباً، وكانت اللافتات تلوح وكأنها طيور متعبة في الريح.

" لا تخافوا " هب صوت عميق " إنهم بحاجة إلينا سوف لن يطلقوا علينا النار، كل ذراع من أذرنا مهمة لهم وإلا فإن عليهم قطع الأشجار بأنفسهم، ودك الأرض وتصفيف الحجارة وسكب القير (الزفت)، سيتعين عليهم أن يجوعوا ويعرقوا وأن يجلبوا المياه من الحفر وأن يمكثوا حتى الرقبة في المستنقع، لا تخافوا يا أصدقاء إنهم بحاجة إلينا..!".

" ذلك هو باولو ألجير " قال أحد المراقبين " إنه يقود العمال ".

" أعلم ذلك " قالها أريراس وهو يعود إلى وسط الغرفة وكان وجهه العريض يبدو أكثر حدة وأكثر قبحاً ووحشية. كان أنفه المكتنز يلتصق وكان يتصبب عرقاً ولكن ليس كمرأقيه من الخوف، بل من الغضب الذي لم يكن بوسعها أن يفعل شيئاً حياله. " الجيرا موجود دائماً..!".

قالها وتطلع إلى الجموع، ثم إلى الرجال الصامتين الشاحبين حوله " لماذا لم يقع حادث له منذ فترة طويلة..؟ شيئاً كهذا يمكن تنظيمه على نحو طبيعي ".

" هذا في السابق، الجيرا قد أصبح الآن حذراً، وعدا ذلك فإن الألماني يقف إلى جانبه ".

" الألماني..؟ " وضرب أريراس المنضدة بقبضة يده " أين هو هذا..؟ هل هو يتظاهر معهم..؟ يجوز..! سجل عندك عدد الساعات التي خسرتها ومضت هدراً، إنها ستخصم من رواتبهم بالتأكد، كما أنا متأكد من مؤخرتي ".

كان الوضع قد أصبح حرجاً، وأريراس أدرك ذلك، وهو لم يمنع خياله من السيطرة على الموقف بالكلمات القوية، وما يحصل هنا في أعماق الغابات البرازيلية الكثيفة كان أمراً طبيعياً، ولكن لم يأخذ أحد الخطر على محمل الجد.

منذ سنة كاملة وهم يشقون هنا طريقاً إلى الجحيم، ويعبدوه، ووحشية لم يعهدونها من قبل حتى في سبيريا، قال المهندس الألماني كارل جييهارت مبرراً ومواسياً سقوط الكثير من القتلى، حتى في أيام الأحد كان العمل في الطريق يتواصل، الطريق بين برازيليا (العاصمة) والغابات المترامية الأطراف المسماة ريوارغوايا.

وكان هناك طريق من العاصمة حتى مستوطنة الغابات الاستوائية كيريس، ومن كيريس يتواصل العمل حتى الغابات الأزلية التي تتحدى الإنسان، وقد حققوا بضعة كيلومترات وعنها بوسع المرء أن يقول: هنا يستطيع المرء أن يتوقف، ولكن بعد ذلك أيها الأصدقاء، يبدأ الجحيم الحقيقي على الأرض.

الغابة تتألف من أشجار عملاقة ومتحجرات وأدغال متشابكة تشكل ما يشبه الجدار، ثم شبكة من جداول صغيرة وكثيرة، والتي تنتهي دائماً في مصب نهر آخر ثم يعود ويتفرع منه مرة أخرى جداول، وبينها الأرض رخوة وطينية. إنها غابة بكر لم يطأها إنسان من قبل ولا حتى الجيولوجيين أو المساحين أو رسامي الخرائط أو المهندسين أو الموظفين الحكوميين وسائر



المستخدمين، وذلك بسبب عدم وجود فسحة تصلح لهبوط طائرة، ولكنهم على الرغم من ذلك فقد وضعوا على الخرائط التي صممت بناء على الصور الجوية، تأشيرة هي عبارة عن خطين متوازيين بلون أحمر.. ذلك هو الطريق...!

" من كيريس حتى ريوار غوايا، هنا سيشق الطريق باستقامة..! ولكن لماذا إذن لدينا المكائن؟ تهوي الأشجار العملاقة ثم تقطع وتسحب بعيداً، لدينا الحفارات؟ والقاشطات وآليات الحمل الثقيلة والمتفجرات والمضخات وخلطات الاسمنت؟ وقبل كل شيء لأي غرض هم البشر؟ بشر بما يكفي، بشر بوسعه أن يجوع وأن يكون سعيداً عندما ينال بضعة قروش فحسب! بشر لم يألفوا الحياة المريحة كما في أكواخ العمال في معسكر شركتنا، وبهؤلاء البشر وبمكائننا سوف ننتصر على هذه الغابات اللامتناهية الغامضة المعادية كأنها الجحيم".

لا بد من شق هذا الطريق، فالغابة ثرية وبوسعها أن تجعل البرازيل ذات يوم مستقلة عن حسنات وصدقات الدول الأخرى. ففي أعماق هذا الجحيم الأخضر والذي لم تكتشف ثرواته بعد ولم تمس، من الأخشاب النادرة الثمينة، بالدرجة الأولى أخشاب (مهاكوني - Mahagoni)، وهناك أيضاً أشجار المطاط الأصلية، وبتقدير الخبراء الجيولوجيين هناك منجم للأحجار الثمينة، وبذور للأزهار النادرة تنمو هناك في كل مكان والتي تعادل الذهب.

الطريق....! كان الحلم والمستقبل معاً، إنه شريان حياة جديدة والتي من خلالها يسيل الدم الفائض من الغابة الأزلية لتمنح الحياة إلى الأجساد البرازيلية المتداعية، الطريق الذي يقطع جزء من الأرض ويقود إلى الحلم الكبير: من ريو دي جانيرو إلى الأمازون، المشروع الكبير للبشرية.

لا أحد سيعلم فيما بعد، أن هذا العمل الكبير قد شيد بالدماء والدموع، سيشاهدون هذا الشريط العريض (الطريق) الممتد دون أن يلاحظوا القبور على يسار ويمين الطريق، قبور الذين سيرقدون إلى الأبد في هذه الغابة الفضيعة.

" هاهو قد جاء " قال أريراس، وأوماً بإشارة من رأسه إلى خارج النافذة.

توقفت سيارة لاندروفر ملوثة بالطين بحدة إلى جانب براكاة إدارة المشروع فهبت زوبعة رذاذ طين من الهواء الساخن، وأصابت المتظاهرين ولكنهم لم يغضبوا ولم يصرخوا أو يطلقوا الشتائم، بل كانوا يصفقون، فيما التمعت وجوههم المتقلصة.

" الآن يمكن ملاحظة ماذا يمثل بالنسبة لهم...! " قال أريراس بغضب " أنهم يتعاملون معه على أنه زميل لهم، لنر ماذا سيقول بهذا الصدد".

ومن السيارة، قفز رجل نحيل طويل القامة يرتدي سروالاً عسكرياً قذراً، ممزقاً عند الركبة وحذاء ذا رقبة طويل تقريباً بلون شبه بني، ويضع على رأسه ذو الشعر الأشقر الطويل قبعة شمسية (كاب) بلون أخضر زيتوني كالذي عند أغلب العمال، ذات حافة طويلة فوق الجبهة لغرض الحماية من أشعة الشمس، خلعها من رأسه ومرق إلى باب البراكاة، وضرب بقبعته بضع بعوضات كانت قد حطت على ذراعه المتعرق، وكان قد رفع أكمام قميصه إلى الأعلى، والسترة الخفيفة التي كان يرتديها مفتوحة إلى نصف صدره، وعدا حذائه الطويل الرقبة، ووجهه الأوربي، لم يكن يبدو إلا واحداً من العمال.

" لقد جئت في الوقت الصحيح يا سيد كارلوس " قال لويس جيروس اريراس عندما دخل جبهات إلى الغرفة، ودفع الباب خلفه بقوة " إذا كنتم تريدون التبرير والشكوى، فهنا ليست جبهة وليسوا بجنود، أسأل صديقك العزيز باولو الجيرا، فهو الذي يحرض العمال على الإضراب "

" لقد بلغ السيل الزبي اريراس لسماع ملاحظتك الغبية " ثم ألقى لمحة سريعة على الرشيح المعبأ بالذخيرة على طاولة الكتابة، وهز يديه بحركة وألقى به على الأرضية ذات الألواح الخشبية، وكان أمراً عجيباً إذ لم ينطلق السلاح " وعدا ذلك فقد منعت وضع أسلحة محشوة بالذخيرة على طاولتي، ماذا تفعل هنا في مكنتي ؟ ولماذا لست في البراكة الخاصة بك ؟ "

أبتسم أريدياس ابتسامة مزيفة، فيما كانت عيناه تشعان غضباً " وهل كنت مرة يا سيد كارلوس هنا ؟ أنت هناك في الموقع تتعامل دائماً بسرعة وبوقت قصير "

" بدونك .. ؟ .. كيف بوسعك أن تظل واقفاً ؟ " جلس جبهات وراء طاولته.

" أنا لم أكن هناك " رد اريراس بشعور من الكراهية.

" وأين كنت ؟ عند روزالين في المبعي ؟ "

" كنت في محادثات مع مراقبي العمل عندما جاءت جموع المتظاهرين، ولكني كنت قد تلقيت تحذيراً، بواسطة اللاسلكي حيث تم إبلاغي بما يعده هذا الخنزير الجيرا " ثم دس اريراس يديه بحركة تظاهرية في جيب سرواله. والبرازيلي لا يسمح لنفسه أن يدار ويقاد من قبل أي أجنبي، حسناً الألماني كان مهندساً، والحكومة قد عينته هنا وعهدت إليه إدارة المستخدمين، ولكن ماذا سيكون عليه بدونه، وبدون مراقبيه، ترى هل سيكون بوسعه أن يتصرف في هذه الغابة الغامضة لوحده، أو أن يعمل في هذا الطريق المار عبر الغابة ؟ .. فبدون لويس جيروس اريراس فإن قيمة هذا الألماني ليست أكثر من بعوضة، وكان عليه أن يستوعب هذه الحقيقة ويقر بها ..!

" ماذا تريد أن تفعل سيد كارلوس ؟ " سأل مطالباً، وأستطرد " طلب مساعدة عسكرية ؟ "

" كلا "

" هل تستطيع أن تستغني عن طلب الدعم ؟ هذا غير معقول بالمرّة ..! "

" أليس للعمال هنا حق في ذلك .. ؟ "

" هذا ما كنت أنتظره منك " وقد لاحظ اريراس الاستحسان على مراقبي العمل، ولكن الرجال غالبوا صمتاً ران عليهم " هل تتحنون أمام مطالب الغوغاء ؟ .. إن هؤلاء لم يعيشوا بأفضل مما يحيون الآن، ونقود أكثر ..! وماذا يفعلون بنقودهم ؟ .. يسكرون ويذهبون إلى المواخير أكثر، وإذا كنا نحتاج إلى مستوصف سيار، فذلك سيكون فقط لأجل منحهم وصفة السيلا، أنا أعلم أن العمل صعب "

" إنها مطلبهم الحالي، وحدودها الموت " قالها جبهات بصوت عال.

" هذا ما ستجلبه الحكومة والسيد بولو "

وبرغم جميع الإصلاحات فإن البرازيل ما زالت حتى اليوم تحكم من قبل بضعة عائلات يديرونها سرّاً بأموالهم وبنفوذهم وبسلطتهم في الاقتراض وبعلاقاتهم وجشعهم. والسياسة أمام البرلمان لیت تمثيلية تعرض على الرأي العام، ولكن لا أحد يعلم ماذا يدور خلف الأبواب المغلقة في الصالونات والمكاتب، وعلى الشرفات العالية المستندة على الأعمدة في الفيلات البيضاء الفخمة، وفي بارات القصور. ولكن كل فرد سيشعر إن عاجلاً أو آجلاً في أحشاءه أنها سلطة المال التي تحكم لا شيء يقدر أن يزيحها، لا بواسطة الثورات ولا بالأفكار السياسية، لا بواسطة الكنيسة ولا بواسطة إصلاحات، أبطال الشعب يأتون ويذهبون، ولكن الثروة تبقى، لا بل وحتى الغابات الأزلية تنحني لها.

هيرمانو سانتوس بولو كان واحداً من هؤلاء الرجال الذين كانت أسمائهم معروفة لكل برازيلي، فهناك العديد من السوبر ماركت(الأسواق المركزية الكبيرة) تحمل أسمه، والفنادق الراقية تعود ملكيتها له، ولكل عمارة شاهقة تشيد في ريو دي جانيرو أو في برازيليا العاصمة، وفي ساوباولو أو في ريشينيا تجد فيها أصابع بولو. فهو يمتلك شركات البناء في كافة المدن البرازيلية، وهو يسيطر على أسواق القهوة وعلى تصدير الأخشاب الثمينة النادرة عبر مكاتبه وتزويد المدن بالطاقة(في ريو ساوباولو) والأحياء السكنية الجديدة وسكانها من الفقراء ويؤجرها لهم، فهو المالك، بالطبع من خلال رجال صنائع له، وعدد لا يحصى من بيوت الدعارة المزدهرة كما في باريس أو في هامبورغ.

عندما جرى التخطيط للطريق من كيرس حتى ريوارغوايا، علم بولو بذلك بوقت مبكر من خلال علاقاته في الحكومة وأسس شركة أطلق عليها " مؤسسة تعمير البرازيل " وقد ألتزمت الشركة أن تعين ألف وسبعمئة عامل، وتعهد بشق طريق عبر الجحيم الأخضر رونكادو وكانت صفقة مليارات، وأوقد السيد بولو للسيدة العذراء في كاتدرائية العاصمة برازيليا شمعة ضخمة، طويلة وشاهد البرازيليون ذلك جميعاً، فقد أمر بأخذ الشمعة بعد أن زارت روما الفاتيكان، إلى الكاتدرائية في المسيرة وبارك بنفسه الشمعة بدموع تتلألأ في عينيه.

ومنذ أن حصرت دائرة البناء الحكومية اهتمامها فقط بالأنبياء القادمة من المكتب الرئيسي المركزي لبولو، عما يجري في مواقع العمل، كانت بالمقابل السيطرة والإشراف بعيدة المنال، أو من غير المستحب الحديث عنها، ولم يكن مهماً سوى: الطريق سيعبد وأنه سيكون جيداً، وأن زمن الإنجاز سوف لن يتم تجاوزه كثيراً، وستبقى التكاليف مستقرة وأنه يمكن الاعتماد على السيد بولو.

والآن هذا...! ثورة في موقع العمل (V)، أي الجبهة المتقدمة بمقاييس العمل، عند الوحدات التي تعمل مباشرة بأجتثاث الغابة، عند الذين يفترسهم جحيم الغابة والمستنقعات، ويتساقطون كالذباب في الأجواء المسمومة كما في غرف الغاز (الإعدام بالغاز) والوحدات (مجاميع العمل) التي تتبعهم ومهمتها تسوية الأرض وسكب الزيت. كانت مهمتهم أسهل، إذ أنهم يواجهون أرضاً زالت عنها المخاطر، إذ أن الحيوانات الوحشية تكون قد فرت، والأفاعي قتلت، والقبائل الهندية المجهولة قد طردت إلى أعماق الغابات، فما كان أمامهم سوى طريق عريض طويل وسط أمواج من الخضرة.

إلى اليسار واليمين تشاهد القبور وقد وضع عليها الصلبان ويقف الرجال من الوحدات الأمامية بذهول يحملقون بالقبور عندما يحصلون على أجازة لبضعة أيام إلى المقرات الخلفية قادمين من

موطن الشياطين، عائدين إلى المعسكر الرئيسي الكبير كالأشباح التي لا تعرف سوى الأكل بنهم والسكر، ينامون حيث هم يبددون القليل من المال الذي حصلوا عليه من بيوت الدعارة. وكل شيء هنا، الطعام والشراب، والمساكن والأسرة وحتى بيوت الدعارة والمومسات، كلها ملك السيد بولو.

" لدي تقرير إلى السيد هيرماندو بولو " قال كارل جيهارت " إلى الشيطان، أن الأمر سوف لن يستقيم هكذا، فإن هؤلاء الرجال المساكين لم يعودوا يعيشون كالبشر فعلاً يا أريراس !! فلدي هنا تسعة وأربعون مصاباً بالحمى، وهم بالكاد يستطيعون الوقوف على أقدامهم، ولكنهم على الرغم من ذلك يكدحون العشرة ساعات المقررة، لدي أثنان وعشرون جريحاً وليس هناك من يعتني بهم، هناك ممرض واحد فقط، وهو يجهل حتى القيام بالربط الصحيح، ويخفف الكحول الطبي بالماء ويكرعه " .

" أعلم ذلك، أعلم ذلك " قال أريراس بغير اكتراث " ولكن كيف سيكون بوسعك تغيير ذلك ؟ التظاهرات لن تغير شيئاً، لقد رأيت بتبصر ضرورة طلب الحماية، وأن ترسل العاصمة لنا وحدة بوليس إلى كيرس " .

" هل تريد نشر الموت والضرب والقتل هنا ..؟ " صرخ جيهارت " شرطة وعمل عبيد تحت السلاح ! إن ما يحتاجه هؤلاء هو فقط ما وعدتم به لهم عند توقيع العقد، عمل ثابت، أجر كامل، قدر من الرعاية الطبية، خيم بدون ثقوب وناموسيات للوقاية من البعوض، وسائط عمل صالحة وخدمات! هل يأكل السيد بولو لمدة ثلاثة أسابيع الفاصوليا بزيت زنج، ما لم يكن الرجال قد صنعوا بأيديهم فخاخ صيد الحيوانات لكانوا قد حرموا منذ أشهر من تناول اللحوم !" .

" هل أنت الرئيس هنا أم أنا ؟ " رد عليه أريراس بفضاضة " والغريب هو فقط أن انتفاضة الرجال هذه قد حدثت بالضبط في وقت كان فيه المهندسين الآخرين موجودين في المقر الرئيسي في العاصمة، أنت فقط لوحدهك هنا، فلماذا لا يزمجرون ..؟" .

" هذا ما تعرفه بدقة يا أريراس " قال جيهارت ومضى صوب النافذة وتطلع عبرها، حيث كان العمال ما يزالون ينتظرون تحت لافتاتهم المهلهلة، يصدقون كالأطفال عندما يوعدهم المرء بكيس من جلكيت (حامض حلوي)، ولكنهم لا يحصلون في الواقع على شيء من تلك الوعود، ولا حتى على أجورهم صافية(خالية من الاستقطاعات أو النواقص) من أجل ساعات العمل الضائعة، انه شيء يبعث على التقيؤ ..!

" إنني هنا المدير الفني " قال جيهارت " ولكن بيدك أنت كافة التنظيمات، وعلي أنا أن أهتم بأن العمل يجري بصورة صحيحة، ولكنك أنت هنا من أجل أن نستطيع العمل، هيا أذهب خارجاً وأوضح للعمال لماذا لا يعطى لهم الطعام والأجر بدقة، أوضح لهم لماذا لا يوجد أحد يهتم بمرضاهم وجرحاهم " .

" بعد غد ستصل عربة المستوصف السيار إلى هنا " قال أريراس ومد يده إلى الحقيبة وأخرج منها دفتر ملاحظات " لقد استلمت موعداً ببرقية الدكتور ستيفانو سانتوس وثلاثة من الممرضين، ومساعدة طبيب أسماها نورينا ساماسينا، وهم الآن في كيرس ولا ينقصهم سوى بعض الصناديق التي ستأتي من العاصمة، وعدا ذلك، ستأتي معهم أربعة عاهرات جدد و..... " .

" وهذا ضروري فعلاً...! ". قالها جبهارت مغتاضاً.

" أوه ... كم هو ضروري ذلك ..! " أكمل اريراس على الفور، وكان وجهه المنتفخ قد أكتسب هيئة الصدمة " بوسعك أن تأخذ النقانق من بين الخبز من أيدي الرجال، ولكن ستحدث عاصفة لو منعتهم عن النساء، نعم ذلك ما يقلقتني ". وفجأة صرخ أريراس وهز ذراعه في الهواء " أتركوا قواكم لنساءكم، ولكن بعد ذلك تبكون وتتساقطون كالأكياس الخاوية. أنت إنساني جداً يا سيد كارلوس، وتفكر دائماً كأوربي ".

" إنني أفكر كبشر " قال جبهارت.

" وحتى هذا لا يعترف به هنا " وأشار اريراس إلى الخارج، إلى الجموع المزمجرة من المتظاهرين وأضاف " إنسانية ..! تفضل وأسأل باولو الجيرا قائد هذه العصابة، ماذا يعرف عن الإنسانية، ماذا يسميه أصدقائه، الجيرا المجرم، ولماذا كان في السجن ؟ لأنه ذبح رجلاً لم يكن يعرفه من الأذن إلى الأذن، وهذا موجود في اضبارته الشخصية وبوسعي أن أعطيها لك يا سيد كارلوس ".

نهض جبهارت، ودفع اريراس عن طريقه وغادر الغرفة، يستطيعون الحديث بكلمات كبيرة وكثيرة، فكر بمرارة، شلال من الكلمات، ولكن لا شيء يحدث في الواقع، في غضون يومين إذاً سيأتي المستوصف السيار، وطبيب ومساعدته، وثلاثة مضمدين، أي غياب هذا ..! ماذا سيكون بوسع مساعدة طبيب أن تفعل هنا في هذا الجحيم، سيدة من غير المسموح ملامستها بين مئتين وتسعة وثلاثين رجلاً من القتلة في هذه الغابة ..؟! وهم على استعداد لأن يقتل أحدهم الآخر إذا مجرد ابتسمت هذه الفتاة التي تدعى نورينا ساما زينا ..!

نورينا سامازينا، ياله من أسم، إذا كانت فعلاً جميلة كرنين حروف أسمها، آنذاك فليرحمنا الرب. هز رأسه وغادر البراكة. زحف العمال صوبه

" ماذا يقول هذه الحيوان النتن اريراس ؟ " هتف الجيرا " لماذا يتوارى عن الأنظار ؟ هل عملها في سرواله ..؟! فليخرج إلينا، أم ترى أنه أنفق أجورنا على السكر والعاهرات، نحن لسنا عبيداً ..! ".

" نحن لسنا عبيد " هتف المتظاهرون بصوت واحد ورفعوا قبضاتهم إلى السماء مهددين التي كانت تبدو براءة بعد زخة مطر الظهيرة.

كانت الشمس مشرقة تشع، والبخار يتصاعد من الأرض، والغابة العملاقة الكثيفة تهب منها رياح ساخنة وكل ما يرتديه المرء يلتصق على جسده، وهذا المناخ يحمل كل أمرئ على الفتور حتى أولئك الذين ولدوا هنا، إنها أنفاس الغابة، تفتنر الأجساد كالحامض المخلل.

" كل شيء في الطريق إليكم أيها الأصدقاء " قال جبهارت بصوت عال، كان صوته ذا رنين متعب. لا خدمات، لا أجور، بل وحتى المستوصف سيأتي وهو الآن في كيرس، أصبروا بضعة أيام أخرى وعودوا إلى أعمالكم ..! ".

كان العمال واقفين كالجدار، تختلط ألوان بشرتهم بيم الأصفر والبنّي، أو زنوج ذوو بشرة سوداء، أو بلون بني كالحناس لدى الهنود منهم، بيض برمادي وسخ ناشف بفعل أشعة الشمس،

كان الجيرا يقف في المقدمة، ذا كتفين عريضين، وقفص صدري كبير، ساقيه كعمودين وذراعين كأنهما دعامة رافعة، وعلى مساحة وجهه الكبير تنمو لحية وحشية.

قاتل، يقطع بسكينه رقبة رجل، تصور جبهات ذلك وما هو بالنسبة لإنسان وكيف بوسعه فعل ذلك ..؟

" متى أطلق لويس جيزوس كذبتة هذه المرة، سوف نسحبه على حمالة كما يفعل معنا عندما يعاقبنا "

" نحن لسنا عبيد " هب صراخ الجوع، وكان صوت صراخ الزنوج السود هو الأقوى، أنهم يعلمون ماذا يعني ذلك ... أن تكون بلا حقوق.

" انتظروا " قال جبهات رافعاً كلتا يديه إلى الأعلى، لقد أرسلت تقريراً مطولاً إلى العاصمة، ولا بد من أن الوضع سيتحسن هنا "

في المساء، جلس مع عناصر وحدته إلى النار الكبيرة الموقدة في فناء المعسكر، ولم يوقدوا النار بسبب البرد، بل من أجل أبعاد أسراب البعوض الكثيفة، لذلك كانوا يجلسون بالقرب من النار الموقدة كالأوراق المبتلة، والأدخنة كانت الوسيلة الأفضل لأبعاد لسع البعوض.

" أريد أن أتحدث معك باولو " قال جبهات وهو ينتحي بالجيرا جانباً.

ومضيا يسيران مسافة جنباً لجنب، وجلسا على مقطع لجذع شجرة هائلة، يدخان بشراهة سجائر لف يدوي بتبغ أسود.

" ماذا تريد مني يا صديقي " سأل الجيرا " لا تحاول التأثير علي، فنحن نعيش فوق بركان، فوق بركان مكون من ألف وسبعمائة إنسان، ولم يعد بوسع المرء الاعتماد على الوعود، نحن نناضل من أجل قضية عادلة "

تطلع كارل جبهات إلى الجيرا كمقطع جانبي، ترى كم يقدر عمره ؟ .. وكان قد أطلع بين الحين والآخر على أوراق الجيرا، واللحية الكثة تظهره أكثر عمراً من الحقيقة، وكان قد أنتبه إليه منذ أسابيع، هذا العامل له قوة جرار.

" هل كنت قد قتلت رجلاً ؟ " سأل جبهات.

لم يهز السؤال المفاجئ الجيرا، وبدا وكأنه قد أعتاد على ذلك، " لقد عاقبت رجلاً " رد بهدوء.

" وفيها قطعت رأس الرجل ؟ "

" نعم يا صديقي كان ينبغي أن يحدث ذلك "

" لا بد لك من الإقرار يا باولو أن هذا ليس أمراً طبيعياً "

" كان ذلك طبيعياً صديقي " قالها باولو وأخذ نفساً عميقاً من سيكارتة التخينة السوداء " كان ذلك قبل سبعة سنوات، كنت لما أزل بعد رجلاً شاباً، وكنت قد تزوجت لتوي أيفا بيبيتا، هذا أسم زوجتي، وهي جميلة، كانت الأجمل في اماليوزا، وأخذتها معي إلى ريكيفا حيث كنت أعمل هناك كعامل بناء، وكنت أحصل على المال بما يكفي، كنا نلح بمنزل صغير ذي حديقة، وبقرة

وخنزيرين وخن ملئ بالدجاج، وكل ما يحلم به المرء، وأطفال، نعم كنا نريد الكثير من الأطفال، الأطفال هم بركة الرب، نعم ثم جاء أرنستو إلى موقع العمل، المهندس المعماري أرنستو، وكانت أيفا تجلب لي الطعام في كل ظهيرة إلى موقع العمل، وهكذا فقد رأها، وبعد أربعة أيام رأيت يا صديقي زوجتي مرمية على الأرض ممزقة الثياب، وقد أعتصبها أرنستو."

واصل الجيرا تدخينه وهو غارق في التفكير، يخط بحذائه على أرض الغابة.

" لقد بحثت سبعة أسابيع بطولها عن أرنستو، فقد هرب كما يهرب حيوان مذعور، ولكنني عثرت عليه، كنت أنظر على عينيه فيما كنت أقطع رأسه، ألم يكن ذلك عدلاً يا صديقي؟". قال ذلك وتطلع إلى جبهارت.

حقاً كان يمتلك عينا طفل، فكر جبهارت، انه يريد أن يسمع مني، بأنه حسناً فعل، بماذا علي أن أجيبه؟.

" إني أعلم " قال الجيرا " أنتم لديكم قوانين اخرى، ولكن هنا هي الغابة، فهنا يتعين على كل أمرء أن يناضل من أجل حياته وسعادته وإلا فإنه سوف يتعفن مثل شجرة الليانا المتسلقة المختنقة، وإنني أخشى بأن يحدث هذا قريباً مرة أخرى ".

" ماذا ..؟ " قال جبهارت بذعر.

" بأنه يتعين علي أن أحتز رأس أحدهم " وقطع الجيرا بقية سيكارتته إلى نصفين " أني أحب أليا، هل تعرف أليا يا صديقي، إنها فتاة هندية نظرة وكأنها زهرة، إنها تعمل في الكانتين(نادي ومطعم) ونحن نوفر كل قرش ونودعها في بنك بالعاصمة، ولكن لويس جيزوس اريراس يطاردها، يلامسها بصورة غير نزيهة، ويسمعها كلمات قذرة، وسوف يعيد الأمر نفسه ".

قال ذلك بكل هدوء فيما كان جبهارت يتأمل، لقد مضى على وجوده في هذا البلد ثلاث سنوات، وهو يعلم أنه لا يمكن هنا أن تثني رجلاً عما يريد أن يفعله إذا تعلق الأمر بشرفه كرجل.

" وهل يعلم أريراس ذلك ..؟ " سأله بحرارة.

" أليا قالت له ذلك، ولكنه ضحك فقط، ثم لامسها بحماقة في ثديها ".

" سوف اتحدث معه " قال جبهارت ذلك ونهض واقفاً.

سوف أطالب المركز أن يستغنوا عنه، هكذا فكر في نفسه، عندما أذهب إلى العاصمة، ينبغي علي الحديث مع السيد بولو، أن البشر كالتماسيح عندما تشم رائحة الدم، فإنها تتفعل بنشوة وحماس، وأريراس سوف لن يكون الضحية الوحيدة.

" لقد تأخر الوقت يا بولو " قال جبهارت ثم أردف " غداً في الصباح الباكر سنبدأ من جديد، وعلينا أن نعمل بدل اليوم الضائع، أذهب إلى النوم، ليلة هائلة ".

توجه الجيرا إلى الخيمة الصغيرة بالقرب من النار الموقدة، واختفى بين بقية العمال، وفي مكان ما كان يسمع صوت بانجو (\*\*) يعزف لحناً هندياً حزيناً، فيما عادت سيارة شحن إلى المعسكر بمجموعة عمل صغيرة، بالطبع كانوا سكارى يزعمون، قادمين من المعسكر الرئيسي الذي يقع في منتصف المسافة بين كيرس وبين آخر موقع عمل متقدم، كانوا يتهاقون مع بعضهم

والآخرين ببذاءة. ومن يستغرب ذلك؟ إنهم قادمون من المبعى المتجول للسيد بولو يبلغون زملائهم عن تفاصيل أحداث سفرتهم مع المومسات هناك.

سيستمر الحال هنا على هذا المنوال عامين بعد، هكذا فكر جبهارت، ترى هل سأستطيع تحمل ذلك، أم أنني سأقذف المنديل مستسلماً كما يحدث في مباريات الملاكمة...!

لم يكن هناك شئ أبعد من ذلك

وأخيراً وصلت الصناديق المنتظرة للمستشفى الجوال، وبدأ الدكتور سانتالوس مع اثنين من الممرضين مقارنة القوائم مع المواد المرسلّة: أدوية، أربطة، أجهزة، طاولة عمليات صغيرة، جهاز لتوليد الطاقة الكهربائية، الذي يغذي جهازاً لألتقاط الأشعة، جهاز حفر الاستان، آلة تعقيم الأبر (الحقن)، غسالة. كان كل شئ موجوداً، شئ واحد لم يكن موجوداً، شئ واحد لم يكن جيداً: وجود خيمة ثابتة، وأسرّة للمرضى والجرحى الذين يستلزم وضعهم الرقود، كذلك كان ينتقص الأدوات المساعدة في حالات الصحة العامة وفي تقديم إسعافات سريعة.

وفي حديث هاتفي مع أحد مسؤولي "حركة إعمار البرازيل" قيل للدكتور سانتالوس بصراحة: لا تطالبون تأسيس مستشفى جامعي في غابة بدائية، إنه يكفي أن نقدم العلاج هنا بصفة عامة، والرجال هنا قد اعتادوا الاستلقاء على الأرض، وأن يتغطوا خلف الأشجار. وأنه أفضل للطبيب الذي يواجه الحالات المرضية الكثيرة، الرجال الذين يسحقون الغابة لا يمكن قياسهم بمقاييس المدن التي نعرفها ونقيس عليها."

"غداً سنبدأ" قال الدكتور سانتالوس في الليل بعد أنتهاء مراجعة القوائم ثم تناول طعامه في مطعم إدارة العمال بكيرس، وتناول نوعاً من النبيذ الأحمر الخفيف، وجلست على الطاولة المقابلة فتاة منهمكة بكتابة رسالة، كانت نورينا سامازينا.

نورينا سامازينا ..... حقاً كان جبهارت على صواب في مخاوفه، إذ كانت فعلاً أجمل من أسمها، وإذا كان الافتراض ممكناً، وأن أريج زهرة فاتنة يمكن أن يتجسد، فإن الطبيعة قد خلقت فتاة مثل نورينا، وعندما كانت قد قدمت إلى الدكتور سانتالوس، قال لها على الفور "هل تريدين العمل في الجحيم الأخضر..؟ يا إلهي الرحيم، عودي على الفور واهربي، فإن إرسالك بين ألفين من الرجال هو جنون واضح."

وقد أجابت بغير اكتراث "ماذا تريد سيدي، إنني أمضي بإرادتي، لم يرغمني احد ويسعدني أن أعمل هناك."

"إذن عليك أن تتجولي هناك بحماية مسدسين محشويين" أجابها سانتالوس بحدة.

أوضحت، وهذه المرة بأبتسامة ساحرة "ولماذا؟ إن ابرة (حقنة) واحدة تكفي بالتأكيد."

في العاصمة ريو دي جانيرو، لم يكن الدكتور سانتالوس معروفاً إلا بدرجة بسيطة، فقد كان واحداً من الأطباء الشباب المثاليين، الذين يؤمنون بأن من الممكن تغيير العالم من خلال الإنسانية



والعدالة والاشتراكية، كان قد نال توصية من قبل القس بييترو دي سيتا، وهو رجل دين شاب يرتدي الجبة فقط من خلال عمله الكنسي، وفيما عدا ذلك فهو وسخ كالفقراء، وهو الذي عاش بينهم والذين يحبونه إلى درجة التضحية بالنفس، كان يتجول بينهم بقميص مفتوح وببدلات قديمة. ومن خلال القس بييترو دي سيتا يعرف المرء بأن (على العكس من إدارة كنيسته) المسيحية تعظ، ليس بالصبر والاستكانة، بل الثورة ضد الشقاء والفقر والاستغلال والقمع.

كان القس دي سيتا قد شجع الدكتور سانتالوس، وحيثما كان يوجد طبيب على شئ من الجنون، أن يتطوعوا تلقائياً للعمل في الغابات المجهولة من أجل أن يحملوا ما يقارب الألفين من المجتمعات البدائية من جميع الأعراق والألوان نفحة من رعاية طبية ..! ففي الدوائر الحكومية وكذلك لدى دائرة البناء، ثم في المكتب المركزي للسيد بولو كان المرء يحس بالسعادة ليجد في الدكتور سانتالوس الذي قبل هذا الواجب الشيطاني.

لا أحد يعلم كيف أرسل المرء إلى الجحيم الأخضر، وكان الكل يضغط على يد سانتالوس ويتمنون له التوفيق والحظ لكي يبقى على قيد الحياة، يقبلون الأجر المرتفع ومخصصات الخطورة ولكنهم يهزون رؤوسهم عندما يغادرون مكاتب الشركة.

وكان الممرضان اللذان يبحث عنهما سانتالوس، رجال طوال القامة، كلاهما يتمتع بجثة ضخمة كالدب، وعبء الأمتحان الذي أدياه، فقد تمرنا على الرماية، وكل ما هو ضروري للحياة في تلك المناطق، فكان الأول اخصائياً في العمل على أجهزة اللاسلكي والثاني خبيراً في المتفجرات، والثالث كان مطبوعياً، ولم يكن أحد يعلم ولا حتى في مكاتب الشركة، كيف وجد بين عفش المستشفى طابعة متنقلة. وكان ظهور نورينا سامارينا قد سبب القلق للدكتور سانتالوس.

كانت نورينا قد درست الطب في ريو، وبدلاً من أن تمارس المرحلة العملية في واحدة من المستشفيات النموذجية التي شيدت حديثاً، والتي يأخذون إليها بكل فخر واعتزاز كل زوار وضيوف البرازيل، فذهبت وسجلت أسمها للعمل في الغابات.

وحتى في حالتها، يهتم المسؤولون بها على الفور، كمساعدة طبية، فتاة شابة مثلها تبحث عن العمل في المقاصف أو كعاهرة في المواخير المتجولة، أو في تطعيم النسوة الهنديات اللاتي يرغمن على التلقيح ضد الأمراض في القرى التي تكشف في أعماق الغابات لقبائل هندية غير معروفة.

" وما هو رأي والديك حول فكرة هوجاء كهذه " سأل سانتوس عندما جاءت لتقدم نفسها وفي يدها شهادتها الحكومية.

" لا شئ، لم يعد لدي والدين " .

" المعذرة، لم يكن بوسعي أن أعلم ذلك " .

" طبعاً " ابتسمت نورينا ابتسامة فاترة وأضافت " لقد توفي والدي في حادث سقوط طائرة، أنتم تذكرون الطائرة التي سقطت في البحر قرب ساوباولو عندما كانت تحاول الهبوط قبل أربعة سنوات .. " .

" نعم أتذكر ذلك كان حادثاً فضيحاً " تصفح الدكتور سانتالوس أوراقها وأردف " فأنت تسعين إلى قدرك نورينا .... كلا سأخذك معي " .

" يجب أن تأخذني معك دكتور، فلدي عنوان وظيفة واضح، وعقد عمل صحيح ".  
وطوال أربعة أيام كان فيها دكتور سانتالوس يجري فيها اتصالاته الهاتفية، بدون نجاح، إذ كانت نورينا قد عينت على ملاك كادره، حتى القس بيتر دي سيتا الذي كان قد تدخل، أخفق في مساعيه لدى الرؤساء.

" ينبغي علينا أن نضعها في أمان، وفي الوقت المناسب "، قال سانتالوس لاحقاً، وقد التقيا في كيرس في فندق صغير الذي أتخذه كمقر لمستشفاه " إنني في كل الأحوال لن أكون مرتاحاً حتى أحصل على طائرة هليكوبتر كمستوصف، وهذه ستكون مفيدة جداً في نقلها السريع ".

" ومتى سنكون في المعسكر ؟ " سأل دي سيتا .

" في غضون يومين بيتر، وغداً صباحاً سوف ننطلق ".

" حضاً سعيداً ستيفانو ".

" شكراً ".

وتصافحا، كان أكثر من وداع بين صديقين، لقد تبادلنا نظرات متآمرين وكأنهما يتقاسمان بينهما  
سراً "

---

\* البراقة هي غرفة أو أكثر مصنوعة من الصفيح والخشب قابلة للتفكيك والنقل.

\*\* بانجو: آلة موسيقية هندية.

في البدء وصل الإمداد إلى المعسكر، مئونة، الأجور، وسيارة باص صغيرة للأرياف، ومخزن بالأماكن أن يجد المرء فيه كل ما يحتاجه، من الدخان إلى ماء الكولونيا، ومن الصور المقدسة حتى المجلات الجنسية. والسيارة / المخزن، جهزت المطعم الذي كان صغيراً بالنسبة لعدد كبير (سبعمائة رجل)، وبعد بضع ساعات من دفع الرواتب الأسبوعية أصبح المخزن خالياً.

هناك في الأمام، النقطة المتقدمة في بناء الطريق، حيث يعمل العمل بقطع أشجار الغابة، هؤلاء الذين أول من تعاملوا مع هذه الغابات الأزلية، كانت الأشجار تهوي لتفسح المجال للطريق، وهم يدكون الجدار الأخضر.

عاد الهدوء الوقتي، الجيرا وأصدقائه كانوا يواصلون العمل، عشرة ساعات في اليوم، وفي الحرارة المتوهجة، في جو رطب بفعل أبخرة الغابة، تنثر حولهم ألوف مؤلفة من البعوض يمثل الجحيم بعينه، بالإضافة للعفونة وروائح نتنة كريهة، وأرض طينية لزجة، وجدار مؤلف متسلقات ليان الخضراء الغليظة، تشكل إزاحتها صعوبة وكأنها من المطاط.

بعد عشرة ساعات، أنطرح الوردية الأولى من العمال مرهقة، شبه موتى في الخيم الوضيعة، كان الرجال متعبين لدرجة أنهم لم يسمعون نداء الوردية الليلية حيث كانوا يعملون على أضواء الكشافات، متراً بعد متر في الأرض المجهولة حسب خطة تنطوي على أمر واحد: إلى الأمام باستقامة..!

كان كارل جبهارت (بناديه البرازيليون كارلوس) قد عاد بسيارته اللاندروفر إلى المقدمة، وكان الهاتف العمليتي الذي ترتبط بخط معلق مع هاتف مدينة كيرس، يمكن أ، يحقق نداء هاتفي مع العاصمة برازيليا بمقسم (بدالة) السيد بولو، وقد استلموا شكواه، ولكنها لم تلقى أكثر أي تجاوب.

" سوف يتم الإطلاع عليها، " قال له صوت يدل على رزانة من مكاتب العاصمة وأضاف " سوف يفحص الأمر موظف مختص ".

" لا أريد موظفاً مختصاً، إنني أريد محادثة السيد بوبو شخصياً..! " زمجر جبهارت في سماعه الهاتف " إن الموظفين المختصين يعيشون أزمة عيشة الملوك ".

لم يستطع التوصل إلى أبعد من ذلك، إذ أنقطع الخط فجأة، ولم يعلم أحد من أي طرف كان القطع.

" هكذا هو الأمر دائماً يا سيد كارلوس " قال الجيرا في المساء عندما عاد جبهارت إلى المعسكر الأمامي مرة أخرى " علينا أن نساعد أنفسنا بأنفسنا وإلا نفقنا جميعاً قبل أن نصل إلى ريو ارغوايا ".

جاء هذه الليلة إلى المقدمة ضيوف: كانت سيارة جيب تسير في المعسكر، توقفت أمام مقر جبهارت، والعمال الذين كانوا حتى ذلك الوقت جالسين حول النار، نهضوا واقفين ثم أخذوا يتقدمون ببطء في حركة تنطوي على شيء من التهديد، وكانت نظراتهم قاسية ومعادية.

شرطة ..! شرطة ..! كانوا قد دخلوا المعسكر، إذن فإن اريراس قد جعلها حقيقة: إنه سيرغم العمال على العمل بالقوة، وكان القادمون هم: ضابط برتبة نقيب مع سائقه، ولكن الكل يعلم أن وحدة بوليس كانت هناك في المعسكر الخلفي تنظر الأوامر.

جلس جبهارت على طاولته وأنهى كتابة التقرير اليومي، عندما قرع النقيب الباب ودخل، فيما أطل سائقه جالساً في سيارة الجيب، وتعلق حوله رجال يتطلعون من النافذة إليه وهو يمضغ بين أصابع يده المرتجفة سيكارة، ما كاد أن يشعلها حتى أختطفها من فمه يد أحدهم، وقد جرى ذلك بدون صوت البتة، فظل الشرطي في جلسته وكأنه قد تحجر فجأة، فهو يعلم عما يدور الأمر، كلمة واحدة فقط خطأ، فسوف يسحب من السيارة، إذ تطل عليه من جميع الجهات عيون معادية كان يراها ترتجف من الكراهية.

" أسمى دورياس بانديرا " قال النقيب ضابط الشرطة وهو يؤدي التحية، فنهض جبهارت وقد بدا عليه الاستغراب وأضاف " هل أنت المهندس الألماني؟".

" نعم " قال جبهارت وأشار إلى كرسي بجانب الطاولة " ألا تريد الجلوس يا حضرة النقيب ؟ ماذا تريد هنا ؟ " .

جلس بانديرا " من أجل الاحتياط من أخطاء، أيها السيد نحن لم نأت لأن أحداً طلب منا الحضور بسبب أعمال تهور، ليس من أجل ذلك، أنا هنا من أجل المذكرة التي كنت قد رفعتها " .

لاحظ جبهارت أن بانديرا يخادع، أنحنى وأخرج من تحت الطاولة قنينة كونيالك وعرضها على النقيب، فهز بانديرا رأسه أن نعم وقال " طعام! ... بسرور " .

" كيف وصلت تقاريري إلى أيدي الشرطة ؟ " سأل جبهارت بعد أن ملأ قدحين " لقد اعتقدت دوماً، أنها تحت الغبار في مكن ما بين الملفات " .

" وهذا ما كانت عليه فعلاً " وأرتشف بانديرا رشفة صغيرة من الكونيالك " على الرغم من ذلك، فإننا علمنا، أن أشياء معينة تدور هنا بصورة سرية، لا بد أنك لاحظت ذلك، أنا أعرف معاناة الناس عندكم، والفساد عندنا معروف ويهيمن على كل مكان " . ورفع بانديرا يده اليمنى مقاطعاً " وفر على نفسك السؤال، لماذا لم يحدث شيء ؟ كيف يمكن أن يحدث شيء إذا كانت عشرة أيادي أو عشرين تعمل في ذلك، وهذه الأيدي هي أيادي بشر وتكافأ بالأوسمة والألقاب ؟ في بلدكم الأمر لا يختلف يا سيد، فقط التأثيرات ليست كارثية كما هي هنا، الفقراء يزدادون فقراً، والمحرومين يزيد حرمانهم، والجرائم تغطي بجرائم جديدة ... وهذا الفن من اختراعنا " . ثم أنحنى إلى الأمام وقال " هل أستطيع أن أتحدث معك بصراحة سيد جبهارت ؟ " .

" طبعاً " كان جبهارت مازال في شيء من حالة من الذهول، فقد كان ما طرحه ضابط الشرطة يمثل له لغزاً، وكان إلى حد الآن يتقاضي كل ما يتعلق بمشكلات العمال، وكان حضور الشرطة بملابسهم الرسمية أمراً يصعب إيضاحه.

" هل لديكم قائمة يا سيد جبهارت بأسماء جميع العمال الذين بحسب معلوماتكم يتحدثون عن الشقاء الذي هم فيه ؟ " سأل بانديرا.

هز جبهات رأسه أن نعم، وقال " طبعاً ولكنها غير متكاملة، أنا أعرف بعضهم فقط والأعداد الكاملة للعمال في الأماكن الأخرى فأني لم أرى حتى وجوههم ولم أحدثهم " قال ذلك وهو يشير بالنفي، ولكن ما الأمر أيها النقيب، حتى الشرطة ستعص على أصابعها وكما قلت الآن، أن الفساد ينمو ويتسع كالفطر حتى في الوظائف والدرجات العليا، وبأمر واحد سيتوقف عملك " .

" ونحن ننفذ الأوامر " ونهض بانديرا وأردف " شكراً على ضيافتك للكونياك، لقد قررت أن أبقى في معسكركم حتى بعد الغد، وسوف يصل المستوصف السيارة هل لديك اعتراض على ذلك ؟ " .

" أنا .. لا .. ولكن عمالي " ثم أتجه إلى الشباك الصغير بينما كان العمال ما يزالون يحيطون بسيارة الجيب، وكان وجه الشرطي الشاب قد غدا شاحباً، وهو يجلس على مقعده دون حراك، كان خائفاً وكان ذلك واضحاً " الرجال هنا في الخارج لديهم فكرة سيئة عن الشرطة " .

" هذا أمر شائع في العالم كله " ضحك بانديرا بمرارة وأضاف " على الشرطة أن يعتادوا على ذلك، سوف أتحدث مع الرجال هل توافق ؟ " .

" طبعاً " .

لم يستغرق الأمر طويلاً، ما كان بانديرا يريد قوله، أفصح عنه إذ مضى عبر دروب المعسكر الذي كان قد شيد حديثاً وقال بهدوء " أيها الرجال أنا لست هنا لكي أطرق على رؤوس أصابعكم، وإنما لأضع في يدكم العدالة " .

" نحن لا نعمل تحت كرابيج الشرطة " صاح أحدهم من بين الجموع " عد إلى كيرس " .

" غداً أو بعد غد ستروون لي كل شيء عن الشكاوي التي تريدون تقديمها " .

" عليك إذن أن تمكث هنا لمدة سنة " وقف الجيرا أمام الضابط وقال " هنا تنبعث الروائح النتنة من كل المسامات " .

" أريد أن أشم ذلك بدقة " قال بانديرا ذلك وقفز من سيارة الجيب " أين يمكنني أن أسكن، من لديه مكان في خيمته ؟ " .

" تعال عندي أيها الضابط " قالها الجيرا مبتسماً معرباً عن استعداده " عندي ستكون بين أفضل الأيادي، فقد قطعت مرة رأس رجل ... " .

" في تلك الليلة أعد جبهات قائمة بأسماء الأشخاص الذين بحسب رأيه يتحملون الذنب في جعل حياة البشر هنا أشبه بحياة الحيوانات، وقد كتب هذه الأسماء على أمل تحقيق العدالة، وهو لم يكن يقصد الشكوى أو الإبلاغ عن أحد، كان يريد تدوين ذلك فحسب .

لم يكن هناك أي جدوى، هكذا فكر عندما أنهى من وضع القائمة، إنها مجرد ورقة، وأنها ستختفي تماماً كما اختفت الشكاوي التي رفعها سابقاً.

بعد منتصف الليل بكثير، جاء بانديرا مرة أخرى إلى الغرفة، فقد كان حتى ذلك الوقت يتحدث مع العمال، وشرب ودخن معهم وتناول مشويات باردة.

" هل صحيح بأنه قبل شهرين جرت هنا إزالة قرية هندية ؟ " سأل الضابط.

" نعم " وتناول جبهارت من صندوقه شريطين (فلمين) من لفافة صفراء شاحبة داخل علبة وأضاف " لقد صورت هذا الحدث أيها النقيب، كان عملاً وحشياً، لقد رفض الهنود أن تستقر الشركة في قريتهم، كما رفضوا النزوح، لقد قمت بالحفاظ على المستوطنة لكن بعد مرور عدة أيام جاءت سيارات شحن إلى المخيم، ستون رجلاً يرتدون الملابس خضراء رسمية وقفزوا من السيارات وبدأوا بإطلاق النار على الهنود رجالاً ونساءً وأطفالاً ". مسح جبهارت قطرات العرق البارد من جبهته وأضاف " لقد اتصلت هاتفياً بالعاصمة وكتبت تقريراً والجواب: ليست هناك وحدة من الجيش أو الشرطة قد كلفت بواجب كهذا، وقد علمت بعد فترة، أنه نوع من جيش خاص لشركة الأعمار البرازيلية التي تقوم بأعمال تصفية كهذه. ولم يتهم أحد بذلك ولا أحد يصغي إلى الاحتجاجات والقساوسة الذين احتجوا ضد هذه الفضائع، ثم توجيه التحذير لهم وتخويفهم " ثم قدم الشريطين قائلاً " هذا هو الدليل ".

أشار بانديرا بالنفي " هذه لا أحتاجها، فأنا أعلم من هو قائد هذه الوحدة وهو يدعى فيليب تروفيار ".

" هذا ما لم أكن أعرفه " قالها جبهارت وأخذ الشريطين وقذف بهما إلى الصندوق " آنذاك كنت قد قدمت إنذاراً ولكن حتى هذا ظل بدون إجابة من العاصمة ".

" أبقى هنا يا سيد كارلوس " قال بانديرا بهدوء " نحن بحاجة إليك، وحتى العمال برغم أنهم شباب فإنهم يطلقون عليك لقب باي (Pai) وهذا تشريف لك، وهو ما يقابل عندكم كلمة الأب ".

نهض بانديرا وحيا بأدب ثم غادر الغرفة.

إنسان يستحق الاحترام، فكر جبهارت في نفسه، الشرطة يكونون على غير هذه الشاكلة، ترى إلى ماذا يهدف في الحقيقة، وهو هنا في مقدمة المشروع حيث لا تستحق حياة الإنسان ولا حتى بضعة قروش لا أكثر.

كانوا يقفون حيث مجرى إحدى الجداول الغير معروفة، إنها تسيل من مكان ما وتنحدر إلى مكان ما، وأسماء هذه الأنهر لا يعرفها سوى الهنود الذين وضعوا أسمائها، ولا توجد على الخريطة، لأنها لا تشاهد حتى من الطائرات، فأشجار الغابة تنمو وتتشابك فوقها لتشكل سقفاً هائلاً معلقاً فوقها، والماء أخضر نثن، وتفوح من صفحته روائح كريهة، وكأن النهر قد ارتدى جلدًا فرش عليه تماسيح، وإذا ما قذف المرء بكتلة من اللحم يبدو فيتحول النهر كأنه قدر ضخم من الماء الأخضر يغلي، وفي تلك المياه أيضاً، سمكة يبلغ طولها حوالي الذراع لا يبدو منها سوى رأسها وأسنانها، وهي سمكة مفترسة تدعى: بيرانا (Piranha).

" الزورق هنا " أمر باولو الجيرا، إنهم يعرفون عوائق كهذه، بل أنها من الحياة اليومية لعمال المقدمة، والمرء يشم ذلك من مسافة بعيدة، ثم فعلاً يقف المرء على ضفة نهر من هذه الأنهار

على أرضية متأرجحة غير ثابتة، يحملق في عيون التماسيح الباردة الغاضبة وهو يعلم بأن هذه المياه الخبيثة تعني نهاية راقصة. ولكن لا بد من المواصلة للوصول إلى الضفة الأخرى، الخطة تمر من هنا، الطريق، هذا الطريق القذر ذو عرض عشرون متر، ليكون بذلك مجالاً كافياً لأبعاد القبائل من المنطقة، ولإحراق الأشجار وأوراقها المتساقطة، لا بد من أنجاز الطريق إلى أرغوايا، هذا الطريق الذي سوف تجري عليه ثروات البرازيل الواعدة، إنه أضخم مشروع في القرن العشرين، أعجوبة من عجائب الدنيا، أعجوبة عالمية لم يتحدث عنها أحد.

لاحقاً، سينتصب هنا جسر من أجزاء جاهزة، خرسانة على طريقة الشد والتوتير، سيكون هنا سهم دلالة فقط، أما التماسيح وأسماك البيرانا، وكل ما يمكن نهبه، فستتم إبادته بواسطة المتفجرات أو الصيد. ولكن اليوم يوجد فقط زوارق مصنوعة من الخشب مع ألواح تقوية لقاعدة الزورق، أشياء قديمة شبه تالفة وعلى المرء أن يجلس بهدوء وإلا فإنه سينتهي بين أشداق التماسيح وأسنان البيرانا. وكل شيء هنا رخيص.

رخيص الطريق الذي يكلف مليارات الريالات (عملة البرازيل) ولكن الأعمال التمهيديّة والمعدات لا ينبغي أن تكون باهضة، وعدا ذلك، هناك السيد بولو الذي يريد أن يربح.

جلبت الزوارق المواد من المعسكر، وكان جبهات وبانديرا واقفين على ضفة النهر يراقبان التماسيح تعوم فوق صفحة المياه الخضراء الساكنة.

" لا.. لا تطلق النار " قال جبهات لضابط الشرطة " أعلم أن ذلك سيهيج الكل، هذه الوحوش التي إذا ما أصيب أحدها، فذلك يعني أن الشيطان قد أنطلق في النهر " .

" إنني برازيلي " قال بانديرا ضاحكاً " لا تخبرني عن رائحة الدم " .

الزوارق الأولى جاءت إلى الأمام وهي تتعثر بأغصان الأشجار وهي تشق طريقها بين الأشجار المترامية على الماء، وكان عمال المقدمة يصدرون الأوامر، الشتائم تنز في الجو الساخن، هواء خائق، وتعرق شديد، أجساد شبه عارية يدفعون القوارب ويحملونها إلى الماء.

مر باولو الجيرا وهو يقود جرافة وقد اقتلع شجرة ودفع بها جانباً، مر بالقرب من جبهات الذي غمز له وأشار إلى الخلف، ثم أحنى بجسده على قمرة السائق.

" لدينا جنون " زمجر ليغالص صوت الضجيج " ومن أول نظرة سقطت على عيون الشباب من رؤوسهم سيد كارلوس " .

ضحك ومضى بأليته الثقيلة مواصلاً عمله.

" ينبغي أن نلتقي ونرى بعضنا " قال بانديرا " زوار هنا في المقدمة لا يمكن أن يكون إلا جنوناً " .

ثم قفز إلى سيارة اللاندروفر ومضيا عائدين في طريق وعرة غير معبدة أو ممهدة الأمر الذي أتعبههم حقاً .

من بعيد شاهدا كيف أن عدداً من الرجال يحيطون بشيء كما لو كانت كتلة من ذباب كبيرة الحجم تبدو كأنها ملتصقة بشيء، وإلى جانب هذا التجمع، كانت أربعة سيارات متوقفة، بيضاء اللون عليها علامة الصليب الأحمر، وضع بانديرا يده على ذراع جبهارت.

" المستشفى " قال، ثم أردف " هنا إلى الأمام ينبغي أن لا ندعهم يتوقفون قدر الامكان، لابد أن الطبيب المسؤول حمار " .

ثم قاد السيارة بسرعة في الفسحة الخالية من الأشجار، ثم أوقفها عندما شاهد الرجال يتراخضون قادمين من غرف الإدارة ومن كل صوب وقفزوا أمام السيارة وكانوا يتصرفون كالمجانين.

تقدم جبهارت عبر الرجال وتدافع ووجد طريقه حتى توصل أخيراً إلى الموضوع الذي كان مثار التعجب.

إلى جانب رجل ضخم كان يلوح بذراعية إلى الذين كانوا يحاولون أن يتوجهوا إليه بأسئلة كثيرة، كانت تجلس في سيارة جيب مكشوفة، فتاة شابة ذات شعر أسود طويل غير معقوص، ذات عينين لوزيتين أثارت وحشية الرجال الذين كانوا يتلفظون كلمات وملاحظات من طراز وضيع، أحط ما يمكن لرجل أن يسمعه، لا بل كانوا يضحكون عندما صاح أحد الزوج من ذوي العضلات المفتولة " أنا الأول يا لعبتي ..! أنا مشهور بوجود فالول (ثألول) في القبضة " .

والآن شاهدت جبهارت الذي اقترب خلال حلقة الرجال وتوقف فجأة أمامها، رفعت رأسها الجميل قليلاً، فقد بدا كما لو أنها تجمدت، تطلعت بصمت، ولم يكن اصطدام صاعقتين ببعضهما سيكون له ذات الوقع القوي الذي شعر به.

هذه هي ... تفحصته جيداً، نورينا سامارينا، ملاك قد طار وحط هنا في هذا الجحيم.

ومن الخلف، سمع النقيب بانديرا، وهو يزمجر على العمال ويطردهم بعيداً عن سيارة الجيب. وبدأ جبهارت يتصرف وكأنه قد زالت عن عينيه غشاوة، أو أنه أزاح حجاباً. دخل سيارة الجيب ومسح العرق عن وجهه بذراعه الأيسر، وللمرة الأولى منذ سنين أحس بالخجل من قدرته وإهماله لنفسه.

" أعتقد أنك قد مضيت بعيداً يا آنسة " قال ذلك وصمت، فقد بدا صوته وكأنه قد فقد رنينه، ولكنه أضاف " أنا كارل جبهارت " .

" هل أنت ذلك ؟ " ترجلت نورينا سامازينا من الجيب وقد فاجأها أن يمد جبهارت يده ليساعدها، قفزت إلى أرض الغابة لأول مرة، وساوت بيدها تنورتها الكتانية.

كانت نورينا متوسطة الطول، ذات ساقين طويلتين نحيلتين، وجسد نحيف، وثديان يبدون تحت البلوزة عامرين وكأنهما قبتين مستديرتين مليئتين، وبكلتا يديها قذفت بشعرها الطويل إلى الخلف، وتطلعت إلى جبهارت نظرة شاملة، وكأنها تقيس طولها " إليك كنت أقصد " قالت ثم أوضحت " أقصد أن الدكتور سنتالوس يريد ذلك، وها هو قادم " .

اقتربت سيارة جيب أخرى من السيارات الأربعة، لوحت لها نورينا وأشارت إلى جبهارت.



" الآن عليك إيقاف ثلاثمائة خطأ في لعبة الشطرنج " همس بانديرا لجبهارت " إن إرسال شيئاً كهذا إلى هنا هو الجنون الكامل، المستوصف سيمتلاً بالرجال الذين سيقتلون بعضهم بعضاً " .

قفز الدكتور سنتالوس من السيارة وتقدم إلى جبهارت بذراع ممدودة، كان يرتدي بدلة خاصة بالغابات مما يجعله أشبه بمقاتلي العصابات أكثر منه إلى طبيب.

" لقد سمعت الكثير عنك سيد كارلوس " قال ذلك وعانق جبهارت كما يفعل ذلك مع صديق قديم، ثم رأى بعد ذلك النقيب بانديرا، فنسى ذلك الود القلبي الذي أظهره توأ، كما ألتع البرق في عيني جبهارت ونورينا، والتقت نظرات سنتالوس وبانديرا وكأنهما في مباراة وصراع دام ثوان، لم يكن فيه منتصر، وبعدها أبتسم سانتالوس مرة أخرى مجاملة وأدباً.

" لقد اعتقدت أن ليس للمستشفى سوى أهمية قليلة " قال " إذا كان مريضاً في هذه الأرجاء البعيدة يتطلب نقله خلال ساعتين أو ثلاثة، ستكون مسألة حياة أو موت بالنسبة له، وأنا أريد أن أبقى هنا في موقع العمل الأمامي سيد كارلوس، ما رأيك بذلك ؟ " .

تفادى جبهارت أن ينظر إلى نورينا مرة أخرى، بل تطلع بلمحة إلى النهر حيث يتناهى الآن صوت صراخ كثير، إذ كانت أولى الزوارق قد جرى إنزالها إلى الماء.

" ما هو رأي لويس جيزوس اريراس بذلك ؟ " سأل جبهارت.

" إنني لم أسأله " قال ذلك سنتالوس بأختصار.

" إنه مدير العمل هنا " .

" كنت أتصور أن مدير العمل هو رئيس المهندسين تانيرو ؟ " .

" هل كان السيد تانيرو هنا ؟ " سأل جبهارت.

" كلا " .

" وإنك سوف لن تراه إلا نادراً، تانيرو له حبيبة في كيرس وهي تكره البعوض جداً، وهنا توجد جيوش من البعوض ونائبه هو اريراس.

" إنك لا تحبه، أليس كذلك يا سيد كارلوس " .

" ومن الذي يحبه هنا يا دكتور ؟ " .

" ستيفانو سانتالوس " أكمل الطبيب معرفاً اسمه، ثم أخذ يبحث في جيوبه عن السكائر " يبدو أننا سوف نتعاقد يا سيد كارلوس، ما أعجبنى بك لأول وهلة أن اريراس يكرهك كما يكره الطاعون، وهذا يثبت نوعيتك، هل لديك سيارة ؟ " .

" عندي واحدة " قالت نورينا، وقبل يتمكن جبهارت من الإجابة وناولت سنتالوس العلبة، ومرة أخرى تبادلت نورينا اللمحات مع جبهارت وكان الأصدام الذي لا صوت له، هذه المرة ذو

مغزى ... وقد شعر بها كلاهما، أبتعد كل منهما عن الآخر، ومضى كل يتطلع إلى اتجاه آخر فيما كان النقيب بانديرا يشعل سيجارة الدكتور سانتالوس .

" وماذا فعلت الشرطة هنا ؟ " سأل سانتالوس.

" إنها تعني بالنظام يا دكتور "

" إنه شعور بالعدالة "

" عليك أن تأخذ الجانب العدل أليس كذلك ؟ " وأخذ سانتالوس نفساً عميقاً من سيكارتته ونفخ الدخان جانباً لأن نورينا كانت أمامه.

" بالتأكيد " قالها بانديرا وأبتسم، ولكن عينيه كانتا تشتعلان " على المرء أن يعلم من أي مادة تتكون العدالة "

كان أمراً غير ذي جدوى بالمرة ربط وجود نورينا سامارينا بالموقف والنظام الحالي وإرباكه، هذا ما رآه جبهارت، فلنؤجل ذلك إلى الغد، هكذا فكر في نفسه، فالمساء القادم سيفيض بالكلمات، حيث ستجري أولى المباريات، والصدقة سوف تتحطم كالخشب الهش المتداع، فقط بسبب وجود هذه المرأة في المعسكر، والرجال هنا جياح تماماً، والمبغى المتجول لم يغير من الأمر شيئاً، وبسبب العاهرات كان هناك المعسكر، هناك ثلاثة قتلى قبل ثلاثة أشهر، ومنذ ذلك الحين يحرس الماخور المتجول رجال مسلحون تسليحاً ثقيلاً. والآن جاءت هذه المرأة إلى هنا، سيدة يحلم الجميع بها لجمالها.

في النهر، كانت الزوارق تصطرح بمجاديفها، كان صوت الصراخ يتصاعد، وكأن شيئاً لا يتم على ما يرام، وفجأة هبوا جميعاً في آن واحد، ومن صوب النهر كان يسمع صوت الصراخ.

إنذار ! خطر ! هرع جبهارت إلى هناك وشاهد كيف وضع الرجال الزورق جانباً راكضين إلى النهر، وأنطلق صوت الرصاص فيما كان صوت الصراخ يتصاعد دون توقف.

" حادثة " صرخ جبهارت وقفز إلى سيارته اللاندروفر، وشاهد كيف أستقل الدكتور سانتالوس سيارة الجيب مع نورينا فيما أخذ النقيب بانديرا سيارة الجيب الأخرى.

" اللعنة نادوا على نورينا لتأتي إلى هنا ! " صرخ جبهارت " إذا كان أحد الزوارق قد غطس أبعدها نورينا من هنا، فليأت سانتالوس "

كان يفكر بالتماسيح وفي أسماك البيرانا، وكذلك في الرجال الذين سينتشلون من المياه قطعاً ممزقة من اللحم، ولكن جهودهم ذهبت عبثاً.

جلست نورينا خلف مقود السيارة، وأدارت المحرك وضغطت على البنزين، وعندما مرقت بالقرب من جبهارت وألقت نظرة عليه.

ومن هذه اللحظة، أدرك جبهارت أن هذه الفتاة قد أصبحت قدره.

على الضفة التي كانت تحيط بها الخضرة، كان طاقم أربعة زوارق يحاولون عبثاً أن يسحبوا ستة رجال من الماء، وعلى الشاطئ كان يقف ستة رجال من عمال المقدمة وهم الوحيدون الذين يسمح لهم بحمل السلاح، كانوا يطلقون النار على التماسيح المقتربة، وقد تمكنوا من قتل بعضها، وبذلك فرت الأخريات هاربة من النهر الذي تعكر ليس من أجل الخلاص من الرجال الذين كانوا يطلقون النار ويصرخون فحسب، بل ومن أسماك البيرانا المنطلقة كالأسهم في أسراب مهاجرة، ولم يكن بالإمكان إيقافها، انقسمت، حيث مضى سرب منها إلى التماسيح المقتولة وسرعات ما بدأت بتقطيع أوصالها، في حين أنطلق القسم الآخر من هذه الأسماك القاتلة صوب ضحاياها من البشر الذين كانوا يصرخون، فاستحال الماء إلى زبد وفقاعات ودوامات، كما لو أن زوبعة ساخنة قد هبت في قعر النهر.

بعيون مفتوحة هلعاً، كانت نورينا التي مكثت جالسة جامدة ترقب المنظر الفضيع، صرخ الدكتور سانتالوس معطياً أوامره التي لم يكن أحد ليسمعها، جبهات ركب إحدى الزوارق ومضى يطلق الرصاص من مسدسه دون فائدة ترجى على أسراب البيرانا، والعمال في الزوارق الأخرى، وعلى الضفة كانوا يطلقون النار على التماسيح من أجل أن يمنحوا أسماك البيرانا المقترسة وجبات دموية من التماسيح بدلاً من التهام زملائهم. ومن الخلف كانت إحدى سيارات الحمل التي تم تحويلها إلى عربة إسعاف تطلق صوت زمور (منبه) حالة الطوارئ.

كان صراخ الرجال الستة من الزورق المصاب، لم يعد صراخاً بشرياً، كانت أجسادهم تتمزق قطعاً لا تزيد عن حجم قبضة اليد، فانتشر الدم في بقع عريضة على صفحة النهر، وهذا ما زاد جنون ووحشية أسماك البيرانا القاتلة. " جهزوا أكياس الدم ! " صرخ سانتالوس وأضاف " وطاولات الطوارئ ! بسرعة ... بسرعة ..! هنا على الأرض، اللعنة، أطلبوا الآلات والأجهزة هنا يا حمير ..! " .

قام الممرضون أولاً بفتح طاولة العمليات، وبعد ذلك الصناديق التي تحتوي على الأدوية، اللفافات (الرباطات) والعدد وكل ذلك لما يزل بعد مرزوم في العلب كما وردت من ريو، داخل علب في السيارة. وبضربة فأس، فتح الدكتور سانتالوس صندوقاً ومزق الكرتون من أجل الوصول سريعاً إلى الرباطات وقام الممرض بتمزيق الرزم وتهيئة المنضدة التي ركبت على عجل.

وما كادت الطاولة الأولى تصبح جاهزة حتى جلب إليها الجريح الأول الذي كانوا قد سحبوه من الماء إلى الضفة، وقد نجحوا بطرد أسماك البيرانا التي كانت تنهال عليه بالعشرات كالموجة وعلى التماسيح المقتولة، ولم يعد هناك رجال في المياه التي اصطبغت باللون الأحمر من الدماء، كان الرجال الجرحى يزعمون بأجسادهم الممزقة ويهرع زملائهم بهم إلى سيارات الإسعاف ليرقدوا بالقرب من الدكتور سانتالوس، وقد فرشت شراشف مطاطية الكبيرة على أرض الغابة.

كان المصابون قد جرحوا بشكل وحشي وقد اقتلعت الأسماك الفاتلة أجزاء من أجسادهم، والآن فإن هؤلاء البشر قد أفلحوا عن الصراخ، فقد كانت الإصابات والألام غير محتملة، أفقدتهم الوعي وكانت أجسادهم الممزقة قد تلطخت بطين النهر الأخضر وفتات اللحم والدم.

ساهم دورياس بانديرا بالمساعدة فرفع أحد الجرحى إلى طاولة العمليات، وفي غمرة ذلك لم ينتبه إلى بدلته الرسمية التي تلوثت بالدم والطين.

" ماذا تريد أن تفعل بعد دكتور ؟ " سأل بصوت هادئ، فقد كان هو الآخر متأثراً بالآلام الجرحى " أعطهم حقنة الرحمة .. "

" إذا كنت تقصد " وبالنسبة للدكتور سانتالوس كان ذلك شيئاً مستحيلاً في الطب، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يعمل وفق قياسات الدراسة: فقد قام بسكب عدة جرادل من المساه على الأجساد الممدة أمامه من أجل شطف الطين من عليها لكي يستطيع العمل في الأجساد المقطعة، وبغير ذلك كان مستحيلاً. ترى هل أن الأجساد سوف تتلوث بالبكتيريا ؟ . " أنت لديك مسدس أيها النقيب، أطلق النار، في حقنتي توجد الحياة وليس الموت . "

" وهل هذه حياة .. ؟ " هتف بانديرا بحرارة " كيف ترى هذا الرجل المسكين . "

" لا يختلف كثيراً كما لو أنني أركض في حقل ألغام .. "

دعك بانديرا عينيه السوداوين، وتطلع إلى الدكتور سانتالوس بإمعان، وقد بدأ بالعمل في الأجساد المقطعة، يزرق المضادات الحيوية فيها، وفي نفس الوقت حقن للدورة الدموية والقلب وقد بدا وكأن لديه عشرة أيادي.

" ماذا تفهم عن حقول الألغام يا دكتور ؟ " سأل بانديرا.

سانتالوس كان يعمل بسرعة بما يقرب من السحر، وفي غضون ذلك كانت الطاولة الثانية قد أخرجها الرجال من الرزم، وركنت جانباً، هناك وقفت سامارينا بقميصها القصير، وكانت قد خلعت السترة، وشرعت تعمل في الجريح الآخر حيث سكبت بعض جرادل المياه عليه، وكان يساعدها أحد الممرضين ولكن يبدو عليه عدم الثقة بنفسه، ولم يكن يفعل شيئاً إلا ما كانت نورينا تصدره له من أوامر هي أشبه بالصراخ. ومن سيارة الإسعاف جلب العمال صناديق أخرى على غطاء أحداها كتب باللون الأحمر: بلازما. ركض باولو الجيرا إلى هناك وهو يزمجر " من يتبرع بالدم ؟ " كل المتبرعين بالدم قفوا هنا صفّاً، نحن بحاجة إلى دم، تعالوا هنا، أيها الرفاق نحن بحاجة إلى الدم ..! "

في صفوف طويلة، وقف الرجال ينتظرون، منهم الأبيض، الأسود، الخلاسي(الخليط)، وفجأة لم يعد هناك أعراق... الدم هو الدم. بضعة متفقين من بينهم أدركوا نكهة الموقف، كانوا يبتسمون بهدوء، بل أن الهنود الذين يقومون بأقذر الواجبات والأعمال في المعسكر، تقدموا للتطوع. الهنود القادمين من الغابات الذين كانوا يقتلون بدم بارد إذا ما صودفوا في الغابات دون وخز للضمير وبأقل مما يحس المرء عندما يذبح ثوراً.

" بشر ..؟ " هكذا كان يتساءل الصيادون البيض " كيف يكون هؤلاء بشراً ..؟ أليسوا هنوداً ؟ " هاهم الآن يقفون جنباً إلى جنب جميعاً، إن دماء الهنود هي دماء بشرية كما هي دماء البيض تماماً.

" حقل ألغام ..؟ " سأل الدكتور سانتالوس وألقى لمحة سريعة، تطلع لبانديرا الذي كانت نظرتة قوية كالفولاذ " أه لقد قرأت عنها " .

" أه ... هكذا " قالها بانديرا وتراجع عن طاولة العمليات، ثم تطلع ببصره إلى الطاولة المجاورة حيث كانت نورينا تعمل في جسد أحد العمال الذين تعرضوا إلى تشويه فضيع، وكان الممرضون الآن قد أتموا تهيئة زجاجات الدم، ومعدات سحب الدم، ولكن كانت تنقصهم الإبر التي يتم بها سحب الدم من المتبرعين، والأنابيب المطاطية مع القراصات (المشبيكات)، ترى في أي كارتون وفي أي صندوق هي ..؟ كما كان نقل الدم من شخص إلى آخر غير ممكن بعد، والآن تنقصنا الأنابيب المطاطية.

" افتحوا جميع الصناديق ..! " هتفت نورينا، والتفتت برأسها إلى الخلف، كان يقف ورائها كارل جبهارت يتطلع إليها باستغراب " لا تتطلع إلى هكذا كالأبله " صرخت " من الأفضل أن تهتم بالمواد، أو عز لرجالك أن يمزقوا كافة علب الكارتون ! " . كان وجهها الرائع يبدو وكأنه يحترق، عيناها الغامقتان تشعان بالنيران " نحن نحتاج إلى أنابيب النقل بسرعة .. بسرعة " .

ركض جبهارت حيث قالت نورينا، ومع مجموعة من عشرة رجال أفرغ حمولة سيارة، فتح الصناديق وأخذ يفتش بين جبل من المواد.

على النهر، عاد العمل يتواصل كالمعتاد، وكانت الخسائر: زورق واحد. حسناً ..! ولكن الطريق هو الأهم، فقط الأيام كان يجري حسابها وستكون هناك جوائز أبلغ عنها جبهارت وأيراس، بأن المجموعة التي تنجز عملاً يفوق عما هو مخطط ليوم واحد، ستنال الجائزة. بضعة قروش، ولكنها تعني للعمال: التبغ، الكحول، نساء وقبل كل شيء النساء والعاهرات في المواخير المتجولة يتعاملن بأسعارهن الثابتة. ولنصف ساعة أكثر، يتعين على المرء في هذه الحالة أن يضع ورقة نقدية، ولكن عليك أن تحصل على هذه الورقة النقدية أولاً. وهنا في وحدات المقدمة لشق الطريق عند مجموعات قطع الغابة كما يسمونها هنا الرجال الأقوياء، فقد كان الأمر عبارة عن عمل مرهق إلى حد اللعنة.

والآن يعوم على صفحة النهر اثنا عشر زورقاً، وكانت يقع الدم لما تزل ولم تجرفها التيار بعد، ولم يحملها بعيداً، والتماسيح التي قتلت بالرصاص، لم يبق منها سوى جلودها الصلبة متفرقة على صفحة النهر، فيما كانت آلاف من أسماك البيرانا ذات الأسنان الحادة قد التهمت البقية.

كانت سيارة خاصة قد أنزلت ألواح الجسر الأولى، قطع جاهدة طويلة لإقامة جسر خشبي ذات حجيرات هوائية للتعويم، كانت قد ربطت سوية بعرض خمسة أمتار ثابتة وقوية بما يكفي لكي تحمل سيارة حمل (لوري)، هنا نجح التنظيم، فمن أجل الطريق كان كل شيء متوفراً، ولكن للبشر كان نادراً.

وجد جبهارت ما كان يبحث عنه، فقد عاد راکضاً إلى سرير العمليات وبيده علبة كارتون تحتوي على الأنابيب المطاطية، ونجحوا بتركيب أربعة قطع، وكان الممرضون يعملون بأفضل ما يستطيعون، كانوا يبعدون فتات اللحم المقطع، وينظفون أجسام الجرحى، وكان ما يزال هناك اثنتان من الجرحى يرقدان على الملاء المطاطية المفروشة على الأرض، وكان يعمل من أجلهم زنجي أسود عملاق، واثنتان من الهنود، واثنتان من الخلاسيين، واثنتان من البيض، ولم تكن لديهم معلومات البتة عن الإسعافات الأولية، ولكنهم كانوا يفعلون غريباً ما هو صحيح ... فقد ربطوا اللقافة حول ساق أحد المصابين، فيما كان اثنان منهم يضغطان بالتناوب على الشريان السباتي.

" دم ! " صرخ سنالوس من الطاولة الأولى.

" أين هي قناني الدم المنقول ؟ " ويلعب الحظ دوره ففي ريو كانوا قد رزموا المواد غير معزولة عن بعضها، والأنابيب المطاطية كانت داخل وعاء التعقيم، ضغط جبهارت الكارتون على صدره وأطلق راکضاً صوب نورينا سامارينا.

" وأخيراً " قالت ذلك بقوة، كان العرق يسيل بوضوح على وجهها المحمر وقالت " ساعدني سيد كارلوس " ومرة أخرى التقت عيناها به كشعاع البرق " ولكن حاذر أن لا تسقط ".

فهم جبهارت ما قالت نورينا وشعر بالخلج، وندم الآن على أوامره عندما طلب من نورينا العودة والبقاء في مكانها وأن لا تنظر إلى الأحداث الدموية التي جرت في النهر، وها هي الآن تظهر له كيف أنه أبخس قدرها، ها هي تعمل في الأجساد الممزقة بهدوء في ظروف صعبة وخطرة، فيما كان الممرضان اللذان يقفان إلى جانب طاولة العمليات، كانا على العكس من ذلك، إذ لا فائدة ترجى منهما.

وضع الكارتون على الأرض، مزق بعض العلب وأخرج منها الأنابيب المطاطية، وعدة الزرق من مشبكات وأبر، ووضعها إلى جانب الجريح على طاولة العمليات، فيما كان زنجياً عملاقاً يقف ونصفه الأعلى عار يلمع وكأنه قطعة من الخشب البراق، كان يقف على أهبة الاستعداد وبيده زجاجة نقل الدم.

مد جبهارت جيبه وأخرج منها منديله وأخذ يمسح العرق من وجه نورينا.

وقفت بهدوء ويدها على الجسد الجريح الممزق، العينان مغلقتان، وعندما أنتهي من ذلك قامت بحركة بجسدها تتم على الفخر، ألقت فيها بشعرها المنسدل إلى الوراء وقالت " دعك من هذا سيد كارلوس، الأفضل أن تهتم بأن لا تتعرض نصف مواد المستشفى للسرقة ".

لم تكن الجهود الطبية المبدولة مع اثنان من الجرحى الستة ذات جدوى، إذ كانت جروحهما بليغة بحيث أن أسنان البيرانا كانت قد اقتلعت الكثير من اللحم من جسديهما لدرجة لم يعد ممكناً ربط الشرايين الممزقة، وكيف يمكن استبدال تلك الشرايين التي فقدت أجزاء كبيرة منها.

لكن ذلك لم يكن يعني الكف عن النضال من أجل إنقاذ الجرحيين، بينما كان يجري الإعداد لنصب معدات نقل الدم، وفيما كانت الحقن المختصة بالدورة الدموية وحقن تنشيط القلب. وكان

الجرحي راقدين على الملاء المطاطية المفروشة على الأرض وإلى جانبهم معدات الدم، حيث كان من الضروري معرفة فصيلة الدم، ولكن ذلك لم يكن ممكناً هنا، كما يجري في الأحوال العادية، فإذا كان الدم من فصيلة (O) أو (A) أو (B)، كان الأمر على ما يرام.

أسند الدكتور سانتالوس ظهره متعباً على إحدى الطاولات الفارغة الملوثة بالدم، فيما كانت نورينا والمرضان يراقبون عملية نقل الدم، كان الدم الناقل للحياة يسيل ببطء إلى الأجساد المهذمة، ولبضعة دقائق ساد الهدوء.

" هل نعتبر أن العناية الإلهية والقضاء والقدر قد أوصلكم في هذه الساعة بالذات ؟ " قال جبهارت بصوت هادئ " تعلمون ماذا كان سيحدث إذا كنا نحن كما كان الحال عليه قبل عدة شهور، حيث لم يكن لدينا أية خدمات طبية "

" نعم كان الرجال المساكين سينزفون حتى الموت "

" بل أسوء من ذلك، لم يكن بوسعنا انتشالهم من الماء أساساً، البيرانا كانت ستقوم بواجبها على أحسن ما يرام "

مسح جبهارت وجهه الوسخ بكتا يديه " حتماً أن اريراس يعلم الآن، أن شطب ستة رجال من جداوله أرخص من استخدام معدات طبية "

" أليس محقاً في ذلك ؟ " سأل سنتالوس بصوت منخفض.

" أحقاً ما تقول دكتور .. ؟ "

" إنني أفسر فقط منطق أصحاب الأموال، من هم الرجال الفقراء هنا ؟ .. القضية الرئيسية أنهم يعملون سواء كان لديهم عوائل، زوجة وأطفال، أو أين يعيشون فعلاً، لماذا يقبلون القيام بهذا العمل القذر.. من يعلم ذلك .. من يهتم بذلك ؟ إنهم مجرد أرقام في قائمة، وبالإمكان شطبهم، إنه فعلاً شيئاً رخيصاً " . أنحنى الدكتور سنتالوس مبدياً امتنانه عندما قدم له جبهارت سيكارة، واستدرك وسأل " ومن هو هذا اريراس .. ؟ "

" ألم تؤشر قدمك لديه ؟ " . سأل النقيب دورياس بانديرا الذي أنظم إليهم وكانت بدلتة العسكرية غارقة بالدماء.

" كلا .. لقد أبلغنا عن مجيئنا بواسطة أحد مساعدي بأننا هنا ثم توجهنا على الفور إلى جبهة العمل في المقدمة "

" سوف لن ينسى لك ذلك " وضحك بانديرا بقوة " وسيطلق عليك بأنك ثائر مقتنع، وقد أبلغ الآن حتماً المعسكر الرئيسي كيرس "

" ولماذا أنت هنا أيها النقيب ؟ "

تطلع بانديرا إلى الطبيب متأملاً " من أجل المعلومات " هكذا أجاب باختصار.

" ولمن تخبر ؟ "

" لي " .

" الشرطة غير محبوبة هنا " قال جبهارت " الناس لديهم فقدان ثقة ضد سلطة الدولة، هنا تسود نظرة بأن الدولة لا تحمي الفقراء، بل تستخدمنا كحيوانات عمل لإرادة ورغبات البنوك الكبرى "

" هل ذلك صحيح ؟ " سأل بنديرا مبتسماً .

" نعم " .

" لاحظ ذلك .. إنني هنا لهذا السبب " قال ذلك وابتسم، أرجو أن لا تخطئ بسبب ارتدائي الزري الرسمي، فأنا لا أستطيع التجوال عارياً " .

قذف سيكارتة بعيداً وعاد إلى السيارة المستوصف حيث كان عشرة رجال معينين من قبل جبهارت يقومون بالحراسة كي لا يسطو أحد على المواد الطبية من الصناديق التي فتحت على عجل، تطلع إليه الدكتور سنتالوس وسأله " هل تتصوره ذكياً يا سيد كارلوس ؟ " .

" ليس بعد دكتور " .

" وإلى أي جانب يقف " .

تطلع جبهارت إلى الطبيب بريبة وقال " إنه فعلاً سؤال يستحق التفكير " .

أبتسم الدكتور سنتالوس " إنك عديم الخبرة، أو أنك تنتهج سياسة (فوكل - شتراوس \*) أخرج رأسك من الرمال سيد كارلوس " .

" إنني أعلم بأننا نعيش على الدوام فوق بركان بشري، ومنذ أشهر وأنا أحاول أن أهدئ الناس وأن أتحدث معهم بعقلانية، وأن أحقق لهم طلباتهم، وأن أسهل انطلاقتهم، ولكن ما يستطيع المرء تحقيقه قليل " ثم القي جبهارت لمحة قصيرة إلى نورينا، كانت راكعة قرب الجرحى تبذل الرباطات التي امتلأت بالدماء، كان هناك هندياً صغيراً ممدداً فوق الملاء المطاطية، ثم استطرد جبهارت " عندما يظهر هنا محرض يهيج الجماهير ..! فذلك يشبه الشرارة في كومة من الديناميت " .

" هذه الشرارة سوف تنهج ذات يوم يا سيد كارلوس " قال الدكتور سانتوس برزانه .

" إلى جانب من ستقف ..؟ " سأل جبهارت .

" إلى جانب الفقراء والمستضعفين المستغلين، إنني لست طبيباً فقط .. " .

" وماذا أيضاً بعد ..؟ " سأل جبهارت وسحق سيكارتته " إنني أرى الأهوال .. " .

" أحتفظ بمأثرك لنفسك كارلوس، أنت ألماني، ضيف في بلادنا، انك تساعدنا بأفضل ما تستطيع وأنت تفعل ذلك بقصد سليم، إنك تشاهد التكنيك، الورش، الطريق من كيرس حتى كوكالينهو



على الديوغواريو، إنه مشروع كبير، إنك تساهم في جعل الأغنياء أكثر ثراء، وترسيخ أعظم للسلطة، وإرساء قواعد استغلال هذا البلد. هذه هي العناصر الجانبية التي لا تلاحظها أنت، وليس بوسع المرء أن يهملها، كيف تستطيع أن تستوعب مشكلات هذا البلد الغريب؟ لقد عينوك ووظفوك من أجل أن تقوم بالعمل، وهذا ما تفعله! عمل ألماني ممتاز، صنع في ألمانيا . Made in Germany

" أهكذا تراني دكتور؟ "

" نعم "

" وأنت تعتقد أنني أعمى عما أشاهده من حرق لقرى الهنود وطرد سكانها أو قتلهم؟ هل تعتقد أنني لا أشاهد هنا كيف يستغل الإنسان إلى أقصى حدود القدرة على التحمل. "

" أه.. " ورفع سانتالوس حاجبيه وأضاف " لماذا إذن تعمل معهم ..؟ "

" أنت لا تعرف عن التقرير الذي أرسلته إلى ريو دكتور. "

" تقرير ..! إنهم سيمسحون به مؤخراتهم فقط "

" أنتم تريدون انتفاضة، ثورة، قتال؟ " وهنا أدرك جبهات فجأة لماذا جاء سانتوس مع مستوصفه السيار إلى هنا، لقد آمن دوماً بالتأكد بأن تقاريره تفيد بدرجة ما، وفي ريو وبرازيليا وكيرس، تعرف المسئولون أخيراً على مساوئ الوضع، نعم هذا يبدو أنه خاطئ، وقد تعرف عليه الآن، سنتالوس جاء إلى هنا مع مستشفى ليس من أجل القيام بالأمر الطبية، من الذي أمر بتشكيل هذا المستشفى السيار، من الذي يجلس في خلفية الأمر ويسحب الخيوط، هذا ما لا يستطيع المرء معرفته، أنه على أية حال ليس الألماني الغريب الذي يمثل القليل من التكنولوجيا الأجنبية الموجود هنا، قطعة صغيرة في ماكينة كبيرة.

" إنني أدرك من أنت " قال جبهات ببطء " إنك نوع برازيلي من تشي غيفارا. "

" كثير على هذا الشرف يا سيد كارلوس " ضحك سنتالوس وأضاف " أنا أكون مثل تشي ..! أنا ليس بوسعي أن أكون حتى مشروط قياساً له، أو مسدس رشاش. "

ولم يكن قد لاحظ أن إحدى سيارات المستشفى الجوال تحتوي على ترسانة من الأسلحة موضوعة في صناديق مكتوب عليها بالأحمر " جهاز أشعة. "

توفي رجل ثالث خلال نقل الدم إليه، فهناك جروح لا يستطيع القلب تحملها، أو أن يعافى منها، ولكن الرجال الثلاثة الآخرين اجتازوا الأمل الصعب وأمكن إنقاذهم، وفيما إذا سيكون بوسعهم يوماً تقديم الشكر إلى سنتالوس ونورينا، فذلك أمر آخر، وبحفر وثغرات بحجم قبضة اليد في أجسادهم، سيكون من الصعب تحقيق السعادة في الحياة.

جاء دورباس بانديرا من ضفة النهر وأشار إلى جبهات أن يأتي معه إلى سيارة الجيب، وتبعه باولو الجيرا ومعه اثنان من وحدات الزوارق، وعلى النهر حيث كان العمل يتواصل، كانت القطع الخشبية قد أنزلت وربطت بعضها ببعض، ومنها إلى الماء فيما بعد.

كانت نورينا ما تزال تناضل من أجل إنقاذ حياة أحد الجرحى، وكان الرجل قد ابتدأ يرتعش بصورة وحشية، وقد استفاق لتوه من غيبوبته يصرخ بصوت فضيع، وحقنته نورينا بجرعة مورفين، فغطس مرة أخرى في هناء عالم اللاألم.

" هل تسمع هذا يا سيد كارلوس " قال بانديرا بجديّة، ثم أردف قائلاً " هل الجيرا شخص موثوق ..؟ " .

" إنه من أفضل رجالي " قال جبهارت، وتطلع إلى الجيرا وأضاف " وهل أظهر لك شيئاً " .

" بالعكس، هيا، قل لي باولو، ماذا يقول الرجال العاملين على النهر ..؟ " .

صر الجيرا على أسنانه وقال " انه لم يكن حادثاً قضاء وقدر، يا سيد كارلوس، لقد شاهد ثلاثة رجال كيف أن الزورق قد دفع بقضيب من زورق آخر فانقلب " .

كان الصمت المفاجئ مؤثراً، وجبهارت كان لديه الشعور بأن قلبه سوف يتوقف، دفع ...؟ إذن فهذا قتل عمد، بانديرا الذي كانت بدلته الرسمية لما تزل بعد ملطخة بالدماء، تتحنج بصوت منخفض.

" هذا غير ممكن " أنتفض جبهارت هاتفاً .

" ولدي شاهد على ذلك " قال الجيرا بحرارة.

" إننا هنا في جبهة العمل الأممية جميعاً رفاق، نحن هنا نحتاج لبعضنا في السراء والضراء هنا لا يوجد مجرمون " .

" عدا إذا كان الأمر يتعلق بالنساء " تدخل بانديرا قائلاً " ولكن ذلك ليس جديداً، فقد كان الأمر هكذا دائماً في مجتمع الرجال حيث يحلم كل فرد بالأجازة، والآن لا توجد نساء في الملعب كارلوس، ليست هناك غيرة حمراء التي تفجر حالات القتل، لقد حدث مثل هذا وهذا القتل سياسي " .

هذه الكلمة قيلت بوضوح تام، بانديرا أشار إلى كلا العاملين، اثنان من رجال الغابات كانا واقفين خلف الجيرا كأنهما يبحثان عن الحماية وراء ظهره العريض.

" إذا كان الأمر كذلك أيها النقيب " قال جبهارت بتأثر " إذن قم بواجبك هنا، هل تعرف القتلة " .

" طبعاً الزورق الثالث، ولدي الأسماء، ولكن ماذا ينفذ ذلك ..؟ إنهم سيكذبون وسيلجأون إلى أيراس والتحقيق في كيرس سيكون في المقر الرئيسي لإدارة المشروع، هل تعلم ماذا سيسفر عن ذلك ..؟ " دس بانديرا يديه في جيوب سرواله " سوف يرحلون إلى برازيليا، وهناك سيختفون. إنني أريد بذلك فقط أن أوجه أنظاركم، كيف تجري الأمور هنا في معسكرات ومستعمرات العمل، هل تعلمون لماذا ينبغي على الرجال أن يموتوا ..؟ " .

" إنني أفهم ذلك " قالها جبهارت بصوت باهت.

" كان القتلى أصدقاء الجيرا، أليس كذلك ..؟ " .

" نعم " أجاب الجيرا .

" لقد فتحت فمك للحديث عن الاستغلال والعبودية، لقد شتمت السيد بولو، بولو الكبير، وقمت بالشغب بين الرجال، وعملاً كهذا سيتم إبلاغه فوراً إلى العاصمة، كما يتم الإبلاغ عن كل شيء، إن استخبارات هؤلاء القوادين تعمل بصورة رائعة.. ! "

" وماذا سنفعل نحن كشرطة ..؟ "

" لا شيء " وأشار بانديرا لكلا الشاهدين أن يبتعدا قليلاً" إنه يكفي عندما يعلم المرء، وعلينا الآن حماية الشاهدين فقط، فالمرء هنا يسقط بسهولة في النهر..! ولكن كيف نبدأ بالعمل مع هذين الشاهدين ..؟ الجيرا قاتل قد نال عفواً، والآخر هو فلاح سابق أخذ منه أرضه، والثالث هو شخص ظهر هنا فجأة، من أين جاء ..؟ لم يفصح عن ذلك، هل هو شاهد يمكن تصديقه ..؟ ها .. إذن فقط أنا أصدقكم وأنت سيد كارلوس ..؟ "

إنني أصدقهم أيضاً " أجاب جبهارت بتأثر.

" إذن فنحن نعم كيف يقف أحدنا حيال الآخر " بانديرا أعطى يده إلى جبهارت " إنني سعيد بالتعرف عليك في هذا الجحيم حيث يعد الإنسان الواحد بمئة من الملائكة "

في المساء كان الجرحى الثلاثة ما يزالون على قيد الحياة، وقام الدكتور سانتالوس ونورينا بإجراء العمليات مرة أخرى، عالجوا الجروح الفضيعة بالمضادات الحيوية، وزرقوا بحقن البنسلين ونقل الدم إليهم، والآن يرقد الجرحى على فرش نظيفة داخل خيم، تحميهم شبكتان من الناموسيات لحمايتهم من الأسراب الهائلة للبعوض التي كانت تهاجمهم من اتجاه النهر. وفي داخل الخيمة يجلس الممرضان ويقومان بخدمة المرضى بالمواد الحامضية الطازجة (ماء مغذي) ويحافظون على وضع القناع على الوجه ويضبطون ضغط الدم على جهاز قياس الضغط وعلى وضع زجاجة الماء المغذي، وكان الدكتور سانتالوس قد فكر لكل شيء عند إقامة مستشفى المتجول بحيث تغطي حاجاته في هذه الغابة البدائية التي يبدو فيها أي شيء وكل شيء، أمراً عجباً.

لم يعد المرء يسمع شيئاً عن إدارة المشروع والرجال الذين يعملون حول لويس جيزوس ايريراس وقد سجل الحادث ببرقية عبر اللاسلكي وردوا على ذلك بأنهم أحيطوا علماً بالأمر دون تعليق آخر. والآن كان الطعام الوارد إليهم من المطبخ المتجول قد أنقلب. وحدة العمل الليلية كانت تواصل العمل بعد أن وضعت الجسر فوق صفحة النهر، وكانت مولدات الكهرباء التي تعمل بالديزل تضيئ المنطقة بأنوار كشاف.

واصلوا ... واصلوا ... الأمر يدور عن مكافآت كم هي بعيدة المسافة حتى ريوارغوايا ....!

---

\* سياسيان مشهوران في ألمانيا الاتحادية

كان جبهارت جالساً في غرفته يكتب تقريره اليومي، رمق باستغراب عندما فتح الباب، وفي شبه الظلمة لم يتعرف في البدء على القادم، ولكن ضوء الغسق تبين أنعكاس هيئة إنسان نحيل يرتدي سروال ضيق وبلوزة.

" أنت..؟ " قال باستغراب، وابتدأ قلبه يقرع بقوة، وقفز وكاد أن يقلب الطاولة من عجلته " هذا اليوم لا يكف عن تقديم مفاجئاته "

" لا تحكي حكايات حمقاء يا سيد كارلوس " اقتربت نورينا ساما زينا واتخذت مجلسها على كرسي مزعزع، وأصبحت في دائرة ضوء المصباح الصغير.  
" أنا سأكون هادئ تماماً ومستمتع فقط .."

وضعت ساقها الجميلتين واحدة فوق الأخرى، وأخذت بجمال نهديها تحت البلوزة الضيقة التي أظهرت بروزه، وكانت قد ربطت شعرها الأسود برباط أحمر اللون، وقد تساءل جبهارت مرة أخرى في نفسه فيما إذا كان قد قابل في حياته امرأة بهذا الجمال. كانت الساعات المنصرمة قد حفرت معالمها في الوجوه، تبدو واضحة، ولكن أيضاً تحت تلك تنضج معالم سرية.

" الجرحى سوف يعيشون " قالت.

" أهنئك " قال لها بلهفة.

عاد الصمت بينهما، كانا يتطلعان لبعضهما، فعاتت النيران السرية تشتعل مجدداً بينهما على الفور، ولكن أي منهما لم تكن لديه الشجاعة لإظهار ذلك.

" لماذا تعمل هنا ؟ " سألت أخيراً.

" لقد طلبت ذلك مني شركة ألمانية، وربما ستحصل الشركة على مال لقاء التوسط ، لا أعلم "

" إذن فإنهم قد باعوك "

" إذا ينظر المرء على ذلك بهذه البساطة فإننا كلنا مباعون "

" لا بد أن نرى الأمر على هذا النحو كارلوس "

وبحديثها هذا فقد تركت عبارة سيد، وشعر بها جبهارت في نفسه شعوراً مفرحاً، وقد فعلت ذلك بعد تفكير، وإذا كانت حقاً لديها مشاعر شخصية، فإنها أدركت أنها ستؤدي ذلك حتى النهاية.

" إنك تفكرين مثل الدكتور سننلوس " قال جبهارت.

" وهل كنت سأكون هنا معه لو لم أكن كذلك ..؟ "

" هل أنت صديقته ..؟ "

" ماذا تفهم تحت هذا العنوان ؟ "

أمعن جبهارت النظر إليها وإلى تقاطع جسدها، كان يبدو عليها وكأنها ثورية، هكذا فكر، لذلك لا يجوز لها أن تعرف الكوابح والقيود، إن لغة الثوريين هي لغة خالية من الأصباغ والرتوش وغير مزينة، خالية من الزخارف البورجوازية، فأزاحت رأسها الجميل جانباً، ونظرت إليه كما لو أنها تنظر إلى لوحة.

" إنني أقصد " قالها هكذا مباشرة " هل نمت مع سانتالوس ؟ "

" وهل يهكم ذلك ؟ " قالتها ولم تكن تشعر بالإهانة بتاتاً.

" جداً "

" لماذا "

" عندما تأتي فتاة إلى هذا الجحيم طائعة مختارة، فإنها تفعل ذلك بسبب الحب، أو أنها مجنونة "

" ألا يوجد احتمال ثالث "

" لا أظن ذلك "

" طبعاً لا ... فأوربا متخمة ..! كيف يمكن لبطن مكرش ذو شحوم أن تكون له مثاليات ؟ أين توجد المشاكل ..؟ تكون عندما يكون الدماغ كالمؤخرات السمينية " قالت ذلك وانحنيت إلى الأمام لتدخل دائرة الضوء، والتمعت عيناها السوداوتان وأردفت " كلا لم أنم مع سانتالوس "

" من أجل هذه الجملة، أستطيع أن أقبل قدميك " . قالها بفرح ظاهر.

كان صوت الغابة يتناهى من خلال الجدران الخشبية للعشش والأكواخ، صراخ البيغاوات، وزعيق الحيوانات المختلفة، حفيف الأشجار العالية، ومن البعد تتسلل أيضاً أصوات قطع أخشاب الغابة بالمناشير الكهربائية، ثم تساقط الجذوع العملاقة إلى الأرض وتكسر الأشجار الصغيرة أثناء سقوطها، ويحدث ذلك إيقاع منتظم ويتخلل كل ذلك أصوات غناء العمال للتشجيع والتنشيط، ولطرد التعب، وإطلاق الفكر، ونسيان الشقاء، وكانوا على الأغلب من الهنود الذين يغنون هذه الأغاني القديمة، تذكروهم بحياة الحرية التي كانوا يتمتعون بها ويعيشوها في الغابات الأزلية يوم كانت مجهولة.

واصلوا ... واصلو .. حتى ريو أرغوايا، وهناك جائزة لكل من يعمل متراً زيادة، كروتسيروس (عملة البرازيل) .. نضحك، ومعها تضحك النساء التي يضعنها بين أثنائهن الصلبة، وسيكون هناك الخمر، الكثير من الخمر، ثم نسيان من جديد، لماذا التفكير، أيها الرفاق، التفكير يكلف النقود، وما يقوله باولو الجيرا صحيح من أننا نستغل، نعم تحن حيوانات عمل والسيد الكبير بولو في العاصمة برازيليا يحصل من أتعابنا على مؤخرة ذهبية سمينية، ولكن من يستطيع تغير

ذلك ..؟ نحن ..؟ نحن لا نستطيع سوى عمل شوارع قذرة، الثورة هي شيء ... هي لمن يستطيع فعل ذلك. نحن بحاجة إلى هذه القروش إننا جياع، ولكل منا في هذه البلاد زوجة وأطفال، وهؤلاء يريدون أن يعيشوا أيضاً، إذن فلنواصل، نواصل أيها الرفاق..

افترسوا هذه الغابة اللعينة، كسروا هذه الأشجار العملاقة وأمضوا في شق الطريق بعرض اثنا عشر متراً، ولا تفكروا بشيء، فقط لا تفكروا بشيء، لا تفكروا بالذين أنقلب بهم الزورق وسقطوا بين أسنان البيرانا، أما إذا فكرتم، فماذا ستحصلون من ذلك ..؟

استلقوا هنا كأنصاف بشر، إذا استطعتم البقاء على قيد الحياة. أما إذا أصبحتم من ذوي العاهات ولا يعتني بكم أحد، فهنا علي الأقل السيد الكبير بولو، لا بولو الجيرا، لأنه خنزير فقير مثلنا، فقط لديه دماغ أكبر من أدمغتنا، ولكن ماذا ينفع ذلك ..! الأثرياء هم الأقوى، وعلينا أن نعتاد على ذلك ...

استندت نورينا سامازينا بجسدها إلى الخلف، عيناها السوداوتان اختفتا من دائرة الضوء المنبعث من المصباح الصغير المتواضع على طاولة جبهارت، ورفعت ساقيها ولفت ذراعيها حول ركبتيها، كان سروالها الأزرق (الجينز) الضيق قد بهت لونه كما هي التقليدية، كان يظهر فخذيهما الطويلين وخصرها الدقيق.

" لماذا جئت إلى هنا " .

" لقد سألت هذا السؤال أليس كذلك ؟ " .

" لا أدري، ربما ولكنك لم تجيبيني على السؤال " .

" لا أستطيع النوم، هل هذا جواب ؟ " .

" هذا تبسيط " .

" الحياة كلها بسيطة إذا كنت تريدها هكذا، المرء ليس بإمكانه النوم لأنه يستطيع التفكير، والمرء يذهب إلى أحد ما يؤمن ويثق به، لكي يستطيع التحدث معه. هذا هو كل شيء " . قالت ذلك ثم نهضت " ليلة طيبة كارلوس " .

" رجاء أبق بعد نورينا " قال جبهارت بتأثر " أنا أيضاً لا أستطيع النوم، فهذا النهار، اليوم ... الحادث المؤسف، وبرأي النقيب بانديرا كان حادثة قتل " .

" نعم إنها حقاً جريمة قتل، والضحايا ينتمون إلى وحدة عمل، كانوا قد احتجوا لدى لويس جيروس ايراس عن شروط العمل اللاشعورية " .

" إذن فهم يستهدفون قتلي أيضا " .

" بسبب تقاريرك وشكاواك المستمرة ..؟ .. لا " ابتسمت ابتسامة عطف " الورق يمكن أن يجمد، وبالامكان تمزيقه وإتلافه في ماكينة تفتيت الورق. أنت تستطيع أن تكتب بإصبع مدمي. ولكن بالنسبة للسادة هناك فوق، فإنك سوف تبقى الألماني المثالي البيروقراطي المخرف، غير

خطر بالمرّة، وإذا كنت تحرض العمال بواسطة الخطابات، آنذاك نعم ... ولكنك لست من هذا الطراز، إنك لست ثورياً، أنت تكتب تقارير على الورق، إنها طريقة ألمانية."

" وهل تعرفين أنت استخدام قبضتك ؟ "

" نعم "

" هذه القبضة الصغيرة الجميلة ؟ "

" إنك بهذا الهراء تثير أعصابي كارلوس " ودفعت نورينا خصلات شعرها الأسود على جبينها، فتوترت بلوزتها الضيقة أكثر، مبرزاً جمال وصلابة صدرها، كانت تبدو رائعة يشتهيها المرء بقوة، وإن كانت بعيدة المنال، ثم أردفت نورينا " لا بد أن أذهب "

" لماذا ؟ رجاء أمكثي أكثر "

" طوال الليلة ؟ "

" إذا كان لديك وقت لي، نعم طوال الليلة "

هزت كتفيها وجلست على الكرسي نو المسند " أتريد أن تنام معي كارلوس، أليس كذلك ؟ " قالت ذلك برزانة. وكان صوتها الثابت عظيماً، رائعاً نورة يسمعها المرء في الأحلام، يالها من صفة على الوجه، غطس برأسه بين كتفيه عندما خانتته نظرتة وأمانيه.

" لا أعلم ... " قال ذلك بتردد.

" لماذا تكذب ؟ طبعاً تريد أن تنام معي، فأنت لم ترجو مني البقاء هنا لأنك معجب بنضالي الطبعي "

" أنا ... أنا معجب بموافقك، هذا هو كل شيء " ثم وقف واستدار من حول الطاولة فيما ظلت هي واقفة في مكانها دون حراك تقريباً، كانت تلاحقه فقط بعينيها الواسعتين، رفعت رأسها إليه بقوة، وكان أطول منها قامة بمقدار الرأس.

" والآن ماذا ..؟ " سألت عندما وقف جبهارت صامتاً جامداً أمامها " أفعل شيئاً كارلوس "

إنني أتذكر قبضتك التي بوسعك استخدامها جيداً نورينا .. "

" ولكن لدي أيضاً يدين مفتوحتين، أستطيع أن أمسد بهما "

" هذه لعبة حظ "

" الحياة كلها عبارة عن مجازفة كارلوس " ثم ألقت عينيها وتقدمت برأسها أكثر وقالت " وأخيراً.. قبلني الآن..!! " قالت ذلك بصوت قد غدا أكثر عتمة ودفئاً " هيا .. هيا .. رجل يريد أن يشق طريق عبر الغابة ويخاف من امرأة .. كارلوس "

لم تكن قبلة اعتيادية، كانت شفتاها مضموتين تماماً، ومعانقتها ذات شعور جارف، وكأن الجسدين قد التحما في جسد واحد.

" هذا ما فكرت به عندما شاهدتك للمرة الأولى " ثم أضافت " أنا أعلم أن هذا لا معنى له، وأنت تعلم ذلك أيضاً، ولكن في هذه الغابة يجب أن نحيا من ساعة لساعة، وهذه الآن ساعتنا ".

وبدأت تخلع ثيابها، وكأنها لم تفعل ذلك من قبل، فخلعت سروالها الأزرق (الجينز) ثم البلوزة، واستدارت وأعطت ظهرها له ليساعدها في خلع حمالة الثديين، ثم استلقت بعريها الرائع على السرير في الزاوية البعيدة للغرفة. وقف جبهارت أمامها جامداً يتطلع إليها، وكأنها ملاك هبط من السماء، ثم استفاق أخيراً وخلع ثيابه واستلقى إلى جانبها.

كان دفئ جسديهما يعصف به بشعور لا يمكن الحديث عنه، كما لو لم يشعر بذلك أو يتعرف عليه لدى أي امرأة أخرى قبل نورينا، وأدرك أن ذلك سوف لن يكون لدى امرأة بعدها.

" أحبك " قالها بحرارة قبل أن يأخذها " يا إلهي كم أحبك " .

" لا تتكلم هكذا بحماقة ! " قالت له بصوت غليظ تقريباً " إننا نعلم بأننا نحب بعضنا ونمارسه فلماذا نتحدث عن ذلك " .

وأحنى مستديراً لها ولامس نهديتها، فألقت برأسها إلى الخلف وأطلقت تنهيدة، وتقلص جسدها الممشوق كالوتر الذي سيطلق سهمه حالاً، وعلى البشرة الناعمة برزن العضلات كما لو أنها مستعدة للانفجار، أو أنها ستفر من جسدها، آنذاك ألقت ذراعها حول كتفي جبهارت تضغط به إليها وعضته في صدره، كانت وكأنها في قبضة فارس، قاطع طرق، إنها مسألة حياة أو موت .. وكانت سعيدة.

لم يكن هناك امرأة مثل نورينا سامارينا.

لم يلاحظ أن أحداً ما كان قد دخل الغرفة وظل واقفاً على الباب، إلا عندما أفرزت الظلمة هيئة إنسان في الظل، افترقا عن بعضهما وسقطا جانباً كما لو كانت نهاية جولة مصارعة، ومضيا يتنفسان بقوة، والضوء الخافت للمصباح المنضدي كان يلقي شيئاً بسيطاً من الضوء عليهما، ولم يشعرا بدخول شخص إلى الغرفة.

" أترك الغرفة إلى الخارج ... ! " علا صوت جبهارت بلهجة أمر " اللعنة، ماذا تبحث هنا في الليل داخل غرفتي .. ؟ " .

" كارلوس ! " وكان ذلك صوت بانديرا .

أزاحت نورينا الشعر المبلل بالعرق عن وجهها، ولكنها لم تغطي نفسها ولم تشعر بالخجل، ولماذا ؟ فالحب أمر طبيعي، ومن يريد أن يراها فليفعل ذلك ! ففي الغابة العملاقة يشعر المرء أن الإنسان ليس سوى قطعة ضئيلة من الطبيعة الكبيرة.

" ألم يكن لديك وقت للانتظار حتى الصباح ؟ " سألت نورينا وكان صوتها قد عاد هادئاً رزيناً.



تقدم ضابط الشرطة النقيب بانديرا حتى أصبح ضمن دائرة الضوء، وكان قد أستبدل ملابسه الرسمية المغطاة بالدم، وهو يرتدي الآن سروال مدنياً نظيفاً وقميصاً عسكرياً. " كارلوس ينبغي أن تعلم شيئاً، قبل أن تتوجه غداً صباحاً إلى وحدات العمل في المقدمة " ثم أعقب قائلاً " وهو مهم لك أيضاً يا نورينا " .

وجلس على الكرسي فيما جلست نورينا على ركبته، وكانت قد وضعت شيئاً على جسدها وساقبها.

كان عدم حيائها قد شنت أفكار جبهارت، وظن أن الأمر ربما هكذا عند الثوريين، وأنا ليست لي تجارب في هذا المجال، والحب هو جزء من تحررهم الكبير، لربما هكذا هو الأمر الموقف من العالم يصل حتى الضمائر والعواطف.

" ماذا هناك مهم لهذه الدرجة ؟ " سأل وقد خجل من عريه، فوضع منشفة على وسطه وجلس بجانب نورينا.

" لقد استجوبت الفاعلين المفترضين، طبعاً يكذبان، إنهما اثنان من العمال الذين كانا سابقاً في وحدة عمال أريراس عندما كان هذا لما يزل بعد مراقب عمال، والكل يعلم أنهما متخصصان، ولكن لا أحد بوسعه أن يثبت ذلك، ولكني علمت أن إدارة البناء والمشروع قد وعدتهما بقطعة أرض وقرض من أجل بناء كوخ صغير، إن قاما بالسعي والإبلاغ عن كل عامل مشاغب، وإنهما قد فعلا ذلك على الأقل " .

" أفهم ذلك " ثم نهضت نورينا، وأخذت ترتدي ثيابها " هل جراحهما خطيرة ؟ " .

" يمكن التعرف عليهما " أجاب بانديرا بسخرية ورمق جبهارت بنظرة هلع.

" يا إلهي، هل قمت بتعذيبهم ؟ " سأل بحرارة، ثم تحول بنظره إلى نورينا التي ارتدت البلوزة دون حمالة الصدر.

" بعض الأشخاص هم كالأبواب المغلقة التي ضاعت مفاتيحها " أجاب بانديرا وأردف " ولا بد من كسر هذه الأبواب وغالباً ما يكون خلفها فارغاً .. ولكن هنا في هذه الحالة قطعة أرض وكوخ " .

" سأأتي معك " قال جبهارت ونهض واقفاً.

" كلا أبقى هنا كارليتو (أسم كارل تحبباً) هزت نورينا رأسها رافضة، ثم سحبت جبهارت إلى السرير . " أنتظر هنا، سأعود إليك حالاً " .

" إنني مسؤول عن العمال عندي هنا " هتف جبهارت " إنني أحتج أيها النقيب بانديرا ! " .

" حسناً أني استلمت احتجاجك، أكتب تقريراً إلى برازيليا " .

" سوف لن أكتب تقارير بعد الآن " هتف جبهارت وقفز واقفاً " سوف لن أكتب تقارير بعد البتة ! " .

" لقد أفلحت في تربيته وبسرعة يا نورينا " قال بانديرا بلهجة اعتراف " حسناً تعال معي كارلوس، ربما لا يكون في ذلك ضير إذا هبطت من معبدك الإنساني، أتعلم كم يربح هيرمانو سانتوس بولو من كل كيلومتر من طريق الجحيم هذا على ظهور هؤلاء العبيد المستغلين؟ وحتى على ظهرك، والحكومة تمنحه أكثر مما يستحق في حساباته، ولكنه لا يعطي عماله سوى نصف مستحقاتهم، كل قطرة عرق سفحت هنا هي بالنسبة له ورقة نقدية، ولكن الناس هنا راضون بهذا القدر، فإما أن يفتسوا أو يعيشون من حسنات بولو، ليس هناك خيار آخر " وتطلع إلى نورينا التي كانت تجفف العرق من وجهها بالمنشفة وقال " أذهب ؟ "

" نعم " .

في الخارج أستقبلهم ضجيج المعسكر، والحفل الموسيقي لحيوانات الغابة اللامتناهية، كانت شعلة المعسكر قد خبت، والوجبات التي أنهت عملها نائمون نوم الموتى، وغيوم من البعوض تحاصر الخيم الصغيرة، وفي المداخل نصبت الناموسيات، وقرب سيارات المستشفى تضيء مصابيح قوية تعمل على البطاريات. والخيمة الكبيرة ذات الصليب الأحمر كانت قد نصبت ووضع مصباح على الجدار الخلفي للخيمة، وكان الدكتور سانتالوس مهتماً بجلب الذين تم التحقيق معهم، وإلى جانب المدخل، كان هناك شخص يقف بالانتظار: باولو الجيرا .

" أنا لا أدري إذا كنت تفهمنا كارلوس " قال بانديرا عندما كانوا يسيرون بين الأشجار المقطوعة ونورينا معهم.

" هذا غير صحيح ! "

" أنت تكره العنف " .

" الإرهاب كوسيلة للحرية أمر مخالف للمنطق " .

" هذا ما يقوله شخص أوربي، العالم هنا في أميركا اللاتينية مختلف عن عالمكم، كيف يمكن للمرء أن يعرض ما يدور هنا على طاولة بييرة، فهنا يعيش الصغار بحسب أمزجة الكبار، هنا يرغم الجياع ويقمعون خلف القضبان وينال الكبار أوسمة الجريمة، وهذا ما شاهدته بنفسك الآن "

" نعم لقد هزني ذلك " .

" جيد أن يكون قد هزك، العالم بأسره قد هزه الأمر، ولكن هل يغير ذلك شيئاً ؟ هل تحيل نظرات المعاناة والحزن للفقراء، هل تجعلهم أغنياء، هل الأغنياء عادلون ؟ ماذا يفيدنا شعور المشاركة العالمي ؟ ينبغي علينا النضال من أجل حريتنا بأنفسنا، المرء لا يهتم لحقل هادئ، ولكنه يتأثر لجبل يلتهب بالنيران " .

ظلوا واقفين أمام المستوصف الكبير " هل هناك شيء جديد يا باولو ؟ "

تطلع الجيرا إلى جبهات، ثم تحول بنظره إلى نورينا " لقد علمت أن أرياس يضايق خطيبي آليا، إنه يترقبها وينصب الكمائن لها، ويعرض عليها النقود، يمد يده إلى صدرها وعلى مؤخرتها ..".

" وهذا أيضاً ! " أزاح بانديرا الناموسية بحدة، كانت رائحة الدم مختلطة مع بخار الهواء الساخن تصفع وجوههم، كان العاملان اللذان صدما الزورق جالسان على مقعد أمام الدكتور سانتالوس كان وجهيهما منتفخان، ولم يكن بالامكان التعرف عليهما إلا بصعوبة، والجزء الأعلى من جسديهما عار ويبدو وكأنهما قد تعرضا للشوي على النار، وكانت آثار ضرب دموية عريضة على جسديهما.

" بدلاً من الثرثرة، كان ينبغي وضع الفلفل على جراحكما ! " قال بانديرا وأردف " وكيف حالك دكتور ؟ "

" إنهما في وعيهما أيها النقيب " ألتفت دكتور سانتالوس والتفت نظراته بجبهات كالسهم، ثم تحول إلى نورينا سامازينا، وقد اعتبرت هذه النظرة فاحصة وكأنه يستطلع ما جرى بينهما، واجهتهما نورينا بفخر. كانت ثقته بنفسها وقوة شخصيتها تقول: نعم لقد رقدت مع هذا الألماني لا تسأل لماذا ، سوف لن أمنحك إجابة على سؤالك.

تقدم جبهات صوب العاملين اللذين تعرضا للتعذيب وتفحصهما صامتاً، ثم ألتفت ولاحظ جداراً من العدا الصامت: سنتالوس، نورينا، بانديرا، بابلو الجيرا، كانوا متحدين في تجاهل مشاعر العطف الذي يبديه جبهات لهما.

" هكذا إذن تبدو الحرية " قال ذلك بمرارة.

" كلا، ما تراه الآن هو حجارة اقتلعناها من جدار سجننا " تقدم بانديرا إلى الأمام وضرب كل من العاملان المشبوهان صفقة، سقط رأسيهما المهتز إلى الخلف، ولكنهما لم يطلقا صوت " من أعطاكم الأمر لكي تصدموا الزورق ؟ " سأل بانديرا.

ألتزم العاملان الصمت، فأستدار بانديرا على عقبه.

" هل هما قادران على المشي ؟ " سألن بانديرا وسانتالوس.

" لا توجد أي أضرار على قدميهما " أجاب الطبيب.

" هل هما قادران على العمل ؟ "

" بوسعهما أن يحركا ذراعيهما "

" هيا أخرجنا من هنا ! " أمر بانديرا " إلى مخيم الجسر .. هيا "

نهض كلا العاملان وسارا بتناقل يستند أحدهما إلى الآخر وخرجا من الخيمة.

" قف " قال جبهارت بصوت عال " أيها النقيب بانديرا إنك مسؤول عن الأمن في المخيم، وليس لك الحق أن تتدخل في عمليات المشروع والأعمال، من يعمل هنا أو لا يعمل فذلك ما أقرره أنا " تطلع العاملان بعينين منتفختين إلى جبهارت الذي بادر وسأل: " ما أسميكما " .

" فيليب " .

" جوزيه " .

" أنتما مجازان لمدة أسبوع بأجرة كاملة أرقدا في خيمتكما " .

" شكراً سيد " وأحنيا رأسيهما، وكان الآخرين لم يكونوا موجودين، قبلا يد جبهارت، وأخذا يعرجان وهما خارجان من الخيمة واختفيا في ظلمة الليل.

" والآن فإنك تبدو فخوراً، أليس كذلك " قال بانديرا بهدوء " هاذان مجرمان يا سيد كارلوس " .

" إنهما لم يدانا بعد " قالها ونظر إلى نورينا.

" كلا " كانت عيناها السوداوان تطلقان البرق. أبتسم سانتالوس.

" إنني مع العدالة " أوضح جبهارت " إنني أساعد من أجل تحقيق الكرامة الإنسانية، وأنا لست أعمى، إنني أعلم بأننا نشغل هنا أفقر الرجال في أصعب الأعمال، إنني أستحسن الاشتراكية، لا بد أن ننقذ أنفسنا من هذه العبودية الحديثة، ولكني أتقرز من العنف والإرهاب وإسالة الدماء " .

" هذا يبدو رائعاً " قال بانديرا وغادر الجماعة، ولكنه أستمروا يتبعهم حتى النهاية الخلفية للخيمة، وقال لهم " أو أن تحاولوا شيئاً آخر، أذهبوا إلى برازيليا والحسوا أقدام هرماندو بولو أو مؤخرته، وهو سيقول لكم أيهما أحب إليه " .

كان الجمال وسحر الحب في تلك الليلة قد أحسر ومضى، سار جبهارت إلى غرفته غاضباً، وقذف بنفسه فوق سريره، وأخذ يحملق في السقف، كان صراعه الداخلي على أشده.

لا عنف، هكذا كان جبهارت يفكر في نفسه، وبدا قول ذلك سهلاً: إذا غادر المرء في أي وقت هذه البلاد فبوسعه أن يعود إليها، حيث يسيل الحليب والعسل. ترى كيف يستطيع هؤلاء الناس الفاقدون لحقوقهم أن يحصلوا على حقوق ..؟ دون أن يستطيع أن يفكر؟ وأن يتحدث؟ ينادي؟ يشكو؟ إن السادة في الدوائر الحاكمة يضحكون على مثل هذه الأفكار، ترى: أحقاً لا يوجد سوى طريق واحد وهو الثورة؟ هل يتغير البشر فعلاً بالدماء!

يا إلهي ... ماذا ينبغي أن نفعل؟ .. ماذا يستطيع أن يفعل مهندس صغير يدعى كارل جبهارت ضد احتكارات المال والسلطة، هل باستخدام العدل والأخلاق؟ ماذا يستطيع المرء أن يفعل؟ .

في وقت ما من هذه الليلة، فتح الباب مرة أخرى، رفع جبهارت رأسه، وبدا أن ظللاً نحيلاً دلف إلى الغرفة.

" أهذه أنت؟ " .

" نعم ؟ "

" ماذا تريدين ؟ "

خلعت ثيابها وانزلت عارية فوقه، ضغطت بجسدها إليه على الجدار.

" لقد ... " قالت ومسدت بيدها على رأسه " لقد تحدثنا من قبل عن العبودية، إنها توجد فعلاً، وأنا أصبحت واحدة منهن "

بحثت بشفتيها عن فمه، ثم رمت بنفسها فوقه، كحيوان متوحش جائع. في الصباح كان كلا المشتبه بهما، فيليب وجوزيه، قد اختفيا من المعسكر، كانت خيمتهما فارغة ولم يراها أحد. وبوجه يلوح عليه الغضب، وبصمت قاد الجيرا البلدوزر الثقيل في الطريق يسحب جذوع الأشجار الضخمة الملقاة على جانب الطريق، ودك أرضية الغابة حتى بدت صقيلة، وأبدى عدم اكترائه بشؤون جبهات، إذ رفع كتفيه كدلالة على عدم اهتمامه، فيما كان وجهه البني العريض جامد القسمات دون حراك.

طبعاً لم يكن الدكتور سانتالوس يعلم شيئاً، أما الممرضان فلا داع أن يسألهم، وتوجه النقيب بانديرا إلى جبهات بالسؤال " ها أنت ترى إنني أكتب تقريرى، وهذا العمل ينبغى عليك أن تعرفه "

أما زملاء العاملان، فقد كان لديهم ما يفعلوه عدا الاهتمام بفيليب، فالصراع اليومي ضد الغابة كان أهم، فالأمر يدور عن الكروسيروس (العملة البرازيلية). فيليب وجوزيه لن يدفعنا لنا يا سيد، بل ساعات العمل هي الأهم، فتلك تسجل عند أيراس في المكتب ويدفع لنا بموجبها.

" لقد هربا " قال بانديرا " هذه البلاد تبلع أوغاداً مثل قطار الفحم، فلننساهم "

وبعد الظهر، وجدوا فيليب وجوزيه، كانا مستقلقيان على جانب الطريق بين الأعشاب بالكثيفة على وجهيهما، وبرأس كل منهم رصاصة في الخلف.

لم يكن هناك أي اضطراب سوى حملهما إلى المستوصف، حيث سجل الدكتور سنتالوس وثبت حالة الوفاة، ووقف النقيب بانديرا إلى جانبه يدخن سيكارة.

" الآن لدينا برهان على حدوث جريمة قتل في المعسكر " قال جبهات بصوت عال، وهذه الآن حقاً من واجبات الشرطة "

" نحن سنهتم بالأمر، أعتمد على ذلك " قال بانديرا وغادر المكان. وأمام المستوصف أمسك جبهات بكتفه بقوة، وكانت حركة مفاجئة وقوية، التي لا يستطيع المرء التخلص منها بسهولة " كلمة واحدة أخرى يا سيد كارلوس، نورينا مجنونة، هذا بالمعنى المجازي طبعاً، إنها فتاة ذكية، ولكنها بالنسبة لك مجرد مجنونة، أنها تحبك "

" أستحسن لو أننا لا نتطرق إلى هذا الموضوع أيها النقيب " قال جبهات بلهجة حازمة.

" أنا أريد ذلك كارلوس، أريد أن أتحدث معك حول نورينا، بشكل مختلف، في الواقع أنا أريد أن أهنتك على هذه المرأة الفريدة، إذا كنت تستلقي معها في السرير في فندق بالاس في ريو، وليس في غرفة خشبية على حافة الجحيم، ولكنك على أية حال هنا الآن، و الحب هنا ليس حباً كما لو أنك في بلاد الشمس المباركة، وأنا أدرك وبقلق أنها لا تعرف ماذا يعني هذا الحب لها ". "

" أنت تريد أن تحدثني عن الجنون وعن الحماقات ". "

" بشكل من الأشكال نعم " رد بانديرا " نحن كنا ليلة أمس نتحدث عن البركان الذي نعيش فوقه، بركان يخزن معاناة البشر وآلامهم، وأفكار سياسية، وأمنيات اشتراكية. نورينا سامازينا هي مادة ملتهبة، الذي يمكن أن يؤدي إلى انفجار البركان، أليس هذا واضحاً لك ؟ ". "

" نعم بالتأكيد، لقد تناقشنا مطولاً حول ذلك، إنها فخورة أن تكون ثورية ". "

" وهل بالنسبة لك واضح ماذا يعني ذلك، أن تحب فتاة ثورية ؟ ". "

كانا يقفان وسط فسحة خالية جرداء، وأمامهم النهر الذي ركب عليه الرجال الجسر المتحرك، كانت وحدات الإسقاط قد أتمت واجبها وكانوا قد وضعوا الألواح عبر النهر وكلا الضفتين للنهر قد جرى تنظيفها بواسطة الفؤوس والمكائن والبلدوزرات الصغيرة، وكانت جذوع الأشجار الأولى مائلة إلى الجدار المطاطي لنباتات اليانين ونباتات استوائية أخرى، كانت الغابة ما تزال تواصل الدفاع عن نفسها ضد هذا الجرح الطويل والعريض الذي أصابها به البشر. "

" لا بد أن تعمل معنا كارلوس ... وهذا يعني " قال بانديرا بجدية " معنا .. أو تقذف نورينا خارج سريرك، إذ لا توجد حلول وسطية توفيقية، بهذا الحب أصبحت أنت أيضاً ثورياً ". "

" إنني أرى شيئاً آخر أيها النقيب بانديرا ". "

" إذن فإنك ترى خطأ ". "

" إنني سأخذ نورينا معي إلى ألمانيا ". "

وبدا على بانديرا إنه كانت ينتظر كل شيء إلا هذه، تطلع إلى جبهات، فقد شعر وكأن هذا الرجل قد ضربه بسكين في صدره " وهل تعرف هي ذلك .. ؟ ". "

" كلا ". "

" ألم تقل لها ذلك بعد ؟ ". "

" لم أفكر بالأمر إلا بالهزيع الأخير من ليلة أمس، بعد أن شاهدت الرجلين المتهمين الذين ضربا في التحقيق، نورينا سوف لن تبقى في هذا البلد ". "

" إنني أعتقد، إذا قلت لها ذلك " قال بانديرا ببطء " فإن نورينا سوف تقتلك كارلوس، أنا كنت على حق قبل لحظات، إنها امرأة ليست لك، بالنسبة لك الاستمرارية غير واضحة، إذا أخذ المرء نورينا كحبيبة، أتريد أن تأخذها إلى ألمانيا ؟ .. هكذا ببساطة تترك في طائرة وتطير بعيداً ..! وتترك البرازيليين ورائها، هكذا بخطوة قدم ! أنظر كيف سيكون ذلك، المشكلة "

الإنسانية الكبرى لا تكمن في البيرة التي أشربها، فأنا لي حياتي السعيدة في بيتي " ثم سحب بانديرا جبهات من سترته ليقربه إليه وقال " إنني أحذرك، ليس مني، لا، بل من نورينا. في هذه البلاد يمكن أن تحز المرأة رأس حبيبها بعد ليلة حب، وهي تفعل ذلك كبطلة من أجل شرفها ".

" ولكن ليس نورينا .. هل تسمح أن تتركني رجاء أيها النقيب ؟ "

" المعذرة كارلوس " ترك بانديرا يده تسقط من كتف جبهات وأضاف " إنني قلق من أجل حكما، أليس هذا غير مخالف للمنطق ؟ مشكلتكما هي مشكلتي، ولماذا ..؟ لأنها فتاة شجاعة ومستقلة بنفسها، ولكن القدر قذفها الآن في هذه الغابة، أنت تمتلك أجمل امرأة رأيتها، وهي في هذا المكان الدموي المتعب شئت أم أبيت، إنك ستسافر، واليوم ! "

" لدي عقد بالعمل لأربعة سنوات بانديرا "

" مع الالتزام بالموت " ضحك بانديرا بخشونة " هؤلاء الألمان ! تنفيذ الالتزام حتى مترين تحت الأرض " (\*)

" مثلك أيها النقيب "

" أنا برازيلي، إنها بلادي، وطني، أنت لديك هنا عقد فقط، قطعة ورقة قد تصلح لمسح المؤخرة "

" والآن أنا مع نورينا في بلادكم "

" إذن عليك أن تكون ثورياً أيضاً " قال بانديرا بصوت عال " كارلوس لا أستطيع مساعدتك على هذا القرار الحاسم الذي لن يتخذه سواك، ولكن لا تنسى شيئاً واحداً، أن نورينا أولاً وطنية، ومن بعد ذلك حبيبة وليس العكس، ولن يكون بوسعك تغيير ذلك أبداً "

استدار وأخذ يسير بهيئة عسكرية وسريعة، ونظر إليه جبهات بعمق متأملاً.

حملت الجثتان من المستوصف، وكانا قد غطيا بقماش خيمة، وقد بدت قدميها خارجاً تتأرجحان هنا وهناك، والسود الذين كانوا ينقلون الجثتين مروا بالقرب من جبهات وساروا باتجاه الغابة حيث توجد هناك قبور كثيرة. وكان جبهات يحفظ في ذاكرته الإحصائية التي أرسلها في تقرير إلى برازيليا: أسبوعياً وكمعدل: أربعة حوادث كما يطلقون عليها في لغة المكاتب: موت مجهول في الإحصائيات المجردة. أسباب الموت سعال دموي، تسمم، حوار القوى، نزيف دموي، ضربات سكين فير واضحة، حوادث وثرثرة كثيرة عن موت بسبب سقوط أشجار عملاقة، وكان يجري دفن الموتى بصرف النظر إن كان مسيحياً أو لم يكن. وحتى الآن كان الممرضون يقومون بالصلاة على الموتى، وهم يؤدون ذلك بأفضل من القيام بواجب حمل حقيبة التمريض.

ولكن لاحقاً عندما سيبلط الطريق في المرحلة النهائية سوف لن يرى المرء قبوراً، حيث أنهم سيأتون بالزوار بفخر، ولكن لن يدعوا شاهداً وبرهاناً ودليلاً على وحشية العمل الذي جرى هنا.

جبهات أصبح متأكدًا بأن عليه أن يذهب إلى دائرة التخطيط المركزي في كيرس حيث كانوا يقومون بتسوية جوانب الطريق، فالمسافة هذه تدعى طريق الحرية وليس طريق الموت...!

---

(\*) يقصد حتى القبر - المترجم



فيما بعد الظهر، تلقى العاملون في المقدمة زواراً. ستة سيارات من طراز جيب جاءت من الخلف، ومن بعيد أستطاع جبهارت أن يتعرف على الهيئة الدموية للويس جيزوس اريراس، وإلى جانبه يجلس شخصاً بد وكأنه مخلوق غريب في هذه الغابة، وإذا كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة وقبعة بنية، ذو شوارب سوداء خليقة بالرجال الذين يلاحقون النساء.

توقفت السيارات بالقرب من المستوصف، قفز الرجال منها وانتظموا وكأنهم في مسير عسكري، وأمام خيم المعسكر وقف العمال الذين كانوا خارج وردياتهم تلك الساعة يتطلعون بنظرات العداء إلى الزوار.

" أين النقيب بانديرا " سأل أريراس بعد أن حيا جبهارت بسرعة، أبتسم له الرجل الأنيق بأدب " لقد استلمت تقريراً: قتيلان في المعسكر !! وبلاغكم يا سيد كارلوس بصدد الزورق الذي أنقلب، مالذي يحدث هنا ؟! "

" النقيب بانديرا على الضفة الأخرى المقابلة " قال جبهارت، كان يمتلك شعوراً غير طيباً ويشعر بذلك في نفسه " وأستطرد وهو ينظر إلى الرجل ذي الشارب " الناس هنا غير هادئين "

" لذلك فقد جلبت لكم السيد ابراهام بيرابورت معي " قال أريراس وعرف جبهارت قائلاً " هذا هو السيد كارلوس "

" لقد سمعت عنكم كثيراً سيد كارلوس " ومد يده إلى جبهارت وكانت يد نظيفة كأيدي الأغنياء، يد خضعت لعمل مانيكور(\*) ولكن ضغطته يده كانت فولاذية وقال " إنا سنتفق جيداً "

" بالتأكيد ولم لا ... " رد جبهارت.

" هل ستأخذ السيد بيرابورت معك ؟ " سأل اريراس " إنه سيدعكم، هناك بعض الأشياء لا يستطيع حلها إلا البرازيليون، إنكم سوف تتفرغون للمشروع سيد كارلوس، المشكلات الداخلية سيحلها صديقنا ابراهام "

في المساء وبعد تناول الطعام، التقى جبهارت ونورينا في الغرفة حيث يقضي جبهارت تأشير أوراق العمل التي يجلبها له مراقبو العمال. وكان يفكر قبل أن تأتي، كيف سيستطيع أن يواصل علاقته الغرامية، حيث نصب سريراً سفيرياً للقادم الجديد أبراهام بيرابورت وبذلك لم بعد جبهارت وحيداً في غرفته.

" كنت لتوي أفكر بك " قال جبهارت عندما رأى نورينا قادمة، جلست على حافة المنضدة، وقبلته في عينيه، كانت ترتدي صدرية طبية بيضاء، وكان الدكتور سانتالوس قد ابتدأ بالفحوصات وكان ذلك للمرة الأولى في حياة معظم العمال أن يهتم بهم طبيباً وبصورة كاملة ومنتظمة.

" لدي ضيف حل معي في الغرفة " قال جبهارت بضجر.

" أعلم " قالت نورينا وربنت على وجهه بأصابعها الناعمة " أبراهام بيرابورت ضابط برتبة نقيب في الأمن " .

قالت ذلك ببساطة ولكن كلماتها أصابت جبهات بالقلق، نعم كان بانديرا محقاً بقوله، الآن عليه أن يتخذ القرار الحاسم.

لم يكن بيرابورت ينظر إلى جبهات كصديق، أو زميل يشاركه غرفة النوم، بل كحيوان نادر ووحيد، جالساً على حافة السرير يدخل سيكارة ذات رائحة حلوة، يضع ساقاً على ساق. يبدو أنيقاً في ثيابه البيضاء كما لو أنه يعرض نفسه في العرض الأسبوعي بأناقته المخملية الناعمة في الغابة حيث يعمل ألفان من العمال العبيد، كان يبدو وكأنه قتل متفجر ..!

ولكن بيرابورت كان له رأي آخر، فقد كان هذا المعسكر بالنسبة له، كما لو كان ساكنوه ألفان من المفقودين هو الأمر الأصح، وعندما باننت على وجهه ابتسامة رفعت شاربه الأنيق.

" امرأة جميلة، هذه نورينا سامازينا .. أليس كذلك ؟ " . قالها ببطء وهو يؤكد على كلماته، لكي يفهم جبهات لغته البرتغالية.

" معلوم " قال جبهات بحدة.

ثم جلس على الكرسي خلف طاولته، وأستعد لليلة غير ممتعة، ليلة كان ينبغي أن يقضيها مع نورينا، ليلة ساخنة أخرى، ليلة نشوة تبعد الأفكار المظلمة، كان يعلم أن كل معانقة أخرى ستكون بمثابة سلسلة جديدة تشده إليها، حتى تصبح حياتها بأكملها هي حياته كلها. ومن الآن يشعر إنها تنرسخ في داخله وتسيطر على أفعاله.

بدا بيرابورت لجبهات رجلاً يفتقر للطف، فقد أدرك الآن أنه ينتمي إلى جهاز الأمن البرازيلي، مما عزز شعور الرفض لهذا الرجل.

" إنها امرأة جميلة جداً " أشغل جبهات نفسه بكومة الأوراق أمامه والتي تغطي الطاولة، خرائط وتفاصيل، رسوم تخطيطية، تقارير، بلاغات، حسابات .. حتى فتح شارع وسط غابة، قضية تعوم على بحيرة أوراق.

" ما لذي جاء بك إلينا " .

" الفضول " .

" هنا لا توجد أشياء تستحق المشاهدة، الأشجار العملاقة، أيام العطل غير معروفة، شتائم، سكارى، النهر ومشاكله، أورام بسبب لسع البعوض، جيوش النمل، القذارة، وإضافة لذلك ألفان من الداخلين في العبودية الجديدة وموتى على حافة الطريق " .

" هذا بالضبط ما أريد مشاهدته، وأريد أن أتحدث معك عن حادثة الموتى الأخيرة " .

" كل شي يوجد في التقرير سيد " .

" لغة الدوائر الرسمية، لغة قد علاها الغبار " قال بيرابورت ذلك وانحنى إلى الأمام، وأخذ عليه ذهبية للسكائر. هز جبهات رأسه ثم أردف بيرابورت " هذا هو تقرير أريراس " وخطا بيرابورت خطوة إلى الأمام وأضاف " وهو يتضمن أن ما حدث كان حادثاً. وهنا تقرير النقيب بانديرا، وهو يدعي أن الأمر يدور عن محاولة قتل، هذه هي الشائعات الكاذبة للعمال أنفسهم، إنها تتحدث عن عقوبات سياسية، ما هي الحقيقة ؟ "

" إنني أفترض أنك هنا لاكتشاف ذلك " .

" على أية حال إنني أريد أن تساعدني في ذلك " .

" بقدر ما هو ممكن، بكل سرور " .

أستند جبهات على مسند الكرسي فتذكر نورينا، إنها الآن مستلقية في خيمة الطبيب بالقرب من عربة المستشفى، ونظراتها جامدة على السقف، ترى هل تشعر بذات الشوق إليه كما هو إليها ؟ أم أنها هي الأخرى تلعن هذا البيرابورت المزخرف، ولربما ستبقى هذه الغرفة محاصرة لأسابيع طويلة قادمة، وهي البقعة الوحيدة في هذه الغابة العملاقة بوسع المرء أن يكون لوحده بأمان ليستطيع أن ينسى لبضعة ساعات هذا العالم القاتل.

" كم تريد البقاء هنا " سأل جبهات.

" بقدر ما يقتضي إنهاء الواجب " رد بيرابورت بهدوء.

" وما تتضمن مهمتك ؟ " .

" تأمين الهدوء بين العمال، إلقاء القبض على مثيري الفتن ومحاربة العناصر الثورية، وبكلمات أخرى تأمين النظام في الدولة " .

" إذن فأنتم تمثلون صلاحيات وسلطة الدولة " .

" وماذا توقعت غير ذلك ؟ هل اعتبرتنى واحداً من الكذابين الاشتراكيين مثل سنتالوس هذا ؟ " .

" الدكتور سانتالوس منذ شهر هو الرجل الوحيد الذي يعتني بصحة الناس بصفة عامة، وحتى هذا الوقت كانوا يعيشون مثل الخنازير ويعملون مثل الثيران " .

" إنهم لم يعملوا شيئاً آخر على الاطلاق " أوضح بيرابورت " لا تنس سيد كارلوس إن هؤلاء العمال ليسوا المرحاض بعينه، بل هم يمثلون الرغبة الفائضة للمرحاض، ولا يوجد شيء أقدر منهم " .

" ولكنهم بالتأكيد بشر ! " .

" وفق القواعد البايولوجية، نعم، والبايولوجيا تعتبر أيضاً أن كومة الغائط من ضرب من تجميع لأنماط الحياة، أنظر إلى الميكروسكوب (المجهر) لمثل هذه الأشياء ستجد هناك أنماط حياة كهذه " .

" إلى ما تريد أن تشير " سأل جبهات بصورة غير ودية " العمال غير راضين، إنهم يتقدمون بمطالب، وإنها لمطالب عادلة، إنهم يعملون بأقل من رواتبهم، بلا حقوق، تحت الرقابة على مدار الساعة، هنا حيث يمهدون الغابة يناضلون ضد هذا الجحيم الأخضر الهائل، والقروش التي يحصلون عليها تؤخذ من جيوبهم بسعر مرتفع، وليس لديهم خيار آخر سوى الشراء من هناك، وأقرب حانوت يبيع بأسعار معقولة يقع في كيرس، وحتى العاهرات في ماخور المعسكر الرئيسي ضاعفن أسعارهن مئة بالمئة " .

" بوسعك إجراء المقارنات بشكل جيد " قال بيرابوت ساخرًا .

" لقد اشتكى لدي المئات من العمال " أخذ جبهات سيكارة من درج مكتبه بشكل أستعراضي ملحوظ قائلاً في نفسه إنني لا أحتاج علبتك الجميلة، بل إنني لا أحتاج لشيئ منك المرة ..! إنني أنتمي إلى هؤلاء الألفين المحرومين من الحقوق، أنا أيضاً مثلهم رغبة مراحيض .

" وما يسحب من جيوب هؤلاء الخزائير الفقيرة هنا " واصل جبهات حديثه " يسيل إلى يد واحدة: السيد بولو ..! والطريق بالنسبة له يكلف فقط جزء من المال الذي يحصل عليه من الدولة، إذ أن الأجور تسيل عائدة إلى جيبه مرة أخرى " .

" رجل أعمال محسود، كان عليك أن تهنئه، لا أن توجه الشتائم له سيد كارلوس " استلقى بيرابوت على السرير ووضع ذراعيه تحت رأسه " النجاح ينتج العداوة، لقد كان الأمر هكذا دائماً، ولكني ألحظ بخوف بأنك قد تلقيت تلقياً من جرثومة الثوار الاشتراكيين من عمل الجميلة نورينا ؟ دروس سياسية في وضع أفقي " .

" إذا كنت تريد أن تسكن عندي بيرابوت، عليك أن تتخلى عن ملاحظات كهذه " قال جبهات بقوة " لقد تلقيت رجاء بقبولك في غرفتي، ولكن لم يأمرني أحد " .

" أتلاحظ ذلك كأمر طبيعي " قالها بيرابوت وسحق سيكارتته بكعب حدائه العالي، والظاهر أنه يحاول أن يمنح نفسه بها بضعة سنتيمترات إضافية " يبدو أنه قد تسللت إليك الأفكار السرية، إنني أقول ذلك بصراحة تامة على عكس ما تفعله أجهزة الأمن، أنت تعلم بالتأكيد من أكون أنا " .

" نعم " رد جبهات بأختصار .

" ولا أريد مطلقاً اللعب بأوراق مخفية، إنه لأمر جيد أن يعرف كل فرد، أن عين الدولة ترمقه بحدة ودقة، هذا ما يحتاجه الإنسان عامة، والإحساس والشعور بالهيبة هو شعار كافة الإنجازات والقدرات العظيمة، وبلادكم قد حققت ذلك مرة من قبل " .

" يا للسماء! لا تقل لي أن نظام هتلر هو نظامك المثالي، نادي الموت هذا ! الاغتصاب، الديكتاتورية، وغيرها من الفضائع التي سوف لن تبرز مرة أخرى في تاريخنا أبداً " .

" أنت ترى الأمر بشكل خاطئ تماماً يا سيد كارلوس " مط بيرابوت جسده ليرتاح أكثر في السرير ثم أضاف " توجد عند الأفراد طباع شخصية التي لا تفصله كثيراً عن الحيوان، فقط الثقافة والتربية تمنعه عن ذلك، من أن تطغي الطباع الحيوانية " ثم مد بيرابوت ذراعيه في

حركة " كن جدياً ونزيهاً، أين تجد من بين الأفين من مخلوقاتك هنا في هذه الغابة من هو حاصل على الثقافة والتربية الضرورية ؟ " .

" إنني أرفض المناقشة معك " قال جبهارت بحدة، وقفز من مجلسه واتجه صوب الباب وقال " لا أريد أن أعيقك عن النوم " .

" سلم على نورينا " هتف بيرابورت .

ظل جبهارت واقفاً على الباب المفتوح حيث كانت ضجة الليل المعهودة في الغابة، وكذلك أصوات سيارات الحمل كانت تنتهي إليه. وقال " لست ذاهباً إليها، إنني ذاهب إلى الوردية الليلية، إلى مجموعة العمل على ضفة النهر " .

" سوف يسألونك كثيراً من يكون هذا البيرابورت ؟ لا تكذب عليهم " .

" ولماذا ينبغي أن أفعل ذلك ؟ " .

" وقل للناس، إن الثورة لا معنى ولا فائدة منها، ففي كيرس تنتظر وحدة عسكرية، كتيبة كاملة من المظليين، وحدة منتخبة، لا فرصة للعمال، عليهم التفكير في الطريق وليس في سوى ذلك " .

" الأفضل أن تقول ذلك لهم بنفسك بيرابورت، أنا لست ساعياً ولا خادماً " .

" ذلك لو أن سانتالوس يتحدث ! " قال ذلك وضحك، وحتى هذه الضحكة كانت مرتبة وأنيقة كالبدلة التي يرتديها .

بغضب غادر جبهارت الغرفة وضرب الباب خلفه بقوة .

في خيمة الطبيب التي كانت مقسمة بواسطة ستارة، كان جزء منها للدكتور سانتالوس، والآخر لورينا. جلس النقيب بانديرا على كرسي سفرات يشرب البيرة، كانت هناك ثلاجة تعمل على البطارية تحفظ في الأجواء الحارة، الأدوية والمضادات الحيوية بدرجة برودة جيدة، وكان الدكتور سانتالوس يضع أمامه شريط التصوير الأول ويسحبه من خلال جهاز تكبير مضاء من الأسفل .

كانت نورينا مستلقية خلف الستارة على سريرها، كما كان جبهارت قد تخيلها، تحرق في سقف الخيمة وتفكر بالجديد في حياتها، بهذا الحب الملتهب. كان الدكتور سانتالوس قد وصفها بالغبية بشكل مطلق وقال لها " عروس الثورة مثلك تنام مع سلاحها وليس مع ألماني يهتم بالإنسانيات ! وعندما سيكون الأمر جدياً ستفكرين بأعضائك الداخلية، وهذه بداية المعركة الخاسرة " .

" هذه هي المعلومات الأولى " قال سانتالوس " مئة وتسعون رجلاً منهم سبعون رجلاً مصاب بالسل ولا يجوز لهم العمل مطلقاً، بل يجب إرسالهم فوراً إلى المصحة " .

" قل ذلك لأريراس أو للسيد بولو " قالها بانديرا ضاحكاً بمرارة " مصحة ! بهذه الأصناف تسعون بالمئة منهم لم يبقوا في حياتهم على أسرة ذات شرشف بيضاء، أنهم سوف يسحبون أي خادمة تقع أنظارهم عليها ويغتصبوها حالاً " .

" ولكنهم مصابون بالسل، أنهم سيهلكون " أوضح ذلك سنتالوس " أنهم سوف لن يصلوا ريو ارغوايا أبداً ".

" هناك الكثير من البشر الاحتياطين ".

" لمن تقول ذلك في واقع الأمر ؟ للحكومة أم لقضيتنا العادلة ؟ "

" ماذا سنرى من بيرابورت ؟ " هتفت نورينا من خلف الستارة.

كلا الرجلين سارا معاً، فقد أعتقد أن نورينا نائمة منذ زمن وابتسم بانديرا بشماتة، وقال " أنا أصدقك بكل سرور، بأن الرجل يزعجك وأنه يحاصر عش الحب، ولكنني لا أستطيع يا نورينا قتله لهذا السبب ".

" إنه جاء بسبب تصفية الرجلين " قال سنتالوس.

" وحتماً وأي سبب غير ذلك ؟ "

" وماذا ستفعل أنت أيها النقيب ؟ "

كان بانديرا يتلذذ بشرب البيرة الباردة فقال " أنا شرطي ".

" فعلاً " وأطفا د. سنتالوس الضوء عن جهاز مراقبة الصور. والآن سادت الخيمة شبه ظلمة، كان مصباح البطارية لا يمنح سوى ضياء أصفر خافت، وأستطرد " إنني لم أقابل هؤلاء أبداً، ولكنني رأيت منهم ما يكفي ... وأثارهم أقصد بعض ضحاياهم حيث قمت بفحصهم وعلاجهم، أنت تعلم بانديرا من أقصد ؟ "

" هذه القصة القديمة " قال بانديرا.

" هناك مجموعتان عند الشرطة الذين يسمون أنفسهم القضاة والجلادين، الذين يوسعهم من خلال الثغرات الواسعة في القوانين التسلل والأندساس، أو من خلال الارتباطات، يقفون على صديراتهم بيضاء نظيفة، مجموعة تسمى نفسها " كتيبة الموت " والأخرى تطلق على نفسها اسماً شاعرياً بعض الشيء " يد العدالة " وهدف كلتا المجموعتين واحد، قتل كافة المجرمين المتجولين هنا وهناك، والذين لا تطالهم القوانين العادية "

خلع سنتالوس صدريته الطبية البيضاء وقذفها فوق سريره " والرصاصات الذكية هنا في المخيم هي بطاقة زيارة تقليدية لواحدة من هذه المنظمات، كل من يتكلم همساً عن ذلك، كافة العمال في حالة إنذار داخلية، والمرء يشاهد ذلك بسرعة أيها النقيب بانديرا ".

" الحال هي مسألة تقع ضمن اختصاصك دكتور " دفع بانديرا القدر جانباً، فقد أصبح طعم البيرة فجأة مرأ.

" يا للسخرية نحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً ". رد سنتالوس

" هل تنتظر أن أقدم لكم إقراراً الآن ". قال بانديرا

" كلا، إنني أريد فقط أن أعرف لماذا أنت هنا " .

" أنا صديقكم يا دكتور، أنا متعاطف مع الأفكار الاشتراكية، وأنا أستطيع أن أبصق بوجه السيد بولو هذا " .

" تبصق فقط ؟ ألا تطلق النار بين عينيه ! إنك هنا تقف موقفاً جيداً من الجلادين وقتلة الشعب " .

قفز بانديرا واقفاً " دكتور، نحن نعيش في غابة، نفترس أنفسنا من خلال جحيم من الأشجار والمتسلقات، مستنقعات وأنهار متعفنة، وفي المجموع، يعمل هنا في مشروع الطريق أربعة آلاف وسبعمائة رجل، منهم أربعة آلاف وثلاثمائة بدون حقوق، كالبرغوث الذي لسعني في مؤخرتي، هذه هي مشكلتنا ولهذا السبب أنت هنا في الموقع الأمامي للعمل مع مستوصفك السيار، ونحن نعمل بدأً بيد " .

" متى ستكون الإعدامات القادمة ؟ " سأل سانتالوس ببرود.

أزاحت الستارة جانباً، وظهرت نورينا، كانت ترتدي فوق بدلة النوم التي هي عبارة عن شورت قصير، برنص حمام قصير بلون أحمر فاتح، وكانت تبدو فاتنة بشعرها الأسود المفتوح. وقد بانث ساقها حتى منتصف الفخذ، ممشوقة القوام تجمدت نظرات بانديرا عليها.

" ربما غداً " قال بخشونة " إنني سوف أقتل السيد جبهارت، لأن قدراً كبيراً من الجمال يرقد بين يديه " .

" أنت تعلم بالتأكيد " قالت نورينا غير مكترثة " إن بيرابورت قد جاء بسببك بالدرجة الأولى أيها النقيب " .

" إنه شرطي وأنا شرطي، والفرق الوحيد بيننا هو ثيابنا، أنا ارتدي الزي الرسمي العسكري، وهو الزي المدني " .

" وعدا ذلك لا شيء ؟ " سأل سانتالوس بلهجة يغلب عليها السخرية.

" نادراً " .

" في كلمة نادراً يمكن أن يكون هناك عالم آخر تماماً " .

" وفي ممكن تضع جميع الامكانيات مفتوحة " نهض بانديرا واقفاً وأضاف " أنا ذاهب للنوم، وربما في طريقي سأمر على بيرابورت، ماذا أطلب منك يا سيد جبهارت، نورينا ..؟ ولكن دون قبلة، أنا لا أقبل الرجال بسرور " .

" لا شيء " ونظرت نورينا إلى بانديرا إليه نظرة ذات معنى " لا تسحب كارلوس يا بانديرا " قالت بصوت منخفض وأكثر سخونة، وقد بدا في صوتها الداخلي القلق " إنه يحاول أن يفهم الكثير، ولكن مشاكل البرازيل ليست مشاكله، وأنا لا أريد أن يكون في خطر .. رجاء " .

" هو الذي متعلق بالخطر في كل ساعة " قالها بانديرا وتوجه صوب مدخل الخيمة، ورفع الحاجز المانع للبعوض، ثم أضاف " أنا أيضاً أوده يا نورينا، ولكن لا أحد يستطيع إنقاذه إذا اندلع البركان، وحتى أنت أيضاً، لا أحد، البركان لا يأخذ الزهور بنظر الاعتبار ".

\*\*\*\*\*

كان باولو الجيرا في الغابة حيث النهر الملوث والبيرانا القاتلة، كان جالساً على جرار وقد تلقى لتوه حمولة جديدة من الألواح ليأخذها إلى موقع الجسر وإنزالها هناك. كان يجلس على مقعد جلدي ممزق يدخن سيكارة، كان في ورديته الثانية، وقيل ذلك كان قد أستلقي لساعتين، ولكنه لم ينم، بل أستطاع فقط أن يريح عظامه المتعبة، إنه إرهاق غير بشري .. فقط عملاق مثل الجيرا بوسعه احتمال مثل هذا الإرهاق، رفع يده بالتحية عندما شاهد جبهارت إلى جانبه.

" إنك قد جننت حقاً " قال جبهارت " هل تريد فعلاً أن تعمل عشرون ساعة " .

" وأنت يا سيد كارلوس .. ألا تريد أن تنام ؟ " .

" لذلك أسبابه الخاصة " .

" وأنا أيضاً لي أسبابي الخاصة، إنه شعور يستحق الملاحظة لدى الرجال منذ أن حل بيرابورت في المخيم، يجب أن أبقى عندك وإلا فإنكم سوف تتناقشون أكثر مما تعملون " .

" ماذا يقول الرجال ؟ " سأل جبهارت .

" بيرابورت هو من قمة سلطة الدولة " .

" إنه شئى يشبه ذلك، إنه من رجال الأمن " .

" إذن فذلك صحيح " .

" ماذا ؟ " .

" إن فيليب وجوزيه قد قتلا من قبل كتائب الموت " .

" وما هو هذا ؟ " .

" سأوضح لك يا سيد كارلوس بعد الوردية، كان الأمر يبدو سيئاً هناك في المقدمة، لكن الآن عادت الثقة بين الرجال، وأفضل صديق يمكن أن يكون خائناً. فمن أجل بضعة كيرتسيروس يبيع المرء حتى أمه "، قال الجيرا ذلك وأنزلق من مقعده على الجرار، وعلى جسر الطوارئ بينما كانت سيارة حمل مع المواد وساحبتان مسرفتان، تسيران بحذر فوق جسر الألواح، وإذا بالعوامات تغطس في النهر الشيطاني، حيث كانت الكاشفات القوية تضئ الغابة والضفة والطريق، فيما كانت أسراب كثيفة من البعوض فوق المنطقة.

وفي الضفة الأخرى، كان يتناهى ضجيج المحركات وصوت ارتطام الأشجار العملاقة بالأرض المبلولة، وما زال هذا الطريق اللعين يطالب والجهد المبذول يمكن أن يملاً بحراً .



" إنني سأعمل أربعة أيام وأربعة ليال سيد كارلوس " قال الجيرا بهدوء " هل أستطيع أن آخذ بعدها إجازة لمدة يومين ؟ "

" طبعاً، ولكن إلى أين تريد الذهاب ؟ "

" إلى المعسكر الرئيسي، أريد أن أزور أليا في المطعم "

" إنك تريد ايراس في الكراج، أليس كذلك "

" ليس ضرورياً، أريد أن أشاهد عروسي فقط، هل هذا شيء غير اعتيادي لعريس ؟ "

" إنك قتلت مرة رجلاً بسبب امرأة بولو " . انحنى جبهارت على الجرار المرتفع حيث تفوح رائحة أرض الغابة من سرفتها (سلاسلها)، رائحة عفنة، فالتعفن يفوح من كل مكان، ولكن هناك دائماً حياة جديدة، حياة رائعة، كما لدى زهرة الاوركيديا الرائعة التي تنمو على جثث بقايا النباتات " دع أليا تعود إلى كيرس، فذلك أكثر تعقلاً "

" لا بد أن تحصل على نقود يا سيد كارلوس، نريد شراء قطعة أرض من أجل بنائها، وبذلك نستطيع أن نعيش كبشر أحرار "

" أعلم، ولكن إذا فعلت شيئاً لأيراس فإنك سوف لن تكون أبداً إنساناً حراً بولو "

" إنني أقسم لك يا سيد بأني سوف لن ألمس أبني العاهرة هذا، أتصدقني ؟ " . سرح الجيرا بنظره إلى النهر، على سيارة حمل كانت عائدة من المقدمة، فيها ثلاثة رجال تنز رؤوسهم دماً وقد ربطت بخرق، ومن منظر الجرح ومن مكانهم لا يمكن معرفة ما قد حصل.

" إنه الحادث الثالث في هذه الليلة " قال الجيرا وأضاف " الرجال اليوم وكأنهم خراف أمام المجزرة، ماذا سيفعلون مع أبراهام بيرابورت ؟ "

" الكل يسألني عن ذلك، ماذا علي أن أفعل ؟ إنه ينام عندي بولو، ولكن لا تطالبني أن أضع أفعى سامة تحت غطاؤه، لا بد أن نجد وسيلة نتعامل بها معه "

" أنت يحتمل .. نحن لا " قالها بكل هدوء، ولكن جبهارت سمع التهديد الذي يكمن في هذه الكلمات.

" أنتم لا تستطيعون فعل شيء " قالها بشكل مباشر " في كيرس تنتظر كتيبة من المظليين الأمر لكي تتدخل "

" كتيبة مظليين ..! " أبتسم الجيرا ابتسامة عريضة وخطرة " نحن مئتان رجل، وليس لدينا شيء نخشى ضياعه "

" لكل أمرء لديه ما يفقده، أنت على سبيل المثال أليا "

" إنها سوف تتفهم كل حال يا سيد كارلوس، ماذا يريد الجنود؟ هل سيتابعون شق الطريق؟ كلا لهذا الأمر هم بحاجة لنا نحن، الطريق هو الأهم، الجنود لا يفيدون في شيء، نحن لسنا خائفين "

نظر إلى جبهات برهة بصمت، وهذه النظرة كانت تضم كل شقاء المحرومين المستغلين، ثم تحول مرة أخرى وتسلق إلى مقعده على الجرار الثقيل وقادها إلى المعسكر لجلب حمولة جديدة.

عشرون ساعة من الكدح، عشرون ساعة في جحيم الغابة، في النهار المتوهج والرطوبة والحرارة العالية، وفي الليل العفن أسراب البعوض... ولأربعة أيام بنهارها وليلها، فقط من أجل رؤية آليا، الفتاة الهندية الصغيرة التي يمد أرياس يده بوقاحة إلى مؤخرتها ونهديها البارزين، وضحكاته المدوية تنبأ بأنه قد نالها في السرير هذا أكيد كثفته بذلك الشيء في سرواله.

مضى جبهات يسير ببطء صوب النهر، وظل واقفاً حيث الجسر، حياه رئيس العمال في الوردية، وكذلك احتفى به العمال، السيد الألماني صديق حقيقي، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل ضد أرياس وضد السيد الكبير هيرمانو بولو في العاصمة؟ فهو ليس سوى خنزير فقير مثلهم، وهو يحصل على كروستسيروس من نفس الجيب مثلهم، وإذا فتح فمه مثلهم، فإنه سوف يصفى..!

" ليحك الله يا سيد كارلوس، أنظر فقط هنا.. العمل يتواصل، إننا نعوض الغابة متراً بعد متر، لا تطلق على سير العمل، بوسعك الاعتماد علينا، ولكن أحذر فهناك الآن علفة سامة على قبعتك، أنتبه أن لا تلسعك وتمتص الدم منك "

فجأة برز النقيب بانديرا بالقرب منه، كانت رائحة البيرة تفوح منه، وكان جبهات في تلك اللحظة يحس بعطش شديد.

" أين توجد زجاجة منها " وتناولها وأخذ جرعة.

" هناك عند الدكتور سنتالوس صندوق بيرة، بيرة ألمانية من بريمن، أليس جنوناً أن يتناول المرء بيرة ألمانية في قلب غابة بدائية لم يطأها إنسان من قبل، أهذا ما يسمونها الحضارة أو المدنية، إذا كنت تريد واحدة، فالدكتور لديه علبة مليئة، ونورينا ستفرح عندما تذهب هناك، إنها لا تعرف الهدوء، أنتبقي وحيدة في سريرها.

" ماذا تعرف عن كتيبة الموت؟ " سأل جبهات مباشرة، ولكن ذلك لم يدع بانديرا سارحاً في خياله، " يا للسماء، الجميع يسأل عن ذلك، في المعسكر وهنا في المقدمة، كتيبة الموت هي وحدة مجنونة، إنهم شرطة منطرفون في طلب العدالة وتحقيقتها، وهم بالاعتماد على قبضاتهم يصفون المجرمين المطلق السراح الذين يتجولون في الشوارع، إنها ضرب من ضروب تحقيق العدالة بأيديهم، حيث تعجز الدولة "

" لقد ضربوا في المخيم..! " قال جبهات بحدة.

" سخافة " قالها بانديرا وضحك بصوت عالٍ " وأين ذلك؟ الشرطة الوحيدة الذين جاؤا إلى هنا هم بضعة رجال معي، هل تتصور إنني جلاذ قاس؟ "

تجنب جبهارت أن ينظر إلى النقيب، فقد تذكر محادثته الأخيرة معه، عن تفاخره بالوطنية والاتهامات التي أوردها بانديرا ضد الدولة.

" ألا ترى أنت هكذا ؟ " قال ذلك متجنباً النظر إليه.

" إنني لم أكن أعلم البتة بأنك تمتلك قدرات الدبلوماسيين ". قالها بانديرا بسخرية وأضاف " وبالمناسبة أنا لم أخبر نورينا بأنك سوف تأخذها معك إلى ألمانيا، إذ أعتقد أن ذلك حماقة ".  
" أنتظر ذلك ".

" كلمة جيدة سأعيد عليك نصيحتي، علق عقدك مع بولو في المراحيض، وخذ الطائرة التالية إلى ألمانيا ".

" إنني أحب نورينا " قال جبهارت بمراوغة.

" وهي تحبك، هذا هو الجنون " توقف ثم رفع كتفيه إلى الأعلى " ها قد جاء الزميل المدني، هو الآخر لا يستطيع النوم، رجل أنيق أليس كذلك يتوقع المرء أن يقابل كهؤلاء في الأوبرا في ريو أكثر مما يقابلهم في الغابات المجهولة ".

جاء بيرابورت يسير على مهل ويدها في جيوبه، كان حذائه نظيفاً لامعاً، ودون اكتراث كان يسير في الطريق القذر عبر الحفر الموحلة والأخاديد التي حفرتها سرفة الآليات الثقيلة على الأرض.

" نحن نتجاذب أطراف الحديث ودياً يا أبراهام " قال بانديرا وابتسامة صفراء على شفتيه " نتبادل الخبرة والتجارب حول البيرة، سنتالوس لديه ثلاجة لنذهب المستوصف ".

" بكل سرور يا عزيزي دورياس " بدت خطورة في رنة صوت بيرابورت " يبدو أن النوم قد هجر الجميع اليوم ".

" عندنا القمر بدرأ " قال بانديرا مبتسماً " إه يجعلني رومانسياً ".

" وعدا ذلك يوجد وميض إطلاق نار ".

" في الرصاصات الموجهة إلى الرأس، لا يحتاج المرء إلى تهديف دقيق ". افترت شفتا بانديرا عن ابتسامة " إنك تعرف هذا يا إبراهيم ".

" وأنت ألم تجد القتلة ؟ ".

" أيهم ؟ القتلة في النهر أم على حافة الطريق ؟ ".

" حافة الطريق طبعاً " كان بيرابورت ما يزال يبتسم " مستحيل تقريباً .. أليس كذلك ".

" أولاً، لقد أطلق عليهم النار بواسطة سلاح بيرتا الإيطالي ".

" أوه هل يمتلك أمرء هنا هذا السلاح .. ؟ ".

" كافة التصفيات التي جرت في الأشهر الأخيرة تمت بهذا السلاح في المختبر يقبونه بالبعيد، عندما يجلبون قتيلاً جديداً ".

تحسس بيرابورت بيده قراب سلاح بانديرا قائلاً " ماذا لديك أنت من سلاح هنا ".

" مسدس إيطالي " قالها بانديرا مبتسماً.

وفجأة شعر ببرودة الليل بينهما.

أستغرق بعض الوقت حتى عاد وصل الحديث بينهما مرة أخرى، وعندما حدث ذلك، كان الوقت لم يحن بعد لإلقاء الألقعة.

قرع بانديرا على غلاف مسدسه " هل تريد أن تشم السبطانة ابراهام ؟ " سأل ضاحكاً.

" لماذا دورياس ؟ "

" لتتأكد من مخلفات البارود ".

" إذا كنت قد أطلقت النار، فإنك قد قمت بتنظيف السلاح منذ فترة ".

" شكراً، إنك تعتبرني من الناس النظيفين " كانت سخريه بانديرا قد أصابت بيرابورت في الصميم، ولكنه لم يظهر ذلك، ولكن عيناه السوداوان اكتسبتا بريقاً حاداً.

" لنذهب عند سنتالوس لتناول البيرة " قال بيرابورت فجأة.

" حسناً، إنني أحب البيرة الألمانية ".

" وأنت سيد كارلوس ؟ "

" لا أدري " قالها جبهارت وتطلع عبر النهر، كانت وحدات قطع الأشجار تواصل افتراس الغابة، أشجار عملاقة تهوي مثل عيدان الحشيش، وكان صوت ارتطام الجذوع بالأرض، كصراخ غابة لم يسمع من قبل.

" إن عمالكم يعملون بدونكم " قال بيرابورت بصوت منخفض. الاتجاه صحيح، وقد جرى مسح كل شيء " ماذا بعد مطلوب هنا في المقدمة ؟ ويمكن الاعتماد على مراقبي العمال ؟ "

" أتعلم أن المراقبين بالذات يعملون أحياناً مع العمال والسوط بأيديهم " سأل جبهارت فجأة " هذا هنا في المقدمة، على الرغم من أنهم يتجولون ويعيشون معاً في هذا الجحيم. ويكدحون ويسقون من عرقهم، نفس العرق على الرغم من توزعهم على فئات اجتماعية وعرقية: السود والهنود والبيض الاعتياديين والبيض المجرمين، الارستقراطية، مراقبي العمال وزبائنتهم من الوشاة. بوضوح أكثر، طبقات مختلفة، أكثر المعذبين هم الهنود وأقواهم هم المجرمين البيض ".

" هذا الأمر سيبقى كذلك " قال بيرابورت بغير ارتياح " الإنسان هو قطعة زينة في الطبيعة ".

" لقد أمرت باعتقال أربعة مراقبين عمل أنهم ضربوا عمال هنود بالسوط ".

" أعلم، أعرف بهذا البلاغ الذي وصل إلى كيرس وبرازيليا "

" وماذا حدث ! لقد سحبوا إلى كيرس ووضعوا في وظائف أعلى، وهم الآن جالسون في مخازن المواد وعند مراكز التموين وفي الورش الأقل فيهم، والذي كان يمسكنا من أفواهنا يعملون زبانية ودمى لدى أسيادهم " ظل جبهارت واقفاً " هذا ما ينبغي أن تهتم به سيد بيرابورت "

" إنني هنا من أجل الهدوء السياسي " وأشار إلى بانديرا الذي كان يتطلع جامداً إلى الغابة المظلمة السوداء " هذا هو الشرطي، ماذا فعل حيال ذلك ..؟ "

" ما يكفي، ولكن لا تنسى إنني وصلت قبل ثلاثة أيام فقط من ربو "

" وإثنان تمت تصفيتهما برصاصة في الرأس " قال بيرابورت بلهجة غير ودية.

" وإذا لم نذهب الآن لشرب البيرة، فسوف يضرب أحدنا الآخر " قال بانديرا بلهجة جافة وأضاف " أبراهام، إنك سوف تكون في وضع تدفع قضية الموتى إلى نقطة معينة، أنا لست معنياً بشيء من ذلك "

أشار بيرابورت إلى الضوء الضعيف المنبعث من المستوصف " إنهم يعملون، نعم، نعم هذا البدر الأحمق لن يدع أحداً ينام "

ثم لمح جبهارت بنظرة، الذي كان يسير إلى جانبه مطبق الشفتين " يا سيد كارلوس، أتريد أن أنام في المستوصف وأن أخلي لك غرفتك؟ أنا لي قلب وأفهم المحبين "

" أفعل ما يحلو لك " قال جبهارت بخشونة.

ثم سار إلى الأمام وأزاح ستارة الناموسية الواقية من البعوض التي تسد الباب المفضي لخيمة المستشفى حيث نورينا.

---

(\*) محلات تعنى بأضافر السيدات، وربما بعض الرجال ..! المترجم

جلست نورينا وسنتالوس على منضدة طويلة وأخذت تساعده في تشغيل جهاز الأشعة. والصور التي كانت قد التقطت على شريط طويل، سحبت ووضعت على آلة تكبير مضيئة، واللقطة التي تشير إلى إصابة إيجابية، توشر بعلامة صليب أحمر، وكانت أغلبية العمال لديهم أمراض في الرئة. وبحسب تقديرات الأطباء فإنهم غير صالحين للعمل، لكنهم كانوا يواصلون نضالهم ضد الجحيم الأخضر ليلاً ونهاراً (في كل وردية ثماني إلى عشر ساعات).

أجساد مرهقة التي لم تعد تعرف سوى: أحصل على المزيد من كروسيروس، وإذا حالفك الحظ ووصلت إلى ريوار غوايا، فإنك رجل ثري، سوف لا تعود بحاجة إلى الكدح لوقت طويل، وسيكون بوسعك شراء قطعة أرض صغيرة وأن تستريح، أو أن تنفق كل ما تحصل عليه في السكر وعلى العاهرات، كل ليلة امرأة جديدة في فراشك، وأن تقف يوماً على البار. فما هي حياتنا يا صديقي؟ إنها عبارة عن كومة قذارة تتنفس بالصدفة، إذن هيا صوب البار وأسكر طالما بوسعك ذلك، فهذه الحياة يا للعنة قصيرة وعندما سينقضي كل شيء ماذا سيبقى عندنا؟ كومة قذارات أيضاً، الحياة قصيرة وأنت تلاحظ ذلك كل يوم ولا تحتاج سوى أن ترمق بعينيك صلبان القبور على جانبي الطريق، ماذا نال هؤلاء الرجال من جميع الخطط، ليس سوى حفرة في أرض الغابة حيث افترست جثثهم أسراب النمل العملاقة. فحوصات داخلية؟ السل الرئوي؟ تغوط على كل ذلك صديقي، في المعسكر الرئيسي هناك مئتان وعشرون عاهرة ساخنة في انتظارك نقودك، هذا هو الممكن.

" هذه هجمة مباغطة " قال بيرابورت بفرح عندما دخلوا المستوصف. نظر الدكتور سانتالوس إلى القادمين، وتراجعت نورينا سامازينا إلى الخلف واستندت إلى ظهر الكرسي، وأرخت ذراعها إلى الخلف، فاتخذت هيئة القطة عندما تستعد لخطف شيئاً، ونفر ثدياها الجميلان إلى الأمام " إننا قادمون من أجل البيرة، جميعنا لا نستطيع النوم وقد نشفت جماجمنا ".

أنحنى الرجل فوق علبة الضوء وجهاز تكبير الصور الشعاعية. وحتى بالنسبة لمن هو غير خبير بوسعه أن يلاحظ بسهولة البقع على شعبتي الرئة، ولكنهم لا يكثرثون كثيراً لذلك، فالطريق أهم من بقع السل على الرئة، الطريق ضرورة سياسية واقتصادية للنهوض بالبرازيل هل ندع الحفر التي يحدثها السل على الرئة أن توقف المشروع؟ .

" عظيم، أليس كذلك؟" قال د. سنتالوس. رفع بيرابورت كتفيه دلالة عدم الاهتمام.

" لا أعلم دكتور، إنني لم أجرب بعد البيرة عندك " وكانت إجابة تقليدية لبيرابورت تبادل بعدها سانتالوس وبانديرا نظرات سريعاً.

اتجهت نورينا صوب الثلجة وجلبت أربع علب بيرة ألمانية مثلجة.

" نخبكم " قال بانديرا ورفع علبته " نخبنا جميعاً في الخروج جميعاً بخير من هذه الغابة الخرافية! "

" نخب الوطن " قال بيرابورت بلهجة احتفالية " البرازيل هي بلد مستقل، ربما تكون روسيا فخورة بسبيريا، ولكن البرازيل تضم ثروات أكثر من تايجا(\*)، لنكن سعداء لأن الفرصة سنحت لنا أن نكون في الطبيعة، إن هذا العالم سيدهش أكثر ."

" هذا بالتأكيد " قال سانتالوس فيما كان يشرب ببطء، كانت جمجمته تحترق من الغضب الداخلي " نخب البرازيل حرة أيها الأصدقاء ."

" نخب البرازيل عظيمة " هتف بيرابورت.

كانوا يقرعون علبهم، ويشربون بصمت، وكان مذاق البيرة لذيذا وكذلك برودتها، ولم يسبق لهم أن تذوقوا مثلها في قلب الغابة.

" وهل أستطيع النوم هنا ؟ " سأل بيرابورت عندما فرغ من شرب علبة البيرة " ربما في سرير الأنسة ؟ فإن العزيز كارلوس غير مرتاح في ضميره، كما أنه يشتغل ليلاً وأنا بحاجة للنوم ."

" بوسعك أن تأخذ سريري " قالت نورينا دون أن ترتبك، على الرغم من أن كلامه قد ترك انطباعاً بأنها تنام مع جبهارت، ولكنها لم تظهر أي خجل، وبذلك فقد أعلنت عن حبها له وعن علاقتها به، وهو أمر كان طبيعياً في هذه الغابات والمستنقعات، هنا حيث الحياة مقتصرة فقط على المصطلحات الأساسية للطبيعة والحب هو جزء من هذه الطبيعة .

" شكراً أنسة نورينا " قال بيرابورت، وأدى انحناءة رزينة كما لو كان في حفلة باليه " وهل تعمل أيضاً دكتور ؟ "

" غالباً " قالها وأشار سانتالوس إلى الغرفة المقسمة وأضاف " ولكنك ستنام بهدوء في القسم الآخر، وبوسعي أعطائك غطاء من الشاش لتضعها على عينيك ."

ولكن أرجو أن لا تكون مبلة بالأثير " قالها بيرابورت وضحك بحدة، وفي هذه اللحظة بالذات بدا جمال وجهه ذو الشاربان الأنيقان " لقد كنت دائماً أستفزع رائحة الأثير ."

فيما بعد جلست نورينا وجبهارت على السرير في الغرفة، وكانت نورينا قد قوضت سرير بيرابورت وقذفت به خارج الغرفة باشمزاز وكأنه ملئ بالحشرات وجلست القرفصاء وبساقها العاريين وكأنها تمارس اليوغا، تتطلع إلى جبهارت الذي كان يترتب وضع شبكة الناموسية ضد البعوض حول السرير، ويضع نهاياتها السفلى تحت فرشاة السرير، وكأنه بذلك كان يضع عالمه الصغير الخاص، جزيرة حبها المستقلة.

" أحبك " قالت نورينا فجأة وبصوت مباشر.

" لماذا يا إلهي ؟ " جاء إليها وأحنى وقبل ظهرها العاري، فشعر بلهيب شعرها الحريري على بشرتها الصقيلة دغدغت شفثيه " هل الأمر رهيب إلى هذا الحد ؟ "

" لا مهرب منه كارلوس ."

جلس إلى جانبها ووضع ذراعيه على كتفيها، ثم أخذ يلامس نهديها، فشعر أن رذاذاً يخرج من جسدها، وأن عضلات جسدها تتوتر تحت لراحة يده.

" لم أستطع النوم، فالأمر مقلق "

" وما هو ؟ "

" مستقبلنا "

" إننا سوف ننزوج نورينا "

" هل تريد البقاء في البرازيل "

" سنتكلم عن ذلك فيما بعد " رد عليها بنعومة، وقد فهمت معنى ذلك على الفور فجمدت ابتسامة مؤلمة على شفثيها .

" تمدد إلى جانبي " قالت " تعال وتمدد إلى جانبي "

" هذا لا يحل مشكلتنا نورينا "

" ولكنه يخدر وأنا لا أريد أن أسمع ولا أرى في هذا السرير سواك، اليوم يمضي سريعاً هنا، ثم تأتي أسماء جديدة فوقنا، سماء معادية، وهنا علينا النضال ضد الجميع، لا يوجد أصدقاء، عدا أنا وأنت، تعال كارلوس "

وبعد بضعة دقائق، كان يرقد إلى جانبها، عارياً مثلها، يدخنان معاً سيكارة واحدة، تأخذ هي منها نفساً، ثم يأخذ بدوره هو الآخر نفساً.

" أعتقد أن دورياس بانديرا قاتل ؟ " سألت جبهارت فجأة وهي لم تظهرها كمفاجأة، بل قالتها بهدوء وسرعة.

" قاتل مجرم ؟ وكيف ذلك " أعاد عليها السؤال.

" كتيبة الموت الأسطورية هذه أليس بانديرا هو قائد مجموعة الجلادين هذه ؟ أسأله بنفسك يا كارلوس "

" كيف تفكرين في الأمر نورينا ؟ "

" إنني لا أفكر على الإطلاق، إنني فقط أحب وطني البرازيل "

" وهذا ليس عذراً "

" يقتل المرء من أجل الحب، إنني أقتل أي أمرء يمس حبيبي " ونظرت إليه نظرة جدية وقالت " وأنت لا ... "



" لا أعلم " قالها كارلوس وفكر في أوضاع ومواقف: أريراس على سبيل المثال إذا أغتصب نورينا، أو بيرابورت إذا غازلها وأستخدم قضايا سياسية سرية لابتزازها، أو أي بشر يعذب نورينا، ماذا سيفعل لكي يحميها، إذا لم يكن هناك أي إمكانية أخرى سوى .....

" نعم، أستطيع ذلك " قالها بحزم.

" من أجل أنثى، وما هي البرازيل مقابل امرأة؟ "

" السياسة هي عمل قدر نورينا، ومن يعمل بها يعتقد، أن كل شيء مسموح به في هذا المجال. إن كل عمل وطني هو عمل بطولي، والشهيد وطني، ولكن الكل يكذبون في ذلك، وليس بالأماكن تحسين العالم من خلال الإرهاب "

" وماذا تفعل إزاء بناء متصدع؟ " سألت نورينا بهدوء .

" أعمل على تقويضه " رد جبهات بتردد وقد شعر أنه دخل ممراً ضيقاً.

" وجزء منه متقيح "

" ينبغي قطع ذلك الجزء "

" وساق محترقة ... "

" يبتريها المرء ولكن .... "

"ولماذا هذه (ال) لكن كارلوس إذا اكتشفت أنك على خطأ في خطبك ماذا تفعل؟ "

أمسحها وأصلحها.. نورينا هذه ليست مقارنات، ولا تشكل أضراراً والأمر هنا يدور عن بشر "

" من أجل تحرير من جعلوا كالخدم، فاقدي الحقوق، مستغلين، بشر مخدوعين ليست لهم حتى قيمة الدامل والصديد والساق المحترقة "

" بهذه التعليقات فإننا سوف نبرر حالة الفوضى نورينا، هذه هي الرؤية البسيطة للأمر "

" الحياة هي بسيطة " ثم مسدت بيدها على خاصرته بحب ونعومة، فعض على أسنانه وجمد في استلقاؤه، ولكن الحرارة على الرغم من ذلك إلى رأسه، ولم يعد الدم يقرع في صدغيه " لا تتكلم كثيراً " قالت وكان صوتها قد أصبح أكثر عتمة وأكثر نعومة وأكثر دفناً، ثم قالت بصوت مخملي " لا تفكر كثيراً كارلوس، نحن نمتلك بعضنا، ولدينا سرير، وهذا يكفي في هذه اللحظة لكي نخلق منها جنة "

ثم امتلكته ... وعضت بمقدمة أسنانها في كتفه، وأطلقت تنهيدة حارة، على خاصرته العارية.

اللهب المتوهج خبا، ثم غطس كل شيء حولهما، لقد احترقت كل المشاكل، كل الأسئلة، كل الهموم وكل العالم الفضيع.

" أه كم هو جميل " قالت بصوت متهدج يرتجف " أوه كارلوس إن هذا أشبه بالأعجوبة "

في الصباح كان هناك مطر شامل، وبدا أن الغابة ستغرق بالمياه الهائلة، ولم تكن هناك حماية من السيل خارج المعسكر والغرف، الأكواخ أو في البراكات والبيوت السيارة (الكارفانات) توقف العمل فقد كان قطع الأشجار وإسقاطها لا معنى له، إذ لم يكن بوسع أحد أن يسحب الجذوع العملاقة من أرضية الغابة التي استحالت إلى مستنقعات وبحر من الأوحال. وقد فاض النهر وطفحت المياه إلى الضفاف، فقد أرتفعت مناسيب المياه التي غدا لونها أخضر / بني ومضت هادرة في دوامات. وأستغل سكان الغابات القدامى هذا الظرف لكي يمارسوا فيها وبأسلوب بدائي صيد الأسماك بشباك صنعوها بأنفسهم، وصالوا وجالوا في المياه الضحلة، وبكراهية وحقد بالغ أبادوا المئات من أسماك البيرنا القاتلة وعلقوها بشكل ظاهر كما كان يفعل ذلك في الماضي صيادوا الرؤوس البشرية.

" إنها قذارة كبيرة " قال بيرابورت الذي أنتقل إلى جبهات بسبب طغيان المياه، وهو الآن جالس تحت طاولة التخطيط، فيما كانت نورينا تعد القهوة، كربة بيت في كوخ فقير، سنتالوس لم يكن بحاجة إليها، فقد أوقفت الفحوص الداخلية أو التسجيل من إصابات، وكان الكل جالسين خارجاً يفكرون في الخلاص من طوفان المياه.

" سيستمر الحال هكذا لبضعة أيام أخرى وبعدها سوف نجلس على الأرض التي تعوم فيها المياه الآن، ولكن السيارات سوف تنغرز، وهذا أعاد بنا إلى الوراثة ".

" كم هو مؤسف أن لا تستطيع أن تأمر الطقس " قالت نورينا " هذه ثغرة في النظام يا ابراهام، على أجهزة الأمن الاهتمام بشؤون السماء أيضاً ".

" أنت تقولين ذلك أيتها السيدة الجميلة " ثم أمسك بيرابورت كوب القهوة بكلتا يديه، وكان وجهه البالغ الأناقة في أقصى الجدية وقد بدا لأول مرة منذ دخوله الغابة أن وجهه يبدو لرجل بتقدم في السن والسماء على وفاق معكم ".

" معي أنا...؟ أنا أكره المطر ".

" لأنك، دون أن تشعرني تنامين بالقرب من مامبا سوداء صغيرة، وهو حيوان صغير، ولكن له لدغة رهيبية ".

وبضربة واحدة من مشط الدكتور سانتالوس قطعها نصفين، إنه حقاً جراح ماهر له حضور بديهية بتر الأفعى بضربة واحدة. كانت المامبا راقدة خلف مسند رأس نورينا بينها وبين الجدار فسمع فحيحها أبتسم بيرابورت وقال " ماذا لو لم نستبدل أسرتنا ليلة أمس " وأضاف أفعى في السرير تعني حادثة، إنها مسألة ساذجة تصدق لا سيما في الغابات، لقد قلت لبانديرا أيضاً وقد شاهد البامبا بنفسه، وأنا مقتنع بقوة أنه قد فوجئ مثلي، وسأسال نفسي فقط، عن سبب الإزعاج هنا بعد ؟ ".

" ربما للعمال " أجاب جبهات بحدّة.

" هم أيضاً ؟ ".

" أنا لذي نفور طبيعي من الأجهزة الأمنية والشرطة والمراقبين ".

" مفهوم " قال بيرابورت وواصل شرب قهوته الساخنة على مهل " أنك قد تلقيت بالتأكيد درساً كما يقال، أن تصبح برازيليّاً والآنسة نورينا تمتلك في هذا المجال حججاً وبواعث ". وجمدت نظراته على صدر نورينا وخصرها، يا لها من حيوان رائع، فكر في نفسه، وفوق ذلك حيوان خطر، ولكن مصيرها سيكون مصير كل الحيوانات الوحشية الجميلة، وبقد ما تكون جميلة ورائعة تكون هدفاً ثميناً للصياد.

وضع يديه في جيب سرواله، وأخرج قطعة نقود وألقى بها فوق المنضدة " هذه هنا الوجه الأول كارلوس "، ثم قلب قطعة النقد " وها هو الوجه الآخر للبرازيل، إنها بدون قيمة بوجه واحد. وهكذا كل شيء في الحياة، حتى المشكلات البرازيلية، والأجانب يعرفون المدن الساحلية فقط، ريو دي جانيرو المضيئة وساوباولو الجميلة، ماناوس التي تقع على مصب الأمازون في المحيط الأطلسي، ريكيفا المدينة التي تموت ببطء وسط الغابة، الموانئ، وبرازيليا العاصمة، الأعجوبة المعمارية والمتفردة بنوعها، ولكن أعماق البرازيل شيء آخر، البرازيل هي من أقدم بلاد العالم، نعم، ولكل أمر قوانينه أتفهم ذلك ؟ " .

" نعم أفهم ذلك، هذا هو معطف أبيض يراد منه تغطية الدماء " أجاب جبهارت بهدوء.

" الألمان كانوا دائماً شاعريين كالفرنسيين تقريباً، هل تعلم كم ضخمت دول أجنبية المال إلى البرازيل، في بلد يمكن أن يكون أثري بلد في العالم، ولكن ذلك لم يحصل، البرازيل تطور اعزازها الوطني، ليس في المدن الكبرى، بل وأيضاً في الزوايا البعيدة للجحيم الأخضر، يجب أن يكون البشر فخورين بالبرازيل، وأن يربحوا من الثروات التي ينبغي أن يرفعوها بأنفسهم من الأرض وهي هائلة. واليوم يسيطر العرب بنفطهم على الاقتصاد العالمي، وبعد جيل واحد البرازيل ستكون العامل الحاسم في الأسواق العالمية بفضل أخشابها وأحجارها الكريمة وثرواتها الطبيعية وسوف يكون هناك تنافس اقتصادي عالمي بين سيبيريا والبرازيل، وهذا الطريق هو شريان مهم للأجساد القوية في بلادنا، ذلكم هو الهدف البعيد .... وليس ضرب النظام كما يطالب بذلك بعض الرؤوس المشوشة التفكير، فالمرء لا يستطيع بناء بيوت جديدة قوية انطلاقاً من القذارة، وإنما فقط من الحجارة المشتعلة، إنها حرارة محرقة ولكنها مهمة للضغط والتنظيم..

" ومئة عائلة ثرية تسيطر على البلاد " قالت نورينا بصوت عال " الأرض الجديدة واستصلاحها، التي يباد فيها الهنود ببساطة كالحشرات القذرة يعلقون من أقدامهم ويقطعون كالخنازير " .

دفع بيرابورت الكوب فوق الطاولة " قهوة ثانية رجاء يا أنسة " قال بصوت ودي تقريباً، وكان الأمر يبدو عليه أنه صعب المراس لحمله على الهدوء " لا تواجهيني بأعمال فضيحة التي أستكرها أنا أيضاً، نحن نعمل ضد المذنبين فقط " .

" وهل حدث ذلك لكم، لديكم أفضل المحامين، بأنكم تقومون بالدفاع الشرعي، لا بل تسمحون لأنفسكم بالنقاط الصور مع ضحاياكم وأنتم تبتسمون بفخر، البشر كأهداف للصيد " .

صبت نورينا المزيد من القهوة وهي تتمنى في نفسها أن يكون سماً للذي عاقبته توأاً.

" كتيبة الموت " هز بيرابورت رأسه عدة مرات " وهنا نعود إلى ذات الموضوع لماذا وضع في سريري مامبا سوداء، إنني لم أقتل هندياً قط، إنني لم أفعل أي شيء مخالف لقوانين " .

" هناك قوانين ينجم عنها تفجير الجماهير " قال جبهارت بحدة " من يستطيع أفضل منا نحن الألمان الحكم على ذلك ؟ وهنا الالتزام والذنب توأمان " .

" إنني أرى، أن جسداً نسانياً هو شأن سياسي أكثر من النقل " نهض بيرابورت وأنهى شرب القهوة، ومضى إلى الباب. وهناك مكث واقفاً وألقى نظرة حوله وقال " للذي دس الأفعى السامة تحت وسادتي أريد أن أقول شيئاً: من بعدي سيأتي آخرون، وإنني على أية حال لست الأسوء، وبالإمكان التنسيق معي " .

" كلب، إنه كلب أجرب " قالت نورينا بصوت منخفض عندما غادر بيرابورت " إنه يعمل فقط لرؤوس الأموال الكبيرة ! " .

نظر إليها جبهارت نظرة مريبة وسألها " هل وضعت الأفعى السامة في سريره " .

دارت نورينا حول نفسها، وكانت عيناها السوداوتان تشتعلان " كلا ! " .

صدق مما قالت على الفور، فهزت رأسها وسألها " بانديرا..؟ " .

" أيضاً لا، وقد قال ذلك بيرابورت بنفسه " .

" من هو إذن ؟ " .

" هذا ما سوف لن تعرفه أبداً " .

" سأحدث مع العمال، ومع كل الورديات، أريد القول لهم، إن الإرهاب لوحده ضار بهم، أريد... " .

" إنك تريد أن تخصي فيهم إرادة الحياة " .

" إنني أريد الهدوء في المعسكر ! " صاح جبهارت " إنني مسؤول عن شق الطريق وليس من أجل معاناة سياسية، وإذا كنتم تريدون الانتفاضة فإذهبوا إلى برازيليا " .

" جيد .. تحدث معهم " .

بدأت نورينا ترتب السرير خلف شبكة البعوض، الليلة الساحرة في الجنة الصغيرة كانت قد أنقضت، ومع النهار الجديد بدأ النضال ضد الغابة، ضد النهر وضد السماء والبشر.

" إنهم سوف يستمعون جميعاً لك، طبعاً، ولكنك بالنسبة لهم الألمانى، وهنا تدعى البرازيل " .

صباح هذا اليوم عادت مجموعة من العمال من المعسكر الرئيسي، كانوا سعداء فقد سنحت لهم فرصة قضاء إجازة قصيرة، وأن يعيدوا النقود المرة التي حصلوا عليها إلى جيب السيد بولو،

في البار أو في الماخور، أو في المحلات عند ألعاب الحظ، فهناك الكثير من الامكانيات التي تجعل من المرء فقيراً وبسرعة، وبالتالي العودة مرة أخرى إلى الغابة القاتلة.

ولكنهم صباح هذا اليوم كانوا ما يزالون سعداء، كانوا ما يزالون يعيشون تجربتهم بأنهم اشتروا كل شيء بالنقود، ما يحتاجه الرجل هو: تبغ، عرق (كحول) ونساء. وقد استقبلن في المعسكر بحفاوة وتحلق الرجال حولهن.

" أحكوا لنا " هتف رجل " هيا أفتح فمك، ماذا يوجد جديد في المعسكر الرئيسي؟ عاهرات جدد؟ ما هي أخبار كيرس وبرازيليا؟ هل جلبتم معكم البريد؟ سكائر؟ مجلات مصورة؟ صور نساء عاريات؟ إنني أريد البعض الفاضح منها لأضعها على جدار خيمتي فوق سريري! هيا أحكوا لنا ..".

لم يكن هناك في الواقع الكثير ليروى، إذ أن النادر من الأشياء قد تغير، فقد أنظم إلى المبغي المتجول (السيار) أربعة فتيات جدد، وهناك أربعة رجال محجوزين في المعسكر بسبب مشاجرة بالسكاكين، وقد عرف أن القوة الشرائية للكروسيروس قد واصلت تراجعها، كما ارتفعت أسعار السلع في محلات السيد بولو، ولكن الأجور ظلت كما هي منخفضة.

" إنه يمتصنا كالخفاش " قال أحدهم " سرعان ما سيأتي بدلاً من أن يدفعوا لنا ييصقون علينا ".  
" وماذا تفعل أليا " سأله باولو الجيرا، وكان هذا الرجل العملاق جالساً على مقعد تراكتور ويدخن سيكارة سميكة لفها بنفسه.

" من هي أليا " سأل الرجل .

" الفتاة الهندية في المطعم " صاح أحدهم من الخلف " الدمية الحلوة ذات المؤخرة المهتزة " قالها وضحك بجذل.

ظل وجه باولو دون انطباعات معينة، كانت عيناه فقط تتحركان وقد فقدتا هدوءهما " لا يا صديقي، إذا تطلع المرء إلى بلوزتها، عليه أن يغير سرواله " قالها الرجل ومضى مبتعداً.

" أنا أعلم ماذا تفعل " قال الجيرا.

" إنها العاهرة الصغيرة البنية " هتف الرجل الواقف قرب التراكتور وكان لما يزل ثملاً وضرب على بطن الجيرا وقال " فراش لويس جيزوس أيراس ".

" كيف؟ ماذا؟ " سأل الجيرا وكان صوته قد غدا باهتاً ووجهه العريض خالياً من التعابير.

" أخرس " صاح رجل آخر " إنها فقط ثرثرة ".

" ولماذا عليه أن يخرس " قال الجيرا معبساً، ووضع يده على الرجل ورفع كما يرفع لعبة، وضغط به على التراكتور الكبير، تلملم الثمل في البدء، ولكنه ظل معلقاً بين مخالاب الجيرا العملاقة " ماذا عن أليا؟ ".

" لقد تراهن أريراس بألف كيروسيروس، بأنه سيضع اللعبة السمراء في سريره حتى نهاية الشهر " قالها الرجل بحرارة وأضاف " كلنا نعرف أريراس "

" وبعد ؟ "

" ماذا بعد ؟ الكل في المعسكر الرئيسي بانتظار نهاية الرهان إنه ستكون مزحة قاتلة، فقد وعد أريراس بأنه سيحمل أليا عارية على أكتافه كدليل على ذلك "

ترك الجيرا الرجل يهبط، الذي مضى يسير وهو يعرج، ثم سقط على الطين ومضى بسرعة فيما كان الآخرون يضحكون ويلقون بعض النكات عن دأب وطول نفس الهنديات في فعل الحب.

ظل باولو الجيرا صامتاً على التراكتور، تطلع حوالبه، ثم إلى الغابة، إلى النهر الذي كان قد تضاعف عرضه، على المخيم، على المستوصف، ثم على غرفة جبهات، وهز رأسه عدة مرات، ترك التراكتور يدور ومضى ببطء في الأرض الموحلة صوب مرآب السيارات.

" أليا ... فتاتي، فكر في نفسه، كل ما أفعله هو من أجلك، هو لك وحدك، من أجل حبنا، قطعة أرض، كوخ، وبضع أطفال صغار .. سيكون العالم آنذاك سعيداً، ثم يأتي حيوان مثل أريراس يراهن عليك ... أليا، إنك لا تشاهدينني الآن، إنني أبكي .. أبكي من أجلك وأجلنا.

في الصباح كانت سيارة جيب قد اختفت من المخيم، واختفى أيضاً باولو الجيرا.

لم يفتقد الجيرا على الفور، بل لم يكتشف غيابه إلا بعد أن طال وقوف التراكتور بدون عمل تحت السقيفة التي كانت عبارة عن صفائح عريضة قائمة على أعمدة تمثل مأوى بسيط لتراكتور، وقد فر الجيرا عندما كانوا يسحبون جذوع الأشجار الثقيلة الساقطة على جانبي النهر. وكان أبلغ المراقب عنها، والمسؤول عن ذلك هم العناصر السيئة الذين كانوا يتلقون المكافآت من أريراس عندما يخرجون عدد من العمال أكثر مما تنص عليه تعليمات العمل. ولم يكن أحداً يتحدث عن ذلك رغم علم الجميع بها. ولكن الجيرا كان يبلغ جبهات عن تلك المخالفات.

" ها هو قد عاد إلى السكر " قال المراقب في الهاتف الميداني الذي يربط مقدمة المستوطنة مع إدارة المشروع " سيد كارلوس، نحن بحاجة إلى كل سيارة، العمل يسير حثيثاً إلى الأمام "

حثيثاً ..! هذا يعني أن جماعة القطع كدت حتى تساقطوا من التعب والإعياء، إنهم يعملون تحت حرارة محرقة ورطوبة ممزوجة بعفونة الأنفاس النتنة للغابة، الطريق عبر الغابة، إنهم يقطعون أشجار معمرة تبلغ أعمارها مئات من السنوات، عالية كأبراج الكنائس وهي جميلة وفخمة مثلها.

" سأتحقق من الأمر " رد جبهات، كانت له شكوكه فيما يقوله مراقب العمال، ولاحظت نورينا مخططات العمل ووصفتها " أنها ألمانية الطابع "

" لا يستطيع الحديث هكذا إلا رجل شبعان أو متخم، الخنازير المسكينة هنا متخمة من الكلمات الطنانة، إنهم يريدون أن يشاهدوا اللحم في الشوربة، ولكن كما تريد إنك تهدي ضميرك وهذا هو شئى له قيمته أيضاً "

لم يكن باولو الجيرا في خيمته، ولكنه كان قد شوهد لآخر مرة في الليل، هكذا أخبر بعض العمال، إذ وقف في ضوء القمر يحملق في الغابة ويدخن من سكاثره السميقة التي يلفها بنفسه.

مضى جبهارت صوب المستوصف، لكن الجيرا لم يكن هناك أيضاً، فلربما كان قد سجل عيادة مرضية أو أنه كان جريحاً.

أشتكى مدير قسم التفسير لدى جبهارت، بأن أحدهم قد سرق سيارة جيب " تلك النساء اللعينات في المعسكر الرئيسي " صرخ غاضباً " فقد وصلت عاهرات جدد إلى الماخور وهناك يتقلب الشباب، إنني أراهن بأن هناك أربعة رجال في طريقهم إلى هناك للتمتع معهن "

ولكن جبهارت لم يراهن، بل مضى وهو يفكر إلى غرفته، كانت نورينا قد أعدت الفطور، ووضعت الغطاء على الطاولة، وكانت الخرائط موضوعة في إحدى الزوايا، بل أنها جلبت غطاء طاولة أبيض من أجل تجميل الطاولة القبيحة.

" لقد ذهب باولو " قال جبهارت وأضاف " بسيارة جيب وهذا لم يكن يفعله، فهو شخص يمكن الوثوق به، فقد كان رجلي المفضل، وفجأة يعطي ظهره. هل جرى شئى في غيابي نورينا ؟ هل تعلمين شيئاً ؟ "

" لقد جرى الكثير من الأحاديث " قالت ذلك وصبت له الشاي " ولكني لم أسمع شيئاً عن الجيرا "

" سأتصل باريراس " تناول جبهارت جهاز الهاتف، ترى ماذا سيفعل الجيرا، فطريقه لا بد أن يمر عبر المعسكر الرئيسي حيث يعرفه الكل، ولا بد أن يكون لباولو شأن مع شخص غير معروف، فهو ليس ذلك الرجل الذي يقذف ما يريد ويختفي، فلدیه هدف، إنه يريد الزواج من آليا وأن يشتري قطعة أرض وأن ينسى ماضيه، فهذه أشياء لا يضحى بها المرء دون سبب مهم "

وأدار رقم إدارة المشروع المركزية، ولكن لم يكن أحد ليرفع السماعه هناك، ترك جبهارت الهاتف يرن، تطلع إلى نورينا باضطراب متصاعد حيث كانت تجلس على الكرسي المقابل. كانت تقضم شريحة من الخبز الأبيض بالعلس وكانت تبدو جميلة في سروالها الأزرق والبلوزة الضيقة، وكان جبهارت في الأيام المنصرمة غالباً ما يفكر بقلق، بأنه سيفيق من فورة النشوة، وأنه سيعود كما كان في وحدته.

" لا أحد يرد علي "

" لا بد أنهم خارجاً، ربما أنهم قد تلقوا لتوهم ما يشغلهم "

" المكتب مشغول دائماً، ايراس لا يدع جهاز الهاتف هادئاً، فهو رجل محب للهاتف، وإذا لم يكن يستطيع أن يهاتف أحداً فذلك من دواعي تعاسته " شرب جبهارت كوب الشاي وقفز واقفاً " سوف أذهب إلي المركز الرئيسي " .

" بسبب الجيرا ؟ لا تكن مضحكاً يا كارلوس " .

" لدي شعور أحمق، فعندما لا يجيب أحد على الهاتف في المركز، فلا بد أن شيئاً غير اعتيادي يحدث " .

" ربما أن بانديرا يعلم شيئاً " .

" بانديرا ؟ كيف " .

" لديه وسيلة اتصاله الخاصة عبر اللاسلكي مع الشرطة في المعسكر الرئيسي " .

" هذه معلومة جديدة علي " .

" منذ بضعة أيام وأشياء كثيرة تحدث حبيبي " رد عليها جبهارت بنعومة، فوقفت وعانقته وقبلته مع مداعبات حركت فيه لواعج عواطفه، وسرعان ما طار سحرها، وأنفلت من ذراعيها ومضى مندفعاً " أحبك " قاله بحرارة " يا إلهي ماذا أستطيع أن أفعل لك ! يمكن أن تكون حياتنا رائعة إذا كنت تكرهين العنف مثلي " .

" كم سيكون شيئاً جميلاً " قالت بنعومة " إذا كان بوسعك أن تفكر ولو قليلاً برازيليّاً وليس على الطريقة الألمانية فقط، ولكن ربما أنك ستتعلم ذلك يوماً " .

" بالتأكيد، ولكنني سوف لن أتعلم أبداً أن يكون الإرهاب الوسيلة المقدسة من أجل التحولات الاجتماعية " .

" إذن فإنك سوف تبقى إلى الأبد كعبد " .

" وهذا أيضاً شعار ! إنني لا اشعر بنفسك كعبد، إنني إنسان ينال أجراً مناسباً مقابل عمله " .

" أنت تعلم أن هؤلاء المساكين يعاملون كالكلاب، تعلم كم يحصلون من النقود، إنهم يكدحون ويشغلون كثيراً في ساقية ماء تدور حول مركز واحد وفوق ذلك ينالون سوء معاملة " وقامت نورينا بحركة من ذراعيها " أتعلم لمن تعود الأرض التي يجري عليها العمل الآن، ليس لهؤلاء الهنود الذين يسكنون هنا منذ قرون، والذين يهربون منا دائماً باتجاه أعماق الغابة، أو يجري قتلهم ببساطة إن هم ظهروا في طريقنا، لهؤلاء الأرض ؟ كلا .. ليس لهم، إنها للسيد الكبير بولو، ولديه عقد مع الحكومة وتدعمه كل الأطراف. إن الغابة ليست ملكاً لأحد، إنها ملك للذي يستصلحها، وكل شجرة تسقط تجعل بولو أكثر ثراء. البرازيل ستحصل على طريق عريض جميل حتى ريوار غوايا، وطريق أرضية مائية إلى الأمازون عبر قارة كاملة، إنه شريان حياة جديدة التي ستفخر بها البرازيل. طريق للتجارة ذلت أهمية عظيمة للاقتصاد الوطني كما يقول السياسيون، ولكن ماذا سيمر عبر هذا الطريق ؟ شاحنات بولو استثمارات واستغلال بولو ومجموع الشعب سيبقى فقيراً كما كان من قبل " .



" في هذه اللحظة شخص ما يهتف من المعسكر الرئيسي " قال جبهات بخشونة " هناك مشكلة " حاول الاتصال مجدداً، ولكن الهاتف عند أريراس لم يكن يرد " سأذهب إلى هناك " قال جبهات وكررها " ليسمونني مجنوناً هناك سيارة جيب مسروقة، وأحد أفضل رجالي غائب، وهذا سبب كاف "

وأمام المستوصف التقى مع دورياس بانديرا، والدكتور سانتالوس الذي كان قد عاد إلى إجراء فحوصاته الداخلية، وكانت الوردية التي أنهت عملها تقف في طابور طويل أمام خيمة الإسعاف وتنتظر دورها في التقاط الأشعة، اختفت نورينا داخل خيمة الإسعاف وارتدت صدريتها البيضاء وجلست خلف جهاز تصوير الأشعة المتحرك. وعلى الطاولة حيث كان قبل ذلك يعمل في هذا المكان أحد الممرضين ويعمل بملاً قوائم، حياها الدكتور سانتالوس بهزة رأس وكان قد أرثدي صدرية عمل رصاصية، وقد وضع في يديه قفازات قماشية، ويجلب العمال من الصف ومن ثم معرفة فيما إذا كانوا مرضى، وصور الأشعة هنا تؤيد فقط تقديرات الطبيب.

بصوت هادئ أخذ يملي نتائج الفحوص: ضغط الدم، نبض القلب، اضطرابات الرئة، تضخم الطحال.

" إنه سيقضي على جماعتك " قال بانديرا معلقاً عندما حياه جبهات " وفي كيرس وبرازيليا يتصورون أن سانتالوس هو الرجل الغير مناسب في المكان الغير مناسب، إنني أنتظر خبر نقله إلى ريو مجدداً "

" هل رأيت باولو الجيرا ؟ " سأل جبهات، وألقى نظرة سريعة على نورينا سامازينا التي كان شعرها الأسود يلعب كالحرير، وهو لا يستطيع أن يفهم أن امرأة مثلها تعمل من أجل الثورة، وأن تطبق القتل والدم كأشياء بديهية، ترفع شعارات مثل: خلق برازيل جديدة .

" لقد سمعنا أن سيارة جيب قد سرقت " أجاب بانديرا " والجديد عندي، أن طفلك المدلل الجيرا له ضلع في ذلك "

" هذا ما لم أقله أنا "

" ولكنك تفكر بذلك " قالها بانديرا وهو يرمي ببصره صوب النهر، كان المطر الشديد قد توقف ولكن الماء كان أخضر، والسائر على ضفتا النهر وأرض الغابة والمستنقع يخوض فيها مع كل خطوة بالماء، ولكن الجسر المؤقت ما يزال قائماً، وكانت سيارات الحمل والتراكتورات ما تزال تسمع أصواتها، وعلى الضفة الأخرى ما يزال ضجيج سقوط الأشجار وهي ترتطم بالأرض وبالأشجار الأخرى.

" عزيزنا بيرابورت لا يعرف الهدوء، إنه يعدو هنا وهناك وكان عفريت في مؤخرته، يبحث عن الأوضاع في صفوف العمال. هل تعلم بالمناسبة أن حادثة قتل أخرى حصلت هذه الليلة ؟ إن رجلاً قد دس رأسه في وحل الأرض، إنها ميتة فضيحة. وقد أثبت الدكتور سانتالوس الذي أجرى التشريح، أن رأسه قد دس في الوحل وهو حي يرزق. والآن يبحث بيرابورت في ذلك، وهو في الواقع يقوم بمهام أجهزة الأمن، وهو يعمل كثيراً لأنه يحصل على إجازات أكثر من الآخرين، يا لها من جمعية أغنياء وأي جهاز أمن هذا ؟ "

" كتيبة الموت مرة أخرى ؟ " سأل جبهات بحرارة " هل تعلم بانديرا، إنه لأمر ملاحظ إننا لم نكن نعرف حتى وصولك عن اغتيالات كهذه عندنا ؟ "

" أتجدون ذلك أمراً ملاحظاً ! وأنا أيضاً " قالها بانديرا وضحك عالياً.

" وبوسعك أيضاً أن تقول نفس الشيء منذ أن حل بيرابورت هنا "

" إن القتلى هم من جماعته فقط "

" في الواقع لدينا بعض الأشياء ضد رجل الأمن، والشعب البسيط لديه شعور صحي غريزي لما هو جيد أو لما هو سيئ " هنا أصبح بانديرا جدياً " :لنأت إلى قلب الموضوع سيد كارلوس: متى سرق رجلك سيارة الجيب، ولماذا صار السروال ضيقاً جداً عليه، وأصبح لابد من الذهاب على الفور إلى خطيبته آليا، فعلي إذن أن أعاقبه كأني فرد من الآخرين "

" طبعاً، بل أنني أؤيد ذلك "

" شكراً " قالها بانديرا وربت على كتف جبهات وقال " إن شعورك بالعدالة جدير بالإعجاب أرجو أن تحافظ عليه "

لقد كانت محاولته ذات معنى مزدوج، فهمها جبهات جيداً.

شيئاً ما كان يتهدد في المخيم، في مكان ما كانت هناك نار كامنة، كان هناك فتيل، وأين كانت الشحنة المتفجرة ؟ متى سوف تنفجر ؟ ولمن سوف تصيب ؟ ولأي غرض هي ؟ كان ذلك سؤال وهو ما لم يكن يتخيله لا بانديرا ولا نورينا، والإجابة يمكن معرفتها سلفاً، إنها إجابة كل الثوار: الثورة ضرورة.

" ألم تسمع شيئاً من المعسكر الرئيسي ؟ " سأل جبهات " هاتف أريراس لا يجيب "

" وتلك قذارة معروفة ! فالانفجار البركاني أمس، الخط الهاتفي قد قطع في مكان ما، كما أننا لم نستلم شيئاً يستحق الذكر من خلال جهاز اللاسلكي العائد لي "

وذهب جبهات إلى حيث كانت السيارات متوقفة والمحموزة لإدارة المشروع، وبحث عن سيارة اللاندروفر والتي يستطيع المرء استخدامها في مثل هذه الظروف، وحتى لسحب السيارات المنغرزة في الطين عندما يكون غرقاً بمياه الأمطار، فقد كان صب الإسفلت على الطريق هي المرحلة الختامية في الطريق وهذا لم يكن قد أنجز بعد في طريقنا.

أشار بانديرا لجبهات وكأنه يريد أن يسبقه، ثم أشار إليه بعلامة بوجهه، وفيها أظهر العطف.

فيما بعد قال لنورينا " رجل مسكين، سيتعين عليه ابتلاع مثالياته "

---

(\* منطقة في سبيريا

وصل باولو الجيرا إلى المعسكر الرئيسي في الصباح الباكر، كان الجميع بعد نيام، فقط الماخور كان يعمل، ففي المعسكر الرئيسي يدور العمل في ورديات على مدار الساعة. وإلى جانب الغرف الأربعة التي كانت باصات فيما مضى، حولت إلى غرف، وكان هناك ثمة ما يشبه الكوخ هو عبارة عن مشرب فيه بار، حيث كان ينتظر هناك رواد الماخور إلى أن يأتي دورهم، كما وأيضاً يعرج على البار الرجال الذين أنهموا متعتهم في الماخور، وينفقون هنا آخر كيروسيروس ظلت في جيوبهم، وكلها تدور بشكل جميل لتعود إلى جيب السيد بولو. ولكن لا أحد يتحدث عن ذلك، فهو أمر بديهي، فالمرء ينال شيئاً مقابل نقوده، نساء بدينيات عاريات، مشروب عرق جيد، بيرة باردة، خبز لقاء مستند، ماذا يريد المرء أكثر منى ذلك.

يومان عطلة يبتعد فيها المرء عن شقاء العمل في المقدمة ... في الغابة يومان عطلة بدون فؤوس أو مناشير، يستطيع فقط أن يفهمها من يعمل عشرة ساعات أو أكثر، يقطع فيها أشجار الغابة العملاقة، يضرب هنا وهناك، في متسلقات ليانن والأفاعي وأسراب البعوض والهواء المتعفن الرطب، يفهم لماذا ينفق الرجال الذين يسكبون العرق المر في يومين مليئة بالنساء والسكر .. لماذا يعيش المرء إذن؟ أيعلم المرء ماذا كان الأمس؟ الموت يحدث في جميع الأيام، إذن على المرء أن يعيش ما في وسعه أن يقف على ساقيه.

سيد باولو ..؟ أفرغ قاذوراتك على سيد بولو! فقد حصلت أنت على العاهرة رقم 19، وخلال ثلاث ساعات ستكون في الغرفة (الباص) في سرير ناعم وأنثى عارية تدلل حضرتك، خذ قح آخر من العرق يا صديقي ..؟

مضى الجيرا على الفور إلى مسكن العاملات في المطعم، وكان يعرف غرفة أليا بدقة، الشباك الرابع إلى اليسار في البراكة، كانت الشبابتك مغلقة .. أه إنها فتاة طيبة.

أوقف الجيرا سيارة الجيب قرب المدخل، قرع على النافذة وعلى الباب، لم تبد أي حركة في الغرفة، يبدو أنها مستغرقة في نوم عميق، كان الجيرا يسبح في تصوراته، أنها امرأة طيبة يمكن الاعتماد عليها وستعرف كيف تدافع عن نفسها، ولن تدع ذلك الخنزير يربح رهانه، وإنها سوف تركله على بطنه إن أقترب منها.

لقد وفر إلى حد الآن ألفاً ومئتين وتسعة وأربعون كيروسيروس في بنك مدينة كيرس، إنها المرة الأولى في حياتي يكون لي فيها رصيد في البنك، أعترف أن ألف كيروتسيروس ليس كثيراً، وبها لا يستطيع المرء أن يستولي على العالم، ولكنها البداية، وفي كل أسبوع تضاف عليها كيروتسيروسات أخرى، إنني أدخر منها قطعة قطعة، وفي ذلك ألقى مشقة حقيقية، ولكن إذا وصلنا إلى ريوار غوايا، أنذاك سيكون لدينا ما يكفي من المال لشراء قطعة الأرض، أرض زراعية للمراعي وسنربي الأبقار، أبقار سمينة جميلة .. انتبهى أليا .. حبيبتي .. أنا حبيبك باولو.

ظل يقرع على الباب، ويقرع حتى سمع صوت أليا من الداخل.

" دعني وحالي " صرخت، وكانت تقف بالقرب من الشباك، وقد قطع صوتها بصوت نحيب " هيا أخرج، يا بهيمة، ألم تحصل على ما فيه الكفاية لم يعد بوسعي المزيد، لم يعد بوسعي المزيد، سأموت من الشقاء، أخرج أيها الخنزير ".

سحب باولو رأسه وظلت قبضته التي كان يقرع بها الباب معلقة في الهواء، كما لو أنها تحجرت فجأة، ثم أخفض رأسه إلى الأمام، التصق بجدار البراكة، وكان قفصه الصدري يزفر بصوت له معناه.

" هيا أغرب عن وجهي " سمع صوت آليا يلعلع " لقد حصلت على ما تريد أيها القدر " .

" مكث الجيرا فترة غير قصيرة إزاء جدار البراكة ملصقاً بجهته بالجدار مباشرة، مغلقاً عينيه، وبدا له كما لو أن دورة الوقت تعود إلى الوراء، تذكر زوجته الأولى، والرجل الذي أحتز رأسه، المحاكمة، السجن .. وهذا كله لم يكن قد حدث بعد الآن، كان ما يزال واقفاً هناك، ويحدث نفسه: يجب أن أفعلها ! يا للجنة بولو، يجب أن تفعلها، لا يوجد سبيل آخر، لقد وضع زوجتك تحته وشملك بالعار، وليس هي وحدها، إنها ملكك، حياتك، حبك، قلبك، يجب أن تفعلها

...

أبتعد عن الجدار الخشبي للبراكة، ودار حولها ومضى ببطء صوب إدارة العمل، والباب لم يكن مغلقاً وبالإمكان دخول البناية ولم يكن هناك أحد يمنعه، سار على طول الممر يقرأ الأسماء المدونة على الأبواب.

لويس جيزوس أيراس، بطاقة كارتونية مكتوب عليها بخط أخضر سميك، وخلف هذا الباب يرقد الرجل الذي أرتمي بجسده على آليا ... آليا ...

ضغط باولو الجيرا على أكرة الباب، لم يكن الباب مقفلاً، قد يكون المرء متهوراً يا صديقي عندما يرغم فتاة مثل آليا على الرقود في فراشه، بل عليه أن يتوارى خلف قضبان حديدية، أو أن يحتمي بأبواب فولاذية، وجدران سميكة، أما ترك الباب مفتوحاً، فهذه مخاطرة بحياته: لويس جيزوس أيراس.

دخل الجيرا الغرفة المظلمة وسمع شخير أيراس، واتجه صوب الصوت. وعندما وقف أمام السرير وأنحنى إلى الأمام، جمد النائمة لفترة طويلة، ثم أفرد يده الهائلة، إنك نائم مثل خنزير شبعان، فكر في نفسه وآليا تعاني الموت ..

وبدفعة واحدة، هاجم وضرب بيده على رقبة أيراس ورفع من الوسادة إلى الأعلى، فأطلق أيراس صرخة وحشية وراح يضرب بقبضته في الهواء، ولكن ماذا ينفع ذلك حيال عملاق مثل الجيرا ؟ ثم تخبط في سريره، وأرتطم رأسه بالجدار، وجحظت عيناه في محجرهما وبان لسانه من فمه سميكاً.

أخذ الجيرا يهزه وألصق الجسد على الشباك وراقب في ضوء الغسق الجثة ترتجف بين يديه، وقد عرف الآن أن لويس جيزوس أيراس من الذي يمسك به من عنقه، وضرب بأخر ما لديه من قوى، وأرخی الجيرا من شدة قبضته.

" إنك تريد أن تقول شيئاً بعد ؟ " سأل بصوت وكأنه نائم مغناطيسياً.

" هل أنت مجنون ؟ " قال بصوت متحشرج " بكل المقدسات دعني وشأني ".

" ماذا فعلت مع أليا " سأل بصوته الفضيع الذي بدا لا لحن له " أريد أن أسمع منك ما فعلت الآن ".

" لم أفعل شيئاً ! " صاح بجزع، وقد بدا له بوضوح أنه ماض إلى الموت، إذ كان يعرف ملف الجيرا العقابي، وقد أدرك أنه لا ينتظر منه رحمة ".

" إنك قد راهنت عليها ... ".

" هذا لم يكن إلا على سبيل المزاح فقط، كنا نثرثر، وأنت تعلم كيف تجري مثل هذه الأشياء، يقول المرء أي شيء، أنا أعلم أنت وأليا ... "

" إذن فأنت ربحت الرهان .. "

" كلا " ولولول أريراس، فيما شدد الجيرا من قبضته على عنقه مرة أخرى " إنك لا تستطيع أن تتهمني بذلك ".

" هي قالت ذلك، إنها في الرمق الأخير وقد أخبرتني بنفسها بذلك، لا تستطيع أكثر إنها على وشك الموت ".

" لم أكن أنا يا بولو، اقسم لك على ذلك، لم أكن أنا، أسمعني جيداً ".

أخذ الجيرا يأرجح أريراس مثل لعبة ممزقة، يسيل اللعاب من فمه، وكان بإمكان المرء أن يشم أنه عملها في سرواله، فقد كان الخوف يملؤه.

" لم أستطع أن أمنع ذلك " صرخ أريراس " لأجل السيدة العذراء أرجوك أن تصدقني ".

" من هو إذن..؟ " سأل الجيرا بصوت مرعب.

صمت اريراس، ثم أدار عينيه فيما اشتدت قبضة الجيرا.

" من هو ".

" أخذ أريراس نفساً عميقاً إذ أرخى الجيرا من قبضته القوية لثوان، كانت رنتاه تصفران وكأنهما يتمزقان.

" بولو " زفر أريراس ألماً " هو الذي كان، ونحن لسنا سوى ماكينة فذرة حياله، إنه هو الذي شاهد أليا وأرادها، ومن ذا الذي يستطيع منعه، إنه يمتلك السلطة بولو".

فكر اريراس، فيما لو صرخ الآن طالباً المساعدة والنجدة، ولكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة، فأصابع الجيرا القوية ستخنقه فوراً هذه الصرخة.

" وأين السيد بولو " سأل الجيرا.

" لقد سافر عائداً قبل ثلاث ساعات تقريباً، لقد جاء إلى هنا بطائرة مروحية، لكي يعلم ويستطلع، ثم طلب الكونياك، وآليا بالذات قدمت له الخدمة، ماذا كان بوسعي أن أفعل باولو؟ إنه الرئيس هنا وبدونه نحن ديدان في الطين " تضايقت أنفاس أريراس إذ شدد الجيرا من قبضته مرة أخرى على رقبته " كن عاقلاً باولو، ماذا تريد أن تفعل " .

" هذا " قال الجيرا بهدوء .

كانت ضربة ذات وقع، عندما ارتطم رأس أريراس بالجدار، ليس أكثر من ضربة قوية واحدة، تهشمت الجمجمة وسال الدماغ إلى الخارج، لقد تهشم رأس أريراس مثل كرة زجاجية، وعندما فتح الجيرا يديه، سقط الجسد على الأرض، كان يبدو وكأنه قد مات منذ فترة طويلة. مات أريراس في ثانية واحدة دون ألم، وعندما لطم الجيرا رأسه على جدار الغرفة، أنهى على الفور.

هكذا إذن آليا .... مسح الجيرا يديه بسرواله، وهكذا يوفر المرء على نفسه ألف ومئتين وتسعة وأربعين كروتسيروس، وينبغي أن أقتل. هكذا يتحول لحم المرء ببيت خاص به له حديقة، قطعة أرض زراعية صغيرة وأبقار تدر حليباً ولحوم وأطفال وحياة سعيدة، ثم يأتي رجل ذو نفوذ، رجب بوسعه أن يأخذ كل شيء وحتى زوجة رجل شيطان، وأن يحيل العالم الجميل إلى دار جثث.

ماذا يمكن أن ينتج عنا ومنا؟ إنهم سوف يطاردونني مرة أخرى، ثم يصطادونني كحيوان، وسيدسونني هذه المرة في السجن وإلى الأبد، وسوف أدوي خلف الجدران السمكية، وكل السجناء من زملائي سوف يسخرون مني ويقولون: أنظروا .. هذا هو باولو الجيرا، باولو الضخم، اقتنى زوجتين وفي كلتا المرتين يأتي أحدهم ويأخذ منه زوجته، وفي كلتا المرتين يقتل الرجل. يا له من غبي، هل تستحق النساء هذه أن يمنهن الرجل هذه القيمة؟.

سأقول للجميع: نعم! .. إنهن يستحقن هذه القيمة، وأنتم لا تعرفون آليا .. آليا كانت ملاك، ومن أجل ملاك ينبغي على المرء أن يفعل كل شيء.

أخذ يتلمس في ظلام الغرفة، أرقد أريراس الميت في السرير وغطاه وغادر الغرفة.

لم يراه أحد في محيط إدارة المشروع حيث كان الجميع نائمون، ولن يستيقظوا قبل ساعتين. ولربما حوالي الظهر حتى شعروا بغياب أريراس وبدأوا البحث عنه، ترى أين كان قد سكر حيث يستغرق عادة بعدها بالنوم، ولكنه كان يفيق حوالي الظهر، ويقف على قدميه كي لا تضيع منه وجبة الغداء.

مضى الجيرا صوب الماخور، وفي البار كان يجلس أربعة رجال وكانوا يتبادلون نكات بذيئة، وكانوا آخر الخارجين من بيت الدعارة، حتى العاهرات يرغبن في البقاء لوحدهن في السرير، بدأ الصباح يغشى، إنها أنفاس كسولة وحلوة، هنا الحياة الفاخرة تنمو في العفن.

" قدح ويسكي " قال الجيرا وجلس على أحد الكراسي العالية للبار، وتطلع الرجل خلف البار متعباً.

" هل أنت مليونير ؟ " سأله الرجل.

" نعم " .

" أتعلم كم يكلف كأس الويسكي اليوم ؟ " .

" لا عليك، صب لي يا صديقي " .

" بئس كأسين من الويسكي بوسعك أن تحتفل ساعة كاملة عند فرايتنا " .

" لا أريد عاهرة .. أريد ويسكي ! " قال الجيرا بصوت عال " والدفع مقدماً " الجيرا دفع سعراً جنونياً، وحصل على الويسكي. المشروبات الأخرى، لا سيما العرق كان رخيصاً وهي تقطر في مصانع تعود للسيد بولو أيضاً .

كل شئ لبولو، بولو في كل مكان، والآن حتى في جوف آليا، لماذا ... أوه يا إلهي في السماء، إنك خالق كل الأشياء، لماذا خلقت شخصاً مثل بولو.

قبل أن يحين الاستيقاظ العام، قرع أحدهم ساعة مربوطة بصحن ذات عصا طويلة، ثم ركب الجيرا مرة أخرى سيارة الجيب وعاد إلى المعسكر الخارجي، فقد ترك الوقت يمضي لذلك قاد السيارة ببطء، على المرء أن يتذوق الساعات الأخيرة جيداً، عليه أن يعيشها كأمرير، أن يلتهم الأشياء الجميلة في الحياة، حتى يعض عليها قطعة فقطعة، هل حدث لك أن عشت في ززانة ذات جدران رمادية يا صديقي ؟ ذات شبابيك مغطاة بشبكة من القضبان حتى نهاية الحياة، ولا يتمتع سوى بالقليل من أشعة الشمس ! .

ولبضعة مرات توقف الجيرا، أستنشق فيها نسيم الغابة الصباحي، ألقى التحية على الشمس بغمزة، وقطف الزهور ووضعها في قميصه، وأخذ يراقب عصافير الجنة بريشها المضيئ تمرق في الصباح، وينصت لثرثرة البيغاوات.

وفي منتصف الطريق تقريباً بين المعسكر الرئيسي والمعسكر الخارجي، التقى باولو الجيرا مع كارل جبهارت. وباولو هو من رآه أولاً ووقف بجانب سيارة الجيب، عندما توقف جبهارت أمامه.

وهذا أيضاً ليس تعبيراً عن طيبتك يا إلهي، فكر باولو في نفسه، ورمق بنظرة سريعة إلى السماء الصباحية المتداخلة الألوان، أكان ضرورياً أن يأتي السيد كارلوس وليس غيره الآن ؟ لماذا تعاقبني الأقدار هكذا ..؟

" يا للشيطان " صرخ جبهارت وقفز من سيارة اللاندروفر " إنني أبحث عنك باولو، أين كنت عند آليا ؟ ألم يكن بوسعك أن تأتي عندي وتطلب مني إجازة ؟ ثم تأخذ معك سيارة جيب هكذا ببساطة ؟ " .

ها هو هنا، هكذا فكر جبهارت ببساطة، إن شعوري خدعني هذه المرة، لم يحدث شيء، إنه لم يفعل شيئاً سوى أنه قد ذهب لمشاهدة خطيبته آليا كما خمن بانديرا.

" سأشطب لك الساعات، ولكنك ستنال غرامة كعقوبة لصالح خزانة المشروع "

قال جبهارت " وعدا ذلك، فإنك سوف تقضي أربعة أسابيع بدون إجازة، فإذا فعل كل فرد هنا هكذا، عندما يشعر بالرغبة لزيارة زوجته، أنذاك سألاقي حتفي وحدي في الغابة "

هز الجيرا رأسه " أفعّل لي ما تشاء سيد كارلوس " قالها وغطس رأسه في صدره.

" ما هذا الهراء " تقدم جبهارت إلى الأمام فيما وقف الجيرا مستنداً إلى سيارة الجيب، تطلع إليه جبهارت مستغرباً، ثم شاهد البقع على سرواله فأخذ يهز رأسه .

" إنك لن تتعلم، إنك في وسط الطريق لتصبح رجلاً حراً " قال جبهارت وأردف " أذهب المرء هكذا إلى عروسة بملابس قذرة، أليس لديك سروال آخر ؟ "

نظر الجيرا إلى نصفه الأسفل " كلا " قال بهدوء " لقد وفرت كل كروسيروس من أجل آليا، لست بحاجة إلى سروال جديد، وهذا السروال جديد بما يكفي "

" إذن أغسله على الأقل قبل أن تشاهدك عروسك "

وأراد جبهارت أن يمضي نحو سيارته ليقل عائدًا، ولكنه فجأة أدرك أمراً، أن سروال الجيرا ملطخ بالأحمر " ترى ما هي هذه البقع ؟ "

" مخ " قال الجيرا بنعومة " إنه مخ ايرراس، لماذا يجب أن أغسله، أنا لا أريد أن أهرب من الأمر "

ما قاله الجيرا كان له وقع هائل، وبعد هنيهة صمت فضيعة، لم ينبس أحدهما بحرف واحد، سأل جبهارت بعدها بصوت مبجوح " وهل قتلته ؟ "

" لم يكن بالإمكان شيء آخر "

" هذا قتل ! " وصرخ جبهارت " باولو أن تقتل للمرة الثانية إنساناً، إنهم سوف يشنقوك ! "

" ليس بعد " قالها الجيرا وصعد إلى سيارة الجيب القذرة، وجلس على المقعد الأول، كان صوت آليا ما يزال يدوي في أذنه، صوت يوحي بالتحطم والانهييار، صوت يائس بقولها : لا أستطيع أكثر من ذلك .. ألم تأخذ كفايتك ..؟ لا أستطيع أكثر من ذلك. إنه سوف لن ينسى هذا الصوت، وإذا ألقوه في السجن طيلة عمره فإن هذا الصوت سيبقى ناراً لا يخمد في أذنيه .

" ليس بعد " كرر ذلك " لا يعلم أحد بما جرى، ولم يراني أحد، أنت الوحيد من يعرف ذلك، أنت سيد كارلوس .. أنت فقط "

ران صمت، سكون رهيب بين الرجلين كل واحد في يده قدر الآخر.



" وأنت تفترض أنني سألتزم الصمت ؟ " قال جبهارت " أن أعلم عن قضية قتل، وأترك القاتل يتجول حراً ..! ".

" إنني لم أقم سوى بقذف رأس أريراس على الجدار، وهو لديه رأس حساس جداً " قالها وأستند إلى مقود السيارة " وماذا الآن يا سيد كارلوس ؟ "

" أنت تعرفني أيضاً، وبالمناسبة إنك الآن حقاً في تدريب ".  
" ولماذا ينبغي على ذلك ".

" حتى لا أبلغ عليك عند النقيب بانديرا. هل انتظرت مني شيئاً آخر ؟ "

" كلا، أنك رجل مستقيم سيد كارلوس، لقد كنت عادلاً تجاهنا ".

" هل هذه سمعتي لديكم ؟ " قال جبهارت بتأثر، قالها وقد غرق في التأمل، كما لو أن الجيرا سوف يقتله، إنه لا يمتلك سلاحاً الآن، ولكنه ربما يحمل شيئاً منها في جيبه. ولكن الجيرا أقوى بما يكفي لكي يقتله بضربة قوية بدون سلاح، بذراعه القوية المؤلفة من كتلة من العضلات، كانت مواجهته أمراً لا طائل منه، ولم يكن جبهارت ليحمل معه مسدساً قط، لذلك لم يكن بوسعه سوى الانتظار عما سيقرره الجيرا.

" أمني أسبوعاً آخر سيد كارلوس " رجاه الجيرا " ثم أقدم نفسي طائعاً للشرطة ".

" ماذا سيحدث في هذا الأسبوع بولولو ؟ إنني أعرفك جيداً، وأريراس لم يكن سوى البداية، لقد ضربته بسبب أليبا، أيها الغبي، ولا أنتظر منك إيضاحات أخرى، من هم على قائمتك ؟ هل تريد أن تقتل كل من ربت على مؤخرة أليبا، لاحظ إنها تعمل في مطعم عمال، وهناك يرتاد المكان رجال ليسو بقديسون، وإذا كنت لا تحتل ذلك أخرجها من هناك ودهسها في دير للراهبات لتعمل هناك ".

" هذا الآن متأخر " رد الجيرا ورمق الغابة، كانت شمس الصباح تبرق كالذهب بين أوراق الأشجار التي تبدو كسقف عال لكاتدرائية.

" صحيح " قال جبهارت بصوت هادئ " إنه متأخر جداً يا بولولو، إنه لحظ سيئ إذ قمت بالبحث عنك، وأن نتقابل هنا، قبل ساعتين من الآن وأنت كنت في المعسكر الخارجي من جديد، وموت أريراس كان سيكون ويبقى لغزاً ".

" لنفترض إنني ما زلت في المخيم " كانت عينا الجيرا تمنح صفة كلبية، وكانت تتوسل، هو جبهارت رأسه .

" لا تساومني في القتل بولولو، هيا قد سيارتك ".

ومضى ببطء إلى سيارته وهو يحدث نفسه، إن بوسعه قتلي الآن، فقد أوليته ظهري، هذه الأفكار كانت تتصاعد لديه، كان مجهولاً لديه بصورة تامة، لا خوف، لا أحد يطالب أن يفر من

ذلك، ولكن فقط انتظار وتوتر، كنتك التي تحدث في لعب البوكر، قبل أن يكشف المرء أوراقه على الطاولة.

ظل جبهارت واقفاً بالقرب من سيارته، وألتفت، وفي نفس اللحظة أدار الجيرا محرك سيارة الجيب، وقاد السيارة ماراً من أمام جبهارت، دون أن يتطلع إليه.  
"والآن" قال جبهارت، فهو لم يكن ينتظر من الجيرا شيئاً آخر.

في المخيم، سار جبهارت فوراً إلى النقيب بانديرا، وكان ضابط الشرطة جالساً على كرسي أمام المستوصف يطبع تقريراً على آلة كاتبة متنقلة، فيما كان الدكتور سانتالوس ونورينا يفحصان الوردية التي أنهت عملها. وفي غرفة الفحص، كان المصنفين العمال يسرعون قبل إجراء الفحص عليهم.

" هل سيفرح بيرابورت عندما سيعود " قال بانديرا بأسف، لقد سجل الدكتور سانتالوس نصف الوردية كمرضى، وهو يدعي أن البرازيل لا تستطيع أن تحصل على نقود من حطام سفينة، ترى هل هناك إضرابات في برازيليا وكيرس ! حتى أنت عليك أن تعدل خطتك سيد كارلوس، فأنت لديك بالكاد ستون بالمئة تقريباً من قوة العمل، المستخدمة في العمل فعلاً " .

" ستحدث ما يكفي من الاضطرابات، أيها النقيب " قالها جبهارت ورمى ببصره إلى ما وراء الساحة، كان الجيرا قد أعاد سيارة الجيب وأوقفها في مكانها في الصف، وهو الآن في مناقشة انفعالية مع مدير مرآب السيارات، حيث يطالبه بثمان البنزين " لقد عثرت على باولو في الطريق، وكان قادماً من المعسكر الرئيسي، حيث قتل أيراس هناك " .

: وبدا على بانديرا وكأنه لم يفاجأ بهذا الإبلاغ، هز رأسه ودفع الآلة الكاتبة وقال.

" أعلم هذا " .

" أتعلم ذلك ؟ " .

" منذ أن بدأت البحث عن ولدك المفقود الجيرا " قال بانديرا.

" وأنت لم تقل لي ... لقد سألتك بالتأكيد " .

" لقد سألت فيما إذا كنت قد حصلت على أخبار خاصة، ومن ذلك استخلصت الحقيقة " .

قالها بانديرا ومد يده وأخرج من جيبه العلوي اثنين من أنواع السيكار الطويل، قدم واحدة إلى جبهارت الذي تناول السيكار، بينما كان بانديرا يبتسم ابتسامة غامضة.

" لقد كان قتلاً " قال جبهارت وبدا صوته بدون رنين " نعم حادثة قتل أيها النقيب " .

" انك متعلق كثيراً بهذه الكلمة سيد كارلوس " .

" وهل هناك غير ذلك، عندما يحطم رجلاً رأس إنسان على الجدار " .

" إنها أسوأ حادثة قضاء وقدر، ولكن الأمر لم يكن حتى كذلك، إن العناصر التابعة لي في المعسكر الرئيسي يقولون أنهم أحالوا حادثة ايراس إلى العاصمة برازيليا كقضية لا حل لها " .

" بانديرا ... " قال جبهارت وهو يمد الكلمات.

" والآن أسمعني رجاء، يا ملاك الحقيقة الألماني، قلت لك بوضوح، أي وضع عصيب نعيش نحن هنا ! إننا هنا في وضع استثنائي اجتماعياً وسياسياً وإنسانياً، ولهذا الطريق، يجب أن توضع التخطيطات ولا يجوز السهو في أي كيلومتر، بل تحقيق نظام جديد في هذا الطريق المتعفن."

" يا للجنة، هذا ما أسمعته في كل مكان، حتى نورينا تغني هذه الأغنية الألمانية البطولية، ولكن لماذا بالذات في هذا الطريق."

" في مكان ما، يجب أن يبدأ المرء، أنت مغفل، وأين إن لم يكن هنا ؟ في ريو ؟ في برازيليا ؟ في ساوباولو ؟ هناك البشر ليسو جياح، هناك يحكم الرأسمال الكبير، التجديد يجب أن يأتي من الخارج إلى المدن على العكس تماماً من الثورات الكلاسيكية."

" وما علاقة هذا كله بقتل ايراس."

" إنه لم يكن قتلاً " قال بانديرا بهدوء " إنها كانت إشارة، وإنها للأسف إشارة فيزيائية وليس غير ذلك، كما لو أنها إشارة بإطلاق النار، انفجرت وخمدت."

" هذا رهيب" قال جبهارت بذهول " إنك تصنع من الجيرا بطلاً."

" متى تكف أخيراً من استخدامك الدائم للكلمات الكبيرة ...! بطل ". رفض بانديرا الرماد الأبيض من سيكاره الأسود الطويل وأضاف " فهذا سوف لن يصنع منه أي شيء، فهذا يسمى إجراءات الحروب الصامتة وهي واحدة من خصائص هذا البلد."

نهض بانديرا من كرسيه مؤكداً على جدية كلماته وأضاف " سيد كارلوس، إنني أريد أن أحذرك من إرسال بلاغات أو إشارات إلى كيرس، وإنه لعمل متأخر، فالبركان على وشك الانفجار " قالها ونظر إلى الساعة وأضاف " هنا سيكون البدء مع بيرابورت."

" هذا أكيد " قالها جبهارت بانفعال.

" ماذا أكيد ؟."

" أنت هو الرأس، لقد أدركت ذلك منذ أن ظهرت هنا، ويسجل على حسابك أيضاً حوادث الأيام الأخيرة بانديرا، دعني أسافر مع نورينا قبل أن يندلع الجحيم هنا."

" بكل سرور " قالها بانديرا وأشار إلى المستوصف.

كانت نورينا سامازينا جالسة أمام الصور الشعاعية الصادرة عن جهاز الأشعة، وتمعن النظر فيها عبر جهاز وصندوق الإنارة، وعندما تشاهد علامات السل على الأشعة، تضع إشارة صليب حمراء على الصورة.

" أذهب إلى الداخل وأسأل نورينا يا سيد كارلوس، لماذا لا تريد أن تفهم بأننا أيضاً لنا الحق في أن نحب بلادنا ".

لم يشأ جبهات أن يتكلم مع نورينا، وهو لم يكن في وضع ليفعل ذلك، حيث كانت أفكار وتأملات تتناهبه وتدور في رأسه، وقبل كل شيء، ودائماً وأبداً، السؤال الحاسم: كيف يمكنني أن أنقذ نورينا ونفسي من هذا البركان كما أسماه بانديرا ؟ هل سيقذف الجميع في الهواء مثل الرماد الخامد ؟

وفي نفس الوقت، شهدت مدينة كيرس، حيث توجد كتيبة من قوات المظليين شكلاً من هيئة أركان لإدارة الأزمة، وكان ممثل للحكومة وضابط برتبة كبيرة من هيئة الأركان العامة قد طارا من برازيليا إلى كيرس في طائرة عسكرية بعد مقتل أريراس مباشرة، وكانوا يحملون معهم تفويضات بصلاحيات واسعة، إذ كانت الحكومة على اضطراب كبير من الأنباء الواردة إليهم التي كان بيرابورت قد يواصل إرسالها إليهم باللاسلكي.

أما الشعور بين العمال فكان متفجراً، والمسألة برمتها كانت مسألة وقت، ومتى تبلغ الشرارة برميل البارود، ولكن هذا الوقت كان ينفذ بسرعة، وكان أي شخص يدرك ذلك بسهولة، وقد يرغب هذا الموقف على دخول المفاوضات، وقبل كل شيء أمام الرأي العام الإيحاء بأن ليس من الضرورة خوض الصراعات الدموية مع العناصر الانقلابية (الثورية). وكانت البرازيل تواجه الرأي العام العالمي بصمت جليدي، بعد الأنباء التي انتشرت عن قتل الهنود في مناطق الأمازون. وكانت الأوساط السياسية الرسمية قد أحيطت علماً بذلك، هذا بالإضافة إلى الاحتجاجات التي قام بها الأسقف هيلدر كامارا الذي أظهر في صلواته وأدعيته برازيل أخرى غير تلك التي يعرفها الرأي العام من خلال كرنفالات ريو على شاطئ كوباكابانا والاستعراضات المغرية التي تقوم بها النساء الجميلات.

كان قتل الهنود يمضي بصمت، فالأمازون كانت بعيدة، بعيدة جداً عن مائدة طعام بقية العالم، وكانت أزمة البترول أهم كثيراً إذ تمس كل واحد منهم، ومن أجل بضعة قبائل كانت تعيش في العصر الحجري أستئصلت، لم تبقى سوى أعداد بسيطة، وحتى نداء الأسقف هيلدر لم يحقق نجاحاً على الرغم من التشريف الذي ينطوي عليه كأسقف محترم. نعم كل ذلك سار بصورة جيدة، والآن يتعين تجديد طلاء صورة البرازيل، والخشية من خلال حرب الأخوة التي قد تندلع وتظهر وجهها الفضيع.

كانت المحادثات بين الضباط وممثلي الحكومة قد جرت في مقر الأركان، في بيت خشبي في قاعدة تأسست بالقرب من كيرس عندما جاءت القوات الجديدة وتمركزت في الخلف، كانت هناك خارطة معلقة على الجدار للمنطقة بين كيرس وريوبرازيليا، كان الطريق الجديد مؤشراً بلون أحمر سميك كالشریان، تؤشر المعسكرات المهمة، وهناك نقطة كبيرة مؤشرة أمام المعسكر الرئيسي.

" إنه مما لا شك فيه يا سادتي " قال العقيد في الأركان العامة للمجتمعين، بينما كان يشير بعصا الإشارة إلى سير امتداد الطريق " إن حادثة القتل التي وقعت على لويس جيزروس أريراس، كان اغتياً سياسياً، والبلاغات الواردة إلينا من العاصمة التي وضعها النقيب بيرابورت

واضحة ولا تدع لنا الخيارات، فإن ما مجموعه أربعة آلاف عامل ممن يعملون بشق الطريق يشكلون ضرباً من جيش للثورة. أما وحدة النخبة فهي تتمركز عند النقاط الأمامية للعمل، عند رتل المقدمة الذي يقطع الأشجار، والرتل الذي ينظف الطريق أمام الأعمال الأخرى. وقيادة هذه الوحدة بيد كارلوس جبهارت وهو ألماني الجنسية".

" هذا ما كان ينقصنا بالضبط " قال قائد كتيبة المظليين بلهجة جافة " ألماني ..! أهم موجودون دائماً".

" ويجب علي أن أخبركم " قال العقيد في الأركان العامة مبتسماً عندما أراد أن يطلب العذر والسماح " السيد جبهارت هو مدير فني (تكنيكي) ودوره في هذه الأحداث غير مباشر".

" ولكنه ليس أعمى، هل هناك تقارير منه؟".

" شكاوي بما يكفي " أبتسم ممثل الحكومة بخبث وقال " إنه رجل من هواة الكتابة".

" شكاوي ..! " اتكأ قائد الكتيبة على ظهر مقعده " بدون مؤشرات؟ إذن فلنعدده على قائمة المتعاطفين مع الثوار".

" دعونا لا نعص بقوة على هذا الألماني الذي لا حول ولا قوة".

مضى العقيد بعصاه المؤشرة على الخارطة " إن الأمر يدور عن شيء واحد، عن حركة خاطفة لخنق كل حركة انتفاضة واضحة، حركة لا تدع أحداً يلاحظها وإبعاد ممثلي الرأي العام، أنتم تعلمون أنه كانت هناك مسيرة احتجاج وملصقات، لافتات، نوات، آنذاك كان أريراس يتبجح في أنه يحول دونها، لدينا الآن مستوصف سيار أرسلناه إلى هناك " ومضى العقيد في عرضه المسهب " وقد عززنا الماخور بسبعة فتيات، وهناك خدمات أفضل في المخيم، ولكن ..."

ثم كان توقف طويل عن الحديث، ضرب بعصاه على الخارطة فأصدرت صوتاً .... تاك .. تاك ... تاك وكأنه صوت رشاش، وأستطرد " هذه الإجراءات كانت مهدئة ليس إلا، ولم تمس الجوهر. والآن يجب أن يكون هناك شيء آخر، والأوامر تنص: احتلال كافة المواقع الرئيسية المؤشرة بواسطة العسكريين، استخدام سلطة إصدار الأوامر من خلال الهيئة العسكرية، اعتقال كافة المحرضين، وسوف توزع عليكم حالياً قائمة بالأسماء، والعقوبات ستقرض من خلال محاكم عسكرية في المكان والموقع".

تطلع الضباط إلى بعضهم البعض - في المكان والموقع - فقد أدرك كل واحد منهم ماذا يعني في المكان والموقع، إنه يعني محاكم طوارئ.

" تسريح الدكتور سانتالوس " ومضى العقيد قائلاً .... كانت هذه مفاجئة حقيقية، وقائد الكتيبة الذي كان قد دعا مرة سنتالوس إلى شراب، أنحنى فوق الطاولة الطويلة.

" ترى ألا يخطئون هناك في برازيليا؟".

" لقد سجل الدكتور سانتالوس نصف العمال كمرضى".

وضع ممثل الحكومة ملفاً سميكاً فوق الطاولة " إنها حيلة بارعة ولا بد من الإقرار بذلك وتحت شعار المسؤولية الطبية توصل إلى إحداث الضجة في كل مشروع الطريق، وبالمناسبة، فإن النقيب بيرابورت لا يظن أن الدكتور سانتالوس، هو المسؤول الرئيسي عن الاضطرابات ".

" حتى بيرابورت يمكن أن يصاب بضربة شمس، بحق طبيب مثل سانتالوس "

" ألم يكن تشي غيفارا طبيباً ؟ "

صمت قائد الكتيبة، فهنا حجة لا توجد عليها إجابة.

نظر العقيد إلى الساعة " مساء اليوم، الساعة الثالثة سوف يتم احتلال كافة المواقع، إنكم سوف لن تصطدموا بأي مقاومة أيها الرائد، لا توجد أسلحة لدى العمال، حتى الوحدات التي تتولى الحماية من الحيوانات الوحشية ومن الهنود. يمكن توقع حدوث احتجاجات ولكن دون استخدام السلاح، هل لديكم أسئلة أخرى يا سادتي؟ "

بعد ساعة، قرع في وحدات المظليين في كيرس الإنذار وإجراءات الطوارئ الحربية.

\*\*\*\*\*

أنتهي عمل وردية الظهرية، وعادوا عبوراً فوق الجسر منهكين على المصاطب أما براكعة المطبخ كالحيوانات، غائري العيون بثياب مهلهلة، قمصان وسراويل فذرة وممزقة، فسقطوا على المصاطب المؤشرة عليها أماكن جلوسهم بأشياءهم الشخصية، ثم هرعوا وشكلوا طابوراً طويلاً أمام مكان توزيع الطعام، لم يكن الجيرا بينهم، ولم يعد يشاهد في أي مكان.

عاد جبهارت بعد انتهاء الوردية، وكان في مقدمة الرتل، وقد سيطر على الغيابات هناك، وقد أبلغه مراقبو العمل حوادث غير مهمة مثل حالتين أطلقوا فيها على بيرابورت كلمة (خادم مؤخرة الحكومة) وقد اعتقل بيرابورت كلا العاملان لهذا السبب بلا تردد وربطهما إلى سيارته.

ساعت الحالة بعد ذلك، كان الرجال يدمدمون، ولكن الغضب سخن بشدة.

كان جبهارت قد ذهب إلى بيرابورت لكي يروي له الحادثة، وكان الرجلان الموقوفان إلى إطار شباك السيارة الواقفة تحت الشمس في الطريق، قد جفت شفاهما، ولم يكن بوسعهما طرد الذباب الذي يحط في محاجر العينين، وكان غطاء أسود فوقهما، أغضب ذلك جبهارت وقال ذلك لبيرابورت الذي كان في أفضل أفاقته المعهودة، يقف فوق جذع شجرة مقطوعة ويصور العمال، صور لأجهزة الأمن، صور للتعرف، يصور كأنه يسجل أرشيفه الخاص.

" هل ستقطع رأس الرجال ؟ ". سأل جبهارت بغضب.

" أي رجال ؟ " سأل بيرابورت باستغراب.

" صورك الجديدة ؟ "

" إن مؤخرة أحدهم ساخنة " قال بيرابورت بعناية، ثم خفض آلة التصوير، هل دسست مرة مقياس الحرارة هناك، إنها كمعدل بين ستة وثلاثين إلى سبعة وثلاثين درجة، وإني أتفترض أنك سمعت لماذا كان علي اعتقالهما، والآن لديهم درجة حرارة مؤخرة الحكومة ."

" أطلق وثاق الرجلين حالاً " أمره جبهارت، وكان صوته يرتج من الغضب.

" لا أظن أنني سأفعل ذلك " قالها بيرابورت وضحك بحدة " أنت لا تعتقد طبعاً، بأني استلم الأوامر منك ! " .

" إذن، فإنني سأطلب من الحداد أن يفك قيودهما، فعندنا هنا ما يكفي من عمال الفولاذ ."

" سأعتبر هذه حركة غير ودية سيد كارلوس، ولكنك حر في إرسال برقية أو بلاغ"

" إنني سوف لن أكتب بلاغات بعد، سوف أعمل فقط ."

" الألمان يتعلمون بسرعة " قالها بيرابورت ورفع آلة التصوير بسرعة البرق وألتقط صورة لجهارة " ما يفتك بعد هو أنك بعد الساعات التعليمية لنورينا، أنك أصبحت ضمن ألبوم العائلة ."

" دع نورينا خارج اللعبة ."

" أنا لا أعطي الورقة الراححة من يدي سيد كارلوس، أنك تبخس قدرتي وقيمتي، في هذا الطريق، جرى تحريض العمال بصورة منظمة وتحت سيطرة تحريض العمال، وعندما انتهت الأعمال الأساسية، جاءت رؤوس التمرد، أحدهم يرتدي الزي العسكري للشرطة، وآخر في معطف طبي أبيض، وآخر في هيئة ملاك له شعر أسود. كلا .. لا تستغرب أن أقول لك هذا، الأشخاص الذين أقصدهم يعلمون بدقة بأني قد راقبتهم، وقد فات الزمن المحدد والموعود لتصفيتي، والآن سيكون مجرد اغتيال سهل لم يعد سهلاً ذا طابع وطني ."

" إنني أعجب فعلاً " رمق جبهارت بنظرة حيث كان سقوط الأشجار العملاقة يسمع كوقع البرق، فيما كانت أصوات المناشير الكهربائية وهي تنهش الخشب تسمع وكأنها النشيج " إنك تقف هنا وتصور ولا أحد يعلقك على أقرب شجرة ."

" أنت خائف " قال بيرابورت بشماتة " إنك لا تحمل السلاح ولكنك تعلم تماماً، بأن المتمردين يقفون خلفك على استعداد بأيدي عارية ضد رشاشات ..؟ وهنا سنتتهي الرغبة في الثورة .."

" وهل يمكن الاحتفاظ بالأمر هكذا، وكم سيطول ذلك ؟ " .

" حتى ريوار غوايا، بل وأطول " قالها وقفز بيرابورت إلى الأرض من جلسته فوق جذع الشجرة.

كان يبدو أنيقاً، متصنعاً بعض الشيء، يشبه الشاذين جنسياً، شعر جبهارت بالاشمئزاز، كان بوسعي أن أتقياً فكر في نفسه، ولكنه في نفس الوقت أدرك تراجيدياً هذا الصنف من الرجال،



الذين يأتون إلى الغابات يملون بمسئيل أفضل، وفي الوقت الحاضر، يحملون الأسلحة في لعب الشطرنج، وهو شكل جديد للعبودية، كان بانديرا على حق.

" هل لديك أسئلة بعد سيد كارلوس ؟ ". سأل بيرابورت.

" كلا، أريد إعلامي فقط عن مصير المعتقلين ؟ ".

" سأسجل هذا عندي؟ ".

.....

تحت وطأة شعور بالكراهية الشديدة، استدار جبهات ومضى في طريقه، وفي نهاية الوردية، كان بيرابورت والمعتقلان قد اختفوا، أخبر ذلك جبهات بانديرا الذي يبدو عليه الاضطراب بوضوح.

" ليس لديه أي سلطة باعتقال أي شخص " قال بانديرا وأردف " كانت وظيفة بيرابورت المراقبة فقط، وقد بلغنا عن ذلك " .

بعد ساعة عادت سيارة الخدمة التي أرسلها بانديرا مع ثلاثة من عناصر الشرطة إلى المقدمة وذهب إلى خيمة المستوصف. ألقى الدكتور سانتالوس نظرة على السيارة وعاد إلى الخيمة وهذا ما أثار بانديرا الذي خلع باب السيارة وبدأ يمزج، وكانت عناصر الوردية التي تناولت طعامها تواق قد بدأوا بالتدخين، فهرع صوبهم.

" بيرابورت يجب أن يكون هنا ! " صرخ بانديرا " من رأى بيرابورت ؟ إنني أضع ثلاثة آلاف كيروتسيروس لرأسه ! " .

أسرعت سيارتان للشرطة صوب النهر وعبرت الجسر المؤقت، وبدأت تسير على أرضية الغابة، إلى حيث تعمل مجاميع قطع الأشجار، كانت الأرض تنز تحت إطارات السيارة وكأنها تهتز تحت وطأة ضربات القنابل.

حمل أربعة عمال جثتين من السيارة إلى خيمة الإسعافات، وكان الرجلان المشوهان يعملان بمعية جبهات في مجموعة المحركات. كانت رأس الجثتان مسحوقة بفعل رصاصات في الرأس التي تحدد مسار الرصاصات إلى الأعلى، والرصاصات أطلقت على الرأس من الخلف مباشرة.

زم جبهات أسنانه وهو ينظر إلى القتيلين.

كانا ما يزالان يحملان آثار الأصفاد على المعصمين، وحتى في موتهما كانا مشدودان لبعضهما، كرمز لوضعهما وأوضاع رفاقهما.

" نحن هنا من أجل إعداد فاتورة ناعمة " قال د. سانتالوس بهدوء جليدي " أنت لديك قتيلان منا، إذن سأرسل أنا القتيلان منكم، تبقى مهمة واحدة مفتوحة، من سيأتي بدلاً عن أرياس " .

" سنسافر اليوم عائدين إلى كيرس " قال جبهارت، ومد يده إلى نورينا " خلال ساعة، صباحاً نحن في برازيليا، وبعد غد في ريو " .

\*\*\*\*\*

" وبعد يوم واحد في فرانكفورت ... " .

" لا ليس هكذا.... ! " قالتها وحررت يدها منه، وكانت عيناها السوداوان تبرقان " لا نستطيع بعد الفرار، حتى أنت شخصياً لم تعد تستطيع أن تفعل ذلك " .

" أنا رجل حر يا للعة " .

" سوف أجعلك تشاهد بنفسك كم أنت حر " .

فسحبته إلى الخيمة، ومرا بالقرب من د. سانتالوس الذي بدا عليه الإحراج، شددت على يد جبهارت وقادته إلى الغرفة الأولى المقسمة التي كان ينام فيها بيرابورت، خلال فتحة في جدار الخيمة خلف إحدى الدواليب التي تحتوي على المضادات الحيوية، على وقع الأزيز الخافت لمحرك جهاز التبريد، دخلا إلى مخزن مستحدث حيث تنتصب صناديق وأكياس وعلب كارتون وحاويات. وظلت نورينا واقفة " هل أبداً بترتيب الغرفة ؟ " قال جبهارت ساخراً.

" لحظة " قالت نورينا، ثم سحبت بضع صناديق فارغة جانباً، حيث بدا أمامهما باب خفي في الأرض، رفعته إلى الأعلى، وهنا سمع جبهارت أصوات دق، وصوت صفير ناعم وأخرى بصوت عال من خلال الحفرة التي ظهرت أمامه في الأرض بعد رفع الغطاء.

" محطة لاسلكي...! " قال يا للعة لقد عملتم بسرعة وسرية تامة " .

" لقد تدريبنا على هذا العمل، والهوائي في الأعلى بين الأشجار، نحن على ارتباط مع كافة المجاميع في البرازيل، كما أننا نستمتع إلى المواصلات اللاسلكية للجيش أيضاً " .

نظر جبهارت إلى الحفرة، فشاهد مدخلاً خشبياً بسيطاً يقود إلى الأعماق، الغرفة كانت صغيرة، تكفي لأربعة رجال على أكثر تقدير، وتسيل قطرات من الجدران التي وضعت ألواح الصناديق كتقوية لها، بحيث يقف المرء وكعب قدمه في الماء، وفي كل مكان توجد الأجهزة اللاسلكية، واثنان من الممرضين كانا يجلسان يرتديان الأحذية المطاطية الطويلة، على مقاعد صغيرة وقد وضعوا على رؤوسهم السماعات، تطلعوا إلى جبهارت، ثم عادوا للاهتمام بآلاتهم.

" ولماذا تعرضين هذه علي " قال بلهجة الاستسلام، وكان ذلك سؤالاً يحمل إجابته في طياته " أنتم جميعاً رائعون نورينا، أنتم تبصقون وهم لديهم المدافع " .

" يا أيها الملاك الذي لا يعلم شيئاً " وسحبت رأسه إليها وقبلته في عيونه فيما كان الرجلان اللذان يعملان على أجهزة اللاسلكي غير مكثرثان لما يدور حولهما " يجب أن نحب بعضنا بعضاً طالما ذلك ممكناً، إنني أشكر كل ساعة التي أقدر أن أقضيها معك، وعندما يبزغ النهار أتمنى أن يأتي الليل " .

لم تعد هناك بعد ليالي لهما .....

كانا بالكاد قد خرجا من الغرفة تحت الأرض، وجلسا في خيمة الطبيب يسريان الشاي، قرع الهاتف، أخذ د. سانتالوس السماعة في نفس اللحظة وصل بانديرا، ودخل الخيمة وجهاز اللاسلكي الصغير في يده.

" ستيفانو ..! " زمجر بأعلى درجات الانفعال.

" إني سمعت ذلك لتوي في غرفة اللاسلكي لقد بثوا كلمة السر: كارلوس ذهب يتمشى عند الضفة "

" ها هي واضحة تماماً " صرخ بانديرا " مباشرة من كيرس من بوابة المعسكر هناك يوجد أحد عناصر الشرطة التابعة لي ينظم السير. المظليون قد خرجوا، إجراءات الحرب ... ! " وقد شعر جبهارت بما يشبه الضربة الكهربائية " وماذا بعد .. ؟ " سأل.

" لقد تأخر الوقت جداً لتطير إلى فرانكفورت حبيبي " قبلت نورينا جبينه، وشعر بشفتيها وقد أصبحتا باردتين " أنتم لا تستطيعون ببساطة أن ... " قال بأضطراب

" نحن بالتأكيد لسنا في حرب، مظليون ضد عمال الغابات .. إنهم لا يستطيعون ببساطة .. ضد ناس عزل "

" أريد أن أقترح عليك كارلوس " قال سانتالوس بصوت هادئ، ولكن ينطوي على شيء من لهجة أمرة " أن تبقى في خيمة الأطباء، فقريباً سوف لن يكون هناك مكاناً آمناً، الصليب الأحمر على الجدار مهدئ نفسياً إذا ما أعتقد المرء بذلك، بانديرا، أعط إشارة الأنداز، على جميع الوجبات، جماعة المقدمة ينبغي أن تعود فوراً "

" إنهم يبحثون عن بيرابورت "

" إنه سيظهر في اللحظة المناسبة " أخذ سانتالوس كوب الشاي، لنورينا وأعادته فارغاً " هيا إذن ..! " قال بعدها " إن كتيبة المظليين في المقدمة في طريقها إلينا، خطأ، إنهم يبخسون قدرنا "

في الخارج كان عويل الصفارات يسمع، إنذار الكوارث الذي كان يمارس في التمارين الشهرية، يسمع اليوم بذعر من كل صوب. كان العمال يتراكمون نحو الساحة الرئيسية، وفي مرآب السيارات أدارت كافة الآليات محركاتها من أصغر السيارات: الجيب، إلى أضخم ما موجود من الآليات، التراكتور الثقيل وآليات أخرى كتلك التي تسير على السرفة (جنزير) كالدبابات.

فتح الممرضون المستوصف السيار، وكان الرجال يحملون الصناديق وعلب الكارتون، وتبع ذلك صناديق خشبية، ومن سيارات الحمل أخرجت صناديق أخرى فرشت على الأرض.

ومن موقع الأشعة والمختبر، معدات الضماد، التصوير، التصوير: أنتباه ..! سموم ..! أدوية ..!

صناديق وصناديق .....

ولكن عندما أزيحت الأغطية، وجد شيئاً آخر: بنادق، رشيشات (غدارات)، عتاد، مخزن عتاد الأسلحة، مسدسات، وكذلك أربعة رشاشات ثقيلة، ثلاثة خفيفة، ست قاذفات رمانات يدوية ومواد وعدد تفجير.

زمرة أخرى عادت الطوابير، رجال يقفون في صفوف، رجل خلف رجل، ولكنهم الآن لا يحملون عدة العمل، الآن يحصلون على أسلحة. وفي بركة المراقبين الذين كانوا يوصفون بأنهم معذبون للعمال، كانوا قد احتجزوا، ثم اقتيدوا عبر الساحة إلى سيارة حمل مغلقة (لوري).

ظهر باولو الجيرا مرة أخرى هنا، سمع جبهات صوته بين الجموع، على رأس مجموعته القتالية يعطي الأوامر. ثم الآليات الثقيلة والتراكتورات والرافعات والقاشطات تدب على الأرض.

ماذا كان مقابل ذلك ... كتيبة مظليين.

" الآن سوف تستيقظ البرازيل " هتفت نورينا لجبهات، كانت عيناها تشعان بالنصر اللامع " هل تفهم ذلك يا حبيبي " .

هز جبهات رأسه " أنا أفهم " قال بصوت منخفض " إن اليأس والخيال (الفتنازيا) توأمان ضريان " .

كان ضجيج الآليات الثقيلة التي كانت تتحرك طغت على صوته قبل أن تصل إلى نورينا.

الحياة أعطت لهم خمسة ساعات إضافية .....

جعلوا من المخيم قلعة..

لقد كان ذلك سهلاً، بناء متاريس إذ قطعوا أشجار الغابة العملاقة، واستخدموا المناشير، وعلى الطريق اللعين، العريض وضعوا الجذوع التي كانت مكدسة لغرض نقلها، جعلوا منها جداراً يستحيل قهره، واستخدموا كذلك بعض الآليات الثقيلة والخفيفة وجعلوا منها جداراً وعوائق استغلت كلها، وكدست فوق بعضها لتحصين القلعة.

وطوال ساعتين قام بانديرا بتفتيش هذه الإجراءات من تهيئة للعوائق، وعاد بنفس راضية إلى خيمة الأطباء، وفي غضون ذلك كانوا قد أموا هناك توزيع الأسلحة. وكانت نورينا وجبهارت جالسين على كراسي خفيفة فيما كان الدكتور سانتالوس يخبرهم عن بلاغات وأنباء من محطة اللاسلكي.

" حتى الدبابات لا تستطيع العبور " قال بانديرا بنبرة فخر وأشار إلى الخارج " الآن ستكون الغابة الملعونة صديقة لنا، فهذه الجذوع والأدغال أفضل من أي سياج وسوف لن يعيش من يريد عبور الجدار، بل أنها تحتل حتى القنابل من العيارات الثقيلة مثل قنابل بعض دبابات الهجوم الصغيرة " .

" إنهم سيزجون قوات المظليين " قال جبهارت بتأثر، فقد حاول للمرة الأخيرة أن يقنع نورينا، أن تذهب معه طالما أن ذلك ممكناً بعد، بمنديل أبيض يرفع في مقدمة السيارة يمكن العبور من خلال المواقع الحكومية.

" تخلى عن ذلك كارلوس " أجابت نورينا، ومسدت بيدها على وجهه الذي كان يطفح بالعرق.

كان الهواء متوقفاً ثقيلًا فوق الغابة، الشمس كانت متوهجة تمتص رطوبة النهار من الأرض والنباتات، وتحول التنفس إلى ضرب من العذاب، وكان كما لو أن رجلاً يعالج من الحرارة العالية، كانت الغابة تغطس في القتل والتعفن.

" في كل مكان من البلاد، وخلال ساعات فحسب، سوف تنتفض مجاميع من حركة التحرر " قالت نورينا.

نظر إليها جبهارت بعمق، كان إيمانها بالثورة العظيمة قد أهتز، وأدرك أن خيبة أمالها وأقوالها سيكون بلا قياس.

" أهذا ما تعتقدين ؟ " . قال لها.

أزاحت شعرها إلى الخلف وتوهجت عيناها السوداوتان من الإعجاب " لدينا اتصال لاسلكي مع سائر المجموعات الأخرى، إنهم بانتظار إشارة منا، في كل البرازيل وفي ساعة واحدة سيعلو الصوت: الحرية .. العدالة..! احترام الإنسانية " .

" سوف يطلق الجيش عليكم النار " .

" فيدل كاسترو لم يكن بحاجة إلى الجيش، كان بحاجة إلى الشعب فقط، ونحن أيضاً لدينا شعب ورائنا " .

" الشعب " قالها جبهارت ورمى ببصره هناك إلى جدار من الآليات الثقيلة شكلوا منها الحاجز الثالث متلاصقة ببعضها كجدار فولاذي، والذي كان مصبوغاً بألوان شتى، أحمر أو أصفر، جلس الرجال وعيونهم جامدة على العريض الخالي، طريقهم الذي شقوه بقوتهم، بعرقهم، بلعناتهم يضربون في هذه الغابة الهائلة، قدرهم ومصيرهم متراً متراً، الآن سيصبح ذلك رمزاً: الطريق إلى الحرية، الآن يحق للمرء أن يفخر بهم، اللعنة، لا أحد يشاهد أن الضفة الأخرى للنهر كلها تنتهي في الغابة، المستنقعات والأدغال، وأن هذا الشارع كان رمزاً سيئاً: إنه لم يكن يقود إلى الحرية، إنه يقود إلى لا شيء " .

" الشعب ..! " قال جبهارت، فيما كان الرجال يتراخضون من حوله، الدكتور سانتالوس كان يضع السماعة على رأسه يتحدث مع محطة أخرى عبر الميكرفون، النقيب بانديرا حمل سيارة الجيب التي كان يستخدمها بالرمانات اليدوية، ورشيشيين ودرع فولاذي " أنتم تعتمدون على الشعب حقاً ؟! " .

" أنا أعلم بماذا تفكر، قالتها نورينا وزمت شفيتها، وأصبح فمها الجميل عبارة، عن ندبة في وجهها الرائع " ولكن شعبنا يختلف عن شعبكم، إنه لا يندس ذليلاً تحت مؤخرة الأقوياء دائماً إنه ليس شعباناً أو خاملاً، شحبنا جائع، أتعلم أنت ما هو الجوع ؟ أنه مهم للثورة أكثر من عشر قنابل ذرية " .

.....  
جاءت صفارات الإنذار من مكان مرتفع، من الحواجز المنيعه، أخذ العمال يتراخضون إلى المقدمة تسلقوا الآليات والسيارات وصعدوا إلى المتراس الذي كان محصناً بأربعة طبقات من جذوع الأشجار العملاقة.

علق بانديرا رشيشه على صدره، ودخل إلى جبهارت " عليك أن تنزل إلى ملجأ محطة اللاسلكي كارلوس " وأضاف " إنك هنا في منتصف الطريق عندما تبدأ الحفلة سوف لن أستطيع حمايتك " .

" إنني سأكون حيث توجد نورينا " قال جبهارت بهدوء، وقرع بإصبعه على جبهة بانديرا .

" أنت واهم هذه ليست ثورتكم، إنها شقاء، وأنا آسف عليكم، ولكن كما تشاء " ونظر إلى نورينا التي كانت هي الأخرى قد تسلحت، وقد وضعت خوذة فولاذية على رأسها، فوق الخصلات السوداء، كانت تبدو غريبة الهيئة وتجلب الانتباه، فريدة وبعيدة عن الأنوثة، فقط كان صدرها يبدو بارزاً لضغط البلوزة الذي يذكر بجمالها الذي لا يقارن. " ما سأقوله الآن كارلوس هو غباء، على الرغم من ذلك سأقول لك: انتبهوا الآن على نورينا، إنها ستكون أشجع من الرجال هذه " عروس الثورة " إنها تتوهج بحيث أنك تستطيع أن تلهب الأرض بالنيران " .

" وأين ستكون أنت أيها النقيب ؟ "

إنني أبحث عن بيرابورت، إنه هنا في الجوار، إنني أحس به، والقيادة ستكون في كافة الأحوال بيد د. سانتالوس إنني هنا من أجل ضبط النظام ."

" بكلمات أخرى، إنك ستقوم بتصفيات، إنك تعد الاغتيال على أنه وسيلة شرعية للنضال ."

نظر بانديرا إلى جبهات بصمت، ثم رفع كتفيه وأبتسم ابتسامة بسيطة " المناقشة معك أمر لا معنى له " قال ذلك وأردف " نحن نعيش هنا في العالم الذي لا يوجد فيه سوى شئ واحد: أفترس قبل أن يفترسونك، وأنا أريد أن أكون في جانب أفترس، هل فهمت ؟ "

" جيد جداً " قالها جبهات ونهض.

\*\*\*\*\*

ذهبت نورينا إلى الدكتور سانتالوس في الجانب الآخر، ومن صوب الحواجز، وتناهى صوت نداء، كان صوت باولو الجيرا القوي من خلال مكبر صوت يزمر على الطريق: " لا تطلقوا النار، إنهم الرفاق من المعسكر الرئيسي، ساعدوهم ليتسلقوا الجدار، أهلاً بكم أيها الأصدقاء، الحرية للبرازيل ..!" " أصوات عديدة أجابت على النداء من كل مكان على المتراس، حمل جبهات رشاشاً من الأرض ورفعها عالياً. ابتسم بانديرا بخبت.....

" إنه من الممكن أن يكفك رأسك كارلوس إذا أرادوا اجتياحنا، الحب أقوى من القواعد الأخلاقية، ولكنه أبداً لن يكون وحشياً ."

" إنني أفترض أن المظليين سوف لن يطلبوا الإطلاع على جواز سفري قبل إطلاق النار علي ! "

" في هذا لك الحق " قالها بانديرا وتوجه نحو سيارة الجيب " لم أشأ أن أقولها صراحة بوجهك، وجيد أنك عرفتها بنفسك، وإذا ربطت الآن منديلاً أبيضاً على بطنك ولوحت بإحدى يديك وتذهب إلى كيرس، فلن يمسك ضير ."

" هيا أغرب من هنا وأبحث عن بيرابورت ! " قال جبهات بخشونة، إن ثورتكم ستمضي إلى الهاوية من كثرة الكلام ."

جاؤا بالسيارات، سيارات حمل تضم حوالي ثلاثمائة رجل وإمرأة، يغنون ويلوحون بالأعلام، ويصرخون بصوت واحد كما لو كانوا سكارى، وقد زينوا السيارات بعقود من الزهور وشرائط ملونة، فيما بدا كما لو أنهم ماضون إلى كرنفال وليس إلى معركة كبيرة سيسقط فيها قتلى كثيرون.

كل العاملون في المطعم والبار السيار، والسوق المتجول في سيارة لوري مكشوفة، العاهرات في صراخ ورقص، كان باص الماخور قد ترك المعسكر الرئيسي، ولكن المومسات جنن إلى هنا، إذ حتى في هذه الحالة يحتاج المرء إلى العاهرات، بعضهم كان ينزف، وآخرون يرتجفون هلعاً، كل حسب قدرة الذي كتب عليه أن يكونه.

باولو الجيرا الذي كان واقفاً على كرسي آلية ثقيلة (رافعة) شاهدها، لم يكن بالإمكان أن تفوته رؤيتها، كانت جالسة فوق جهاز تبريد سيارة الحمل، تلوح براية في يدها. أليا...! كانت ترتدي سروالاً رجالياً ممزقاً وسترة من كتان أزرق رخيص، وتضع حزامين للذخيرة يساراً ويميناً على كتفيها يتقاطعان فوق صدرها، كان وجهها يلمع، وكانت تنشد مع الأخريات. جمدت نظرات الجيرا من موقعه القيادي، فكر بحبه لها وفي كل الخطط التي فكرا بها معاً، بأشهر من العمل الحيواني في الطريق من أجل توفير كل كروسيروس لشراء قطعة الأرض والبيت، وفكر بالسيد الثري وأليا في سريره مرغمة، وفي البدين جيزوس أيراس الذي تحطم رأسه على الجدار.

" أليا " قال باولو بصوت منخفض، وسقطت يده الضخمة " يجب أن تعيشي، نحن نريد أن ننسى كل شيء، ولكن أولاً علينا أن ننظف الطاولة من الفتات ومساء اليوم سيكون عالمنا مختلفاً " .

أنحدر هابطاً من مكانه على الرافعة، وساعد على سحب القادمين في الصعود فوق المتراس الهائل، والآن كان هذا الحاجز قد أصبح أربعة أضعاف، فأمام الجدار المؤلف من الجنوع الضخمة للأشجار العملاقة، كانت تقف الآن السيارات التي جاء بها هؤلاء أيضاً من المعسكر الرئيسي وقد ربطت بعضها إلى بعض وصفت أمام الحاجز، وبين تهاليل العاهرات وتشجيعهن دفع باص المعسكر الرئيسي وكذلك صناديق وكل مستلزمات المطعم، تكومت كلها فوق الساتر.

" إنهم لا يستطيعون تجويعنا بعد أكثر " قال د.سنتالوس بارتياح لجبهات "وعندما ستهدر القنابل والمدفعية الثقيلة، سنكون قد أوقفنا شعله الحرية في كافة أرجاء الوطن، لا يمكن إيقافنا بعد، البرازيل قد أفقت " .

" تعالي إلى الأسفل " قال باولو الجيرا لأليا، وعندما أنزلها من فوق الحاجز وقبل عيناها، أرتجف جسده العملاق بأكمله، قبل شفيتها، وأحس بالحرارة نجاته، فأحتضن جسدها بين ذراعيه، هذا الجسد الذي يعود له فقط... يا سيد بولو .. إنني سأدفع لك ثمن هذه الليلة مع أليا. " عند النهر " قالها بصوت دافئ وقادها إلى الأمام " إلى داخل الغابة .. انتظريني حتى أعود لأخذك " .

" إلى أين أنت ذاهب ؟ " . سألته

" إنني على المتاريس " .

تطلعت إليه أليا، فقد رأته كبيراً، انتزعت الراية من العصا ولفت نفسها بها، الجيرا فهم ما تريد، فهز رأسه بوحشية.

" مؤكد " قالتها بصوت مرتفع " لقد أتفقنا على أن نفعل كل شيء معاً

كل شيء، فكر باولو، حقاً كل شيء ؟ إذن تعالي معي أليا حتى أقطع رأس بولو من بين كتفيه.



وضع ذراعه حولها وقبل جبينها وذهب معها حيث كان يصدر الأوامر من على مقعد قيادة الرافعة.

لم يكن الجيش على عجلة من أمره، وقد أفاد المراقبون أن الدكتور سانتالوس يعمل على جهاز الإرسال، أن رتل المشاة قد أوقف عشرة كيلومترات قبل المعسكر على الطريق الجديد، توقفوا لأستلام الطعام، كما دارت طائرة استطلاع مرتين عالياً فوق الغابة، صوت فيها المتاريس وكان لا فائدة من إطلاق النار عليها إذ كانت تحلق على ارتفاع شاهق.

لاحظ الدكتور سانتالوس الطائرات المدهونة باللون الرمادي، وسحب نفساً من سيكارتته بعصبية " إنهم يفحصون إمكانية استخدام المظليين هنا، قال ذلك لجبهات " إنهم لا يستطيعون ذلك، لا يرسل المظليون إلى أهداف كهذه، فالقسم الأكبر منهم سيتعلق بالأشجار، وسيسقطون في النهر حيث لا أمل لهم مع أسماك البيرانا، إن تحصيناتنا منيعة لا يستطيع أحد الدخول إلينا ".

" ولكن لا أحد منكم يستطيع الخروج منها أيضاً " قال جبهات " هذا هو الجانب الآخر، ماذا سمعتم عن الجامعات الأخرى من البلد ؟ هل أنظمت للثورة ؟ " .

" إنهم ينتظرون " قال سانتالوس.

" ماذا ينتظرون " .

" إشارة منا " .

" الحرية بضغط زر ؟ هكذا كما يشغل المرء مصباح منضدي ؟ " . قالها وتطلع جبهات إلى سنتالوس، فقد أدرك فجأة شيئاً، وظهر على أنفاسه، يا إلهي، إن كان ذلك حقيقة ! .. المثالي العظيم الذي سيكون في ساعات النصر أكثر البشر انعزلاً في هذا العالم. " قل لي الحقيقة دكتور " كان صوت جبهات خشناً " أنتم تقفون لوحكم، أليس كذلك ؟ ولا صوت من سائر الجامعات الأخرى، لا صوت منها، إنهم يقولون فقط أحسنتم، ولكنهم لا يفعلون شيئاً، إن الانتفاضة الشعبية العظيمة لم تحدث !.. " .

غطس رأس الدكتور سنتالوس، ففي هذه اللحظة كان قد أصبح إنساناً لم يعد بوسعه أن يفهم العالم، فقد تركوه وحيداً.. لماذا ..؟ هذا ما لم يكن المرء يدركه ببساطة، كيف للمرء أن يفهم الجبن، عندما يكون هو نفسه متعصباً ..؟

" ماذا الآن ؟ " سأل جبهات بصوت منخفض.

" لا تراجع كارلوس " .

" سلم نفسك للجيش قبل أن يبدأ القتال، هذا هو السبيل الوحيد " .

" بالنسبة لك كارلوس، هذه البلاد وهؤلاء البشر يختلفون عن الأوربيون، إنهم بحاجة إلى حماسة، إلى استشهاد ولا يوقظهم شيء آخر " .

" وأنتم تريدون أن تكونوا ذلك دكتور ؟ وهل هؤلاء البشر الذين تركوكم وحيدين، يستحقون ذلك ؟ "

" البرازيل تستحق ذلك " قالها د. سنتالوس ورفع رأسه إلى الأعلى، كانت لحظات الضعف قد ولت، " كارلوس هذه البلاد رائعة ولها مستقبل، ويجب أن يأتي الرجال الحقيقيون، ولا بد من الوقت، الكثير من الوقت "

ثم أخذ يقرأ بلاغات وأنباء جديدة واردة عبر اللاسلكي، ورقة قذرة مكتوب عليها بضعة سطور بخط سريع .

ساوباولو لم تكن ترد، ماناوس كانت صامته، ولم تكن هناك اتصالات مع المجاميع: الثانية، السادسة، الحادية عشر، الثانية والعشرين.

في العاصمة برازيليا: أدان دورياس فيستوس الحركة القائمة.

جعد د. سنتالوس الورقة التي كان فيها تصريح دورياس فيستوس، رجل الاتصالات مع الحكومة، وبدا أنه سيكون رئيس الوزراء الجديد.

لقد أدان إذن ..... فجأة أصبح العالم صغيراً، صغيراً بقدر شارع جديد في الغابة من كيرس حتى ريوار غوايا، طريق نصف منجز، وطريق عريض عبر الجحيم الأخضر، سبه منجز مثل كل الأشياء، فقط كان الشوق قد أنتهى بالكامل، ولكن الشوق ليس قوة واقعية، إنها لا تفجر القيود.

" سنقاتل " أعلن سنتالوس " إنهم لم يدعوا لنا خياراً آخر "

\*\*\*\*\*

عبر النقيب بانديرا النهر العريض ووصل إلى المقدمة حيث وصل عمل وحدات قطع الأشجار، وكانت مواقع العمل مهجورة من قبل العمال الذين تركوا العمل الآن، وكانت هناك جبال من جذوع الأشجار المقطوعة والأدغال والمتسلقات في أراضي لم تطأها أرجل الإنسان منذ آلاف السنين.

ركب بانديرا إحدى سيارات الجيب العائدة له، وقد وضع المسدس الرشاش على ركبته يراقب الثغرة التي أحدثها عمال قطع في الغابة، إنها ساحة تضم آلاف المخابئ، والإنسان حيال أمر هائل كهذا مثل نملة، وإذا كان بيرابورت قد اختبأ هنا ليراقب وينتظر نهاية القتال، ثم هو يعتقد بانتظار الحكومة، سيأتي بوصفه الباحث عن الثأر، وليس هناك أفضل من هذا المخبأ المنعش.

" هيا أخرج " زمجر بانديرا أمامه واضعاً اصبعه على زناد المسدس الرشاش، " أنت تراني بالتأكيد، أنا وحدي أبراهام بيرابورت، نحن لم نتقابل وجهاً لوجه لحد الآن، فقط يسمع أحدنا عن الآخر، أخيراً نلتقي في هذه الغابة الملعونة، إنه القدر، كان علي أن أقتلك فور قدومك إلى

هنا، وتلك كانت غلطة أن أوجل ذلك لما بعد المراقبة، كيف وماذا تفعل هنا ؟ ولكن الآن، ها قد سقط النرد، هيا أخرج إذن ..!".

وفجأة جمد في محله، لم يعد يسمع وقع أي خطوة أو قرقرة، فقط، الطيور فقط كانت تغرد في الغابة، ولكنها تفعل ذلك دائماً، وعلى الرغم من ذلك كان بيرابورت هنا، كما لو أنه كان طائراً.

ظل بانديرا جالساً بشكل منحرف وشدد قبضته على مسدسه الرشاش، يمني النفس بأنه لا يحتاج للرمي إلا تحريك إصبعه، كان قفاه قد تصلب وكأنه قطعة خشب، وابتدأ قلبه يقرع بسرعة، كيف بوسع كاتب أن يعرف رد فعل إنسان يحوم الموت حوله.

" نهارك سعيد نقيب باندير " قال بيرابورت مباشرة وكان صوته ينطوي على تهذيب كما هو شأنه دائماً " لا تستدير، وإلا فسأعتبره هجوماً، فإني أقف وراءك مباشرة ".

لامس قفا رأس بانديرا وكانت أنفاسه تلمح رقبة بانديرا باردة ثلجية، واستحال وجه النقيب إلى حجر.

" واحد لصفر بيرابورت، لقد كسبت " قالها بلهجة تهديد " ما لا يسرني هو فقط أنك جئت من الخلف، وهذا لا يليق بكرامة ضابط ".

" هل انتهجت السبل الشرعية دائماً ، وبالذات أنت دورياس ؟ ".

" نعم بالتأكيد ".

" الاغتيالات في ريوبرازيليا وكيرس وفي الطريق، هل تسمي هذه شرعية ؟ ".

" لقد تركنا بطاقة الزيارة الخاصة بنا ورائنا دائماً، وهذا يعني الفاعل معروف، كل أمرء يعرف من نحن ".

" كتيبة الموت، جلاو ما يسمى بالعدالة، الذراع الطويلة للعدالة النائمة ".

" العدالة الفاسدة يا أبراهام ".

" ولكنه يبقى قتل بانديرا ".

" إنها مسألة وجهة نظر، ولكننا في جميع الأحوال لم نكن نطلق النار من الخلف، وأنا أجد في ذلك ندالة منك بيرابورت ".

" إني سوف لن أطلق النار، بعد " لم يكن بوسع بانديرا أن ينظر أن السلاح المصوب إلى رأسه كان قد أنخفض، ولكنه أدرك ذلك دون أن يشاهده، على الرغم من أن لم تكن هناك مناسبة لهذا الشعور فبدت على فمه المطبق ابتسامة، وكان بالكاد يشعر بأصبعه على زناد المسدس الرشاش أن اللحظة الفضيعة الحاسمة ستكون لجانبي، فكر في نفسه، والآن علينا أن نتكلم .. ونتكلم، وكلما طال حديثنا، وكلما طالت أكثر حتى يشعر بأنني يمكن أن أكون أسرع منه.

" ماذا تريد بيرابورت ؟ ". سأله.

" أريد أن أعلم فيما إذا كنت فعلاً غيباً كبيراً كما يبدو عليك، أو فيما إذا كانت مثالياتك قد عكرت رؤيتك إلى الحقائق تماماً، إن ثورتكم هي قذارة كبيرة ".

" أنت لا تستطيع أن تحرفني عن تحفظي " أبتسم بانديرا بشماتة " اسمع يا بيرابورت، في غضون ساعة واحدة سوف تلهب الثورة في أربعة وثلاثين منطقة وموقع، لقد حل اليوم الكبير ..! "

" هل تريد أن أذكر لك أسماء الأربعة وثلاثين منطقة وموقع " كان صوت بيرابورت فيه شيء يقرب من الألم والمعاناة.

سحب بانديرا نفساً من بين أسنانه مغتاضاً " لا أصدقك ".

" أرغم القيام بثورة من دون تدخل العسكريين بالاعتماد فقط على الشعب، مع الكادحين والجياح والمستغلين، العناصر المسلوقة من الحقوق من الشعب، وهراء كهذا المرء يبني دولة ليس بالبطون الخاوية، بل بالحراب، هذه كانت غلطتك الأساسية ".

" كاسترو أيضاً لديه الشعب فقط .. " رد بانديرا بقسوة.

" وهل أنت مثل فيدل كاسترو، أبدأ دورياس أم أنت تريد مقارنة سنتالوس مع تشي غيفارا، كلاهما كان طبيياً ولكن الفرق بينهما شاسع، غيفارا كان مرتزقاً أكاديمياً، وسنتالوس توري متذوق للأدب، وهنا الإخفاق هو أمر مقرر قبل حدوثه، ماذا وجد كاسترو أمامه في كوبا، فمن جهة داخلياً كان الإقطاع عبارة عن كومة قاذورات، سيادة على البطون، أتريد بهذا أن تقارن البرازيل ؟ ".

" المشاكل هنا مختلفة " كان بانديرا يقرب إصبعه مليمتر بعد مليمتر من الزناد، نكلم أيها القدر، فكر في نفسه، تكلم فقط، أنت لديك رصاصة واحدة فقط في يدك، أما أنا فلدي مطر من الرصاص، لا يمكن أن أخطأك، تكلم .. تكلم " الظلم الاجتماعي، الحياة الحيوانية للهنود، الاغتيالات، سيادة وتسلط كبار أصحاب الأراضي، استغلال البلاد من خلال بضعة أثرياء مثل هيرمانو بولو، والآن فإن الشعب يجلس على الأرض ".

" هل هذا سيئ لكم " قال بيرابورت برزانة وعمق " إن العسكريين مخلصين للحكومة، وهذا وحده يشير إلى أنك وسنتالوس بشعارات وأفكار الحرية وعمال الطرق السكارى، أنكم وحيدون دورياس، كل الجامعات الأخرى تم اعتقالها أو إبادتها، البلاد كلها في هدوء تام باستثناء هذه البقعة من الغابة، ولم يبق أحد، لا أحد في العالم يا بانديرا، طريق حتى ارغوايا .. هناك ملايين لا يستطيعون بعد نطقها، هناك عمال قاموا بعصيان ؟ وماذا يعني ذلك ؟ لماذا يكتبون ذلك في الصحف أصلاً، هل يجب الإعلان عن كل ضربة ؟ هناك ما هو أهم من ذلك مثل زواج أليزابث تايلور (الممثلة الأمريكية) ". أحنى بيرابورت إلى الأمام بحيث شعر بانديرا بأنفاسه مرة أخرى على رقبتة " ولهذا لم ترد في الصحف دورياس الأحداث التي

جرت هنا، والتي لا يعرف عنها أحد، أنتم وأنصاركم تموتون مجهولين، هذا هو الأمر الرهيب لشخص وطني أليس كذلك؟..".

"وما هو أضعف هو الغباء" قال بانديرا بأسف "لقد خانونا".

"نعم هذا هو الأمر".

"لا يمكن خنق البركان بالدماء" قال بانديرا.

"أنتم لستم بركاناً يا بانديرا، أنتم نار صغيرة محزنة وسوف ندوس عليها ونطفئها، نار بدون دخان".

"نار!.. كم أنت محق يا أبراهام".

قام بانديرا بدورة سريعة، وفي نفس الوقت أطلق النار، رقص الرشيش في يده، وأسقط نفسه إلى الخلف، وقد أسند الرشيش إلى بطنه، وشاهد بيرابورت يقفز إلى الجانب أشبه بقفزة قط، أرتفع المسدس في يده وضغط، وشاهد كيف أن الرشقة الثانية من رصاصه أصابت بيرابورت وطوحت به بأرتعاشة واهتزاز، كأنه تعرض إلى هبوب ريح هائلة. وفي نفس الوقت شعر بأن حريقاً قد شب في صدره، وكيف أن الغابة أصبحت حمراء في نظره عندما أستلقي في شمس المساء الرائعة.

كانت ثوان فقط، ثم سقط الرشيش من يد بانديرا وتمدد بشعور الراحة وكأنه يتمدد في فراش ناعم، وكان بيرابورت ممداً عند قدميه فوق الإطار الاحتياطي لسيارة الجيب ينزف دماً من فمه، يا لها من لحظة سعيدة، فكر بانديرا، لتحميا الثورة!.. إلى الأبد يا برازيل... ستكونين سعيدة، ثم غطست الشمس الحمراء، كف دورياس بانديرا عن الحياة بشعور لا ينتهي من السعادة.

عشرة دقائق فقط انصرفت، جاءت سيارة جيب وبداخلها عناصر شرطة، كانوا يبحثون عن رئيسهم، ولكنهم جاؤا متأخرين، د. سنتالوس وجد الحل " ابحثوا عنه " هتف " فليس لدينا وقت من أجل خوض حروب خاصة عليه أن يعود فوراً " .

ما ذكره بيرابورت لبانديرا، وصلهم الآن عبر محطات اللاسلكي السرية المنتشرة في البلاد، لم تعد هناك منظمات ومجاميع أخرى في سائر مناطق البلاد، فالرجال في الطرق والحفر إنما يقفون وحيدين، ألفان من البشر، رجال ونساء مقطوعين عن كل شئ سوى طريق نصف منجز يمر في الغابات، ما زالوا يغنون بحماس، سوف يتعرضون للتصفية في غياب الرأي العام. لم يكونوا يعلمون بعد، كانوا ما يزالون يصدقون ويؤمنون بالثورة العظيمة في بركان حب الوطن.

" ماذا سنفعل دكتور ؟ " سأل جبهات بنفس مكسورة.

" نقاتل " صرخت نورينا سامازينا بوحشية " هل تعتقد أنهم يعرفون ويستطيعون الرحمة لو لوحنأ لهم بمناديل بيضاء ؟ " .

" سأذهب لملاقاتهم والتفاوض معهم " قال جبهات.

" إنهم سيستمعون لك ويكذبون عليك، ويبيدوننا على الرغم من ذلك " هز سنتالوس رأسه " يقف مقابلنا حوالي أربعمائة رجل سنحاول اكتساحهم ونوزع أنفسنا على مناطق البلاد، وهناك سنحاول بناء مجاميع جديدة حتى إحراز النصر الكبير " قالها سنتالوس مشيراً إلى الحواجز العملاقة " بوسعك دائماً الذهاب يا كارلوس " .

" سيكون من الأفضل لو أننا جميعاً ذهبنا كل إلى موقع عمله، إذا قام كل منا بعمله، وإذا رجع العسكريون على أعقابهم، هكذا كأن شيئاً لم يجري، فالأمر لا يعدو عن كونه مظهرة، ولكنه لن يستطيع أن يطلق علينا احد النار " .

" الأمر متأخر كارلوس " وأشار سنتالوس برأسه إلى الرجال الذين جاؤا من المعسكر الكبير، سواق سيارات المواصلات، عمال الورش، الخدم في المطعم، العاهرات، كل البشر من هذه الفئة. " لقد أنهوا كل أعمالهم وقد قتلوا كل من أستمع وأطاع لويس جيزوس ايراس " وعندما أبدى جبهات ارتياعه من فضاة العمل هز رأسه " الدم .. رحمة الثورة ! من كان يستطيع أن يمنع ذلك .. لا أحد " .

في الطريق ورد نبأ قدوم دراجة بخارية، توقف قرب العربات المرصوفة كحاجز، قفز خلاسي من على الدراجة وتركها على الأرض، ثم تسلق الحاجز، فامتدت إليه مجموعة من الأيدي لمساعدته وصرخ " إنهم قادمون، ومعهم أربعة مدافع خفيفة، وخلال نصف ساعة يمكن أن يشاهدوكم، إنهم حوالي مئة من جنود المظلات " .

" نصف ساعة " تطلع سنتالوس إلى ساعته " حتى ذلك الوقت يكون أيضاً بانديرا قد عاد مئة رجل فقط ؟ إنهم يبخسون قدرنا " .

استدار د. سنتالوس وأتجه صوب البراكات، لمح جبهات الذي يمسك نورينا بشدة التي كانت تريد أن تلحق به .

" إنه ليؤسفني " قال جبهات " أن لا يبقى من تلك الأفكار العظيمة، من كل ذلك الحب لبلاده، أمسى فارغ اليدين إلا من حفنة من الرجال المزمجرين، دعينا نتحدث معه، فبالإمكان التسلل عبر الغابة إلى القرى المجاورة، والاختفاء هناك هو وأنت وأنا " .

" من المستحيل أن يقبل بذلك " ورفعت يدها المبتلة بزيت السلاح، ولامست وجهه " ولكني أشكر كارليتو أنك قلت ذلك: هو وأنت وأنا "، ودفعت الخوذة الفولاذية إلى جبهتها، وقبضت على حزام الرصاص الذي يلف جسدها النحيل مرتين " إنني أحبك .. والآن أغلق فمك أو أطلق عليك النار " .

وصلت أول مجموعة من المظليين إلى مرمى البصر من الحاجز المقام على الطريق، واستقبلوا بالصراخ والزعيق والهتافات، ثم ابتدأ أحدهم بالغناء ثم شاركه الآخرون، وأنتهي الأمر بغناء جماعي يملأ حناجرهم بإنشاد أنشودة الثورة:

### تماسكوا بالأيدي ... كونوا أخوة ساعة الخطر

وقف د. سانتالوس مع جبهات ونورينا بين عناصر قبائل سكان الغابات، وأخذ يتطلع عبر منظار مكبر إلى مواقع جنود المظلات وقد وضعوا المدافع الأربعة مع اعتدتها في حالة التمرکز، دون الاعتبار أن رجال الثورة بما فيهم قاذفي الرماتات بوسعهم أن يصلوا بمديات أسلحتهم إلى المدافع، ولم يكن في الأمر سوى من يبدأ إطلاق النار أولاً.

" إنهم يعلمون بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا إلينا " قال سنتالوس بهدوء " ولا حتى بمدافعهم، إنهم يستطيعون إطلاق النار على السيارات والمعدات الموجودة في الحاجز، ولكن ذلك سوف لن يلحق الضرر بالحاجز بل سيزيده تماسكاً " .

" وأنتم تعلمون بأنكم سوف لن تستطيعوا النفاذ من هنا " قال جبهات لأنه أراد بذلك الوقوف ضد التطرف " هل ظل شيء بعد يجدي ؟ " .

من جموع الناس وجذوع الأشجار أنزلق الجيرا إليهم، كان يبدو مخيفاً، بوجهه العريض الذي كان يلعب من العرق " لقد قتلوا بانديرا " هتف قائلاً لسانتالوس.

" قتل ؟ " وقبض بقوة بيده على المنظار المكبر.

" هو وبيرابورت، قتل كل منهما الآخر " .

" ماذا تنتظرون بعد ؟ " قالها جبهات وأمسك بسنتالوس من كتفيه " هذه فرصتك دكتور، تفاوض مع العسكريين، نعم إن الأمر ينطوي على هزيمة، ولكن لديك الفرصة الآن بأن تضع

كل شيء على مسؤولية بانديرا، وإذا لم تكن لحياتك قيمة لديك، فكر في الآخرين، وفي النسوة هنا، في الآباء، .. بنورينا".

تنفس سنتالوس بعمق، كان الجيرا قد عاد وتسلق الحاجز وعاد صوته إلى الزمجرة، إلى غناء نشيد الثورة، كان يبدو وكأن نشوة الحماس تجتاح الناس، وكان الجنون قد اندلع وقد تناسوا كل ما هو معتقل، كانوا يتمددون، يصفقون، ويجلسون فوق الحاجز الرباعي السميكة معلقين على الآليات الثقيلة من رافعات وقاشطات وبلدوزرات، يلوحون بالأعلام المصنوعة من الملابس الممزقة، أو من أي خرق متوفرة، كانوا يغنون ويصرخون، كانت وجوههم تعبر عن احتفالهم وعن نصر كبير.

أشار سنتالوس بكلتا ذراعيه إلى الجموع " هل تستطيع أن توقف هؤلاء كارلوس؟ " سأل وأضاف " هل تصدق بعد الكلمات؟ لقد أشتعل البركان، دعه يندلع، إلى أن يتداعى نهائياً ".  
" وماذا عن الذين سيموتون؟ " صرخ جبهارت.

ورفع الطبيب كتفيه " إنهم متفوقون وبصوت واحد، بأن لم يعد هناك شيء أسمه الخوف من الموت، فالمرء يموت من الإعجاب والحماس أيضاً، وهذا ما لا يستطيع الأوروبيون إدراكه ".

على الطريق كانت سيارة جيب تقترب من المتاريس، وكانت تحمل علماً أبيض يرفرف على عمود خشبي، يجلس ضابط وسائق السيارة في المقدمة وقد ربط منديلاً أبيض اللون حول خوذته أيضاً.

" دعه يسير " زمجر الجيرا " لا تطلقوا النار، استمعوا ما سيقوله لنا هؤلاء الرجال القذرون " ثم صرخ موجهاً حديثه إلى سيارة الجيب " قفوا على بعد عشرة أمتار سنرسل لكم وفداً يمثلنا، لا تقوموا بحيل، أنتم يا من تلحسون مؤخرة الحكومة ".

توقفت سيارة الجيب، ترجل منها العقيد قائد الكتيبة، وتفحص الحاجز العملاق الذي يمثل اجتياحه جنون مطلق حتى بعد القصف المدفعي التمهيدي، ولكنه كان يمثل الشعور بالأمن لمن هم خلف الحواجز.

خفت الغناء والصراخ، ثم ساد الصمت فجأة، ومع الصمت عاد التعقل، أو حل وقت يتعرف فيه المرء على أن ساعات أو أيام الآلام قد ابتدأت.

كان باولو الجيرا يقف في الشارع ومضى ببطء نحو العقيد، وكان يمد يديه أمامه من أجل أن يظهر أنه غير مسلح، ثم توقف كل مقابل الآخر، تحادثا مع بعضهما، ثم افترقا بسرعة، وبخطوات قليلة عاد الجيرا.

" كانت محادثة قصيرة " قال جبهارت مستطعاً " هل رأيت لقد أوصل الضابط ورقة إلى باولو ".

إنه إنذار نهائي بالتأكيد " أبتسم سنتالوس بمرارة " المطالب بالإنذار لا يعرف سوى منتصر واحد، وخاسر واحد كارلوس، إن المفاوضات المنشودة التي ارتأيتها سوف لن تحدث ".



كان الجيرا قد أنزلق عن الساتر متوجهاً نحو الدكتور سنتالوس، وأوصل إليه الورقة، " إنه العقيد " قال له فيما كان يسلمه إياها " إنه خنزير متعجرف، قال لي: خذ هذه لقائتك، وليس لدي أكثر من ذلك لأعرضه، وقد قلت له: جيد وأنا أعرض لك أن يكون الشبان حذرين، وكل من يقترب من متاريننا سوف ندفع له حسابه ! " أبتمس الجيرا بشماتة وأضاف " ونحن كذلك ... أليس كذلك دكتور ؟ "

" صحيح تماماً " قال سنتالوس متعباً، وفتح الرسالة وبدأ يقرأها بصوت مرتفع " مع الأخذ بنظر الاعتبار أن العدد الأكبر من العصاة لا يعلمون شيئاً عن الأوضاع الحقيقية، نحن مستعدون بأسم الحكومة منح العفو العام للذين سوف يتواجدون عندنا حتى الساعة الثامنة مساءً من هذا اليوم وشروطنا هي أن الأشخاص التالية أسمائهم تسليم أنفسهم دون شروط: دورياس بانديرا، د. ستيفانو سنتالوس، باولو الجيرا، نورينا سامازينا، فيليب بافاو، كارلودو لكاو، بيدرو الماريا "

" إنهم سيحصلون على اثنين ! " صرخ الجيرا، وخطف الورقة من يد د. سنتالوس، تشبث بجبهات بنورينا، وكان وجهها الرائع قد غدا قاسياً، ولكنها لم تكن مرتبكة، وكان أسمها ضمن الأشخاص الذين عليهم تسليم أنفسهم دون شروط، أما معنى ذلك، فالأمر لا يحتاج إلى إيضاح.

هل ما زلت تعتقد كارلوس بالتفاوض ؟ " سأل سنتالوس بهدوء، وتطلع إلى الجيرا الذي عاد وتسلق المتراس مزمجراً واختفى بين الآليات الثقيلة المرصوفة هناك، وأضاف " هل تتوقع بأننا سوف نقاد كالخراف إلى المجزرة ؟ في الغابة هنا لا توجد اتفاقيات جنيف التي تحاول أن تجعل الحر إنسانية، هنا سيلقى القبض عليك وتحاكم وتقتل، وليس أكثر من ذلك "

أمامهم، في الصف الأول وأمام المتارين، حيث سيارة الشحن (لوري) والباص المقلوب وحفارة التربة، بدأ بلدوزر بالحركة، وارتفعت الذراع الحديدية ثم غطست في الطريق، وعلى ارتفاع متر فوق الأرض وقذفت أسنان البلدوزر الحديدية بجسدين ارتطما فوق الطريق وضلا فوق بعضهما متداخلين من الأذرع والأرجل.

باندير وبيرابورت

" كلاهما جاء متطوعاً ! " زمجر الجيرا " والآخرين عليكم أنتم رفعهم "

ألقي العقيد ببصره على الجثتين، استدار بحدة وصعد إلى سيارة الجيب، ودارت السيارة ومضت تهتز فوق الأرض المليئة بالحفر ترافقها صيحات ألف صوت، ثم عادوا إلى الغناء يلوحون بالأعلام والخوذ، وعاد الصوت من فوق المتارين الخضراء ذات الجذوع العملاقة المقطوعة من الغابة تدوي:

**تماسكوا بالأيادي ... كونوا أخوة ساعة الخطر**

" تعال " قالت نورينا بهدوء وأمسكت بيد جبهات " تعال معي " فقد كانت لحظة حب رزينة ومؤثرة " أريد أن أشعر بك مرة أخرى في الساعة الثامنة ستبدأ معزوفة الموت "

جلسا إلى جانب بعضهما البعض على السرير يدخان سيكارتهم الأخيرة ويعيشان معاناتهما هذه ولكن نورينا كانت تبدو وكأن الموت يشبه شرب الشاي، أو عملية شراء خبز من الحانوت،

بل حتى نبرة صوتها لم تتغير، فيما بدا على جبهات شعوره بالضيق والعذاب في أنفاسه، إنني لست بطلاً، فكر في نفسه، إنني إنسان عادي تماماً وحساس، ولكني خائف من الموت، ليس على نفسي، فالأمر يبدو لي أنه ليس فظيماً جداً، ولكن فكرة أن أشاهد نورينا في الساعات الأخيرة القادمة تنزف دماً هنا على أرض الغابة تمنعني عن الفهم. لماذا لا تخاف هي؟ هل هي هكذا حقاً إنسانة تختلف عنا؟ يا إلهي إنها امرأة... بل أروع امرأة شاهدتها، إنها امرأة صلبة في الحياة والحب، وإن فكرة الموت في الواقع لا تنطوي على أي ألم بالنسبة لها ولكنها ماذا تفعل؟..

إنها جالسة بكل هدوء هنا، تدخن سكاثرها، تمسك بيدها على جسدي، قالت لي " كارليتو لقد كنت معك سعيدة حقاً، ما هي السعادة؟ المرء لا يسعه إيضاح ذلك، إنها كبيرة بحيث لا توجد كلمات تصفها " كانت تواصل التدخين بهدوء وتتنظر الإشارة من المتاريس.

أيها الأخوة والأخوات.....لتحيا البرازيل

كانت ساعة حب رقيقة غير مقصودة قد مضت وانقضت. لم تكن كلماتها الوحشية الأولى، وليس بذلك النهم الذي كان يتركهم مقطوعي الأنفاس، ليس بذلك الخلط الفتان بين الحيوانية والرغبات المنطلقة المحطمة عن امرأة في حالة أشبه بالتنويم المغناطيسي تلك الساعات التي كانت تمر وتنسب بسرعة، الساعات الأخيرة كانت هادئة بين عاشقين يتمتعان بجسديهما كما لو يشرب المرء صنفاً ثقيلاً من أصناف النبيذ، تسامي وتجلي واكتشاف وتقصي تذوقها كلاهما حتى النشوة، دون استعجال دون إزعاج للذات بأفعال خارجة عن السيطرة، شخصان امتلأنا تماماً بشعور الفرح والسعادة.

مرة أخرى في البيت / الكوخ، على السرير الضيق المغبر الذي تسوده الفوضى، حيث تضيق انفاسهما بهواء الغابة العفن .

" أهرب " قالت نورينا عندما كانا مستلقين على السرير والعرق يغطي جسديهما الملتصقين " يا حبيبي، أهرب، أخرج من هنا ببساطة، رجاء أهرب، إنهم لن يطلقوا عليك، أهرب إذا كنت تحبني "

" فقط معك ... نورينا " قال.

تطلعت إليه بنظرة سريعة، وبعد لحظة جلست ومدت يدها إلى علبة السكاثر التي كانت فوق المنضدة، أخذت واحدة وأشعلتها ووضعها بين شفثيها " سوف لن نتكلم عن ذلك بعد الآن " ووضعت السيكارا المشتعلة بين شفثيه.

ها هما يجلسان الآن على السرير، ينظران إلى أرضية الغرفة المغبرة القذرة يدخنا بصمت، لم تعد هناك كلمة. ماذا يتعين على المرء أن يقول بعد؟ لم يعد لأي شيء معنى .. الحياة والموت.

\*\*\*\*\*

إطلاق للنار جاء مفاجئاً ودون إنذار مسبق، كان صوت الرمي يسمع بعمق في كافة الأرجاء، كانت ترن بوضوح في الهواء وترتطم بحديد الآليات، كان مدى الرصاص والأعصاب الممزقة يختلط بصوت المعادن وتختلط معها.

هبت نورينا واقفة، أحاطها جبهات بذراعيه وأمسك بها بقوة، تصلب جسدها العاري وأحس كيف توترت عضلاتها تحت أصابع يديه " لقد بدأوا " قالت.

" مدفعية ! ماذا سيفعلون ضد مدافع الدبابات ؟ إنهم يطلقون النار من مديات آمنة بالنسبة لهم ".  
" ولكن ليس لمثل هذه المتاريس "

" وحتى هذه المتاريس، يا للعنة، لديهم من العتاد ما يكفي لإطلاق النار عليكم لمدة أسبوع، بل شهر كامل، حتى يمتلأ المكان بظروف القنابل الفارغة، لم يبق لكم من سبيل سوى الموت "

" إذن فلنمت كارليتو، دعني على الأقل أرتدي ثيابي، أريد أن أكون هناك "

أفلتت من يده، وارتدت سروالها الأزرق الضيق والبلوزة وعصت شعرها الأسود الطويل، ووضعت الخوذة على رأسها، وأخذت مسدسها الرشاش، وأخذت تنظر إلى جبهات الذي كان لما يزل عارياً جالساً على حافة السرير.

" أبق هنا " قالت له بهدوء، وهناك على سطح الغرفة منشفة يد بيضاء كبيرة، دسها وخباها د. سنثالوس بينما كنا نمارس الحب، سوف لن يحدث لك شيء، ولكن لا تخرج من البيت "

عادت إلى الخلف، ووصلت إلى الباب ودفعت الرشيش أمامها " كارليتو، أبق جالساً هنا، وإذا أردت أن تنظر إلى المتاريس في الأمام، سوف أطلق عليك النار في قدمك وأجعلهم يحملوك عائدين بك إلى غرفتك، يجب أن تعيش كارليتو، عش يا حبيبي "

" نورينا " ولكن صيحته لم تذهب إلى مدى أبعد من غرفته، وأستغرب هو بالذات لهزالة صوته، قفز واقفاً، ولكن نورينا كانت قد خرجت وأغلقت الباب وأخذت تعدو بسرعة، كان صراخ الجرحى يسمع من بين أصوات الانفجاريات والأرض تهتز وكأنها ترتجف، ومن خلال الباب المفتوح شاهد جبهات كيف أن إحدى الأشجار تمزقت إرباً عندما أصابت قنبلة منتصف جذع الشجرة، مطر من شظايا الخشب أنهم، أغصان وفروع تساقطت على رؤوس الرجال في المتاريس.

الجرحى والقتلى الأوائل حملوا إلى المستوصف، ولم يتم علاج الجرحى، بل أرقدوا بجانب بعضهم على الأرض، ثم يعود الذين يحملونهم راكضين إلى المتاريس.

ارتدى جبهات ملبسه بسرعة، وأنتظر دقيقة لم تكن بينها فذائف القنابل تتساقط فيها بكثافة، ثم أنطلق راكضاً وأخذ خوذة أحد القتلى من أمام المستوصف، وكذلك مسدس رشاش، وأسرع صوب المتاريس وبين بقايا بلدوزر محطم، التقى بباولو أليجيرا الذي كان راقداً في حفرة أحدثتها قنبلة، يكاد يصعب التعرف عليه من القذارة، ولكن جسده الضخم كان يعرف عليه، وإلى جانبه كانت ترقد آليا صغيرة ونحيلة، سقطت جبهات في الحفرة بالقرب من الجيرا.

" ماذا تريد هنا سيد كارلوس ؟ ". قال الجيرا بصوت مرتفع " هل تبحث عن شيء " .

" من يصدر الأوامر هنا باولو ؟ " صرخ جبهارت " من هو رئيس المجموعة الأمامية هنا ؟ " .

" لم تعد هناك مجموعة، هناك برازيليون فقط، وتلك هي قضيتنا، إن الأمر لا يخصكم أنتم الألمان، أذهب من هنا، وخذ ألياً معك، هذه الفتاة مجنونة، إنها ملتصقة بي ولا تريد أن تنتزع عني " .

" لا تجازف أن تلمسني سيد " قالت ألياً، ثم استدارت جانباً وكان وجهها الطفولي ولها غمزة في زاوية فمها.

" لا أعلم ماذا أفعل معها " قال الجيرا بلهجة شكوى " لا أستطيع أن أضربها وهي فاقدة الوعي " .

" وهذا أيضاً لا يفيد، إني سأعود وأستفيق، كان عليك أن تطلق علي النار " قالت ألياً.

" هذا ما ستكفل به الآخرون " قال الجيرا، وأخفض جبهارت رأسه إذ انهمرت موجة جديدة من القنابل ضربت المتراس، وقذفت إلى الهواء بأجساد بشر، فتضاعف الصراخ " هذا جنون مؤكد ! " صرخ جبهارت.

" جنون ..... أين نورينا " .

" عند سنثالوس، هناك في المقدمة " .

تساقطت القنابل وراء الباص المقلوب على إحدى جانبيه، وعلى المقاتلين أيضاً، كان الدفاع ضعيفاً، كمثل الدفاع بقبضة اليد ضد درع الدبابة، لم جبهات ساقيه لكي يقفز، ضغط الجيرا بكفه الكبيرة لكي يسحب جبهارت.

" إنك لا تريد بالطبع أن تذهب إليهم أليس كذلك ؟ " .

" طبعاً " .

ثم بدأت موجة جديدة من القنابل أنهت المحادثة، وعلى الفور انطلقت من المتراس الأمامي في ثلاث بنادق. قفز الجيرا وعندما أراد جبهارت أن يلحق به، ركل الألماني على ظهره، قفز الجيرا " أبق مستلقياً، إنهم بدؤوا الهجوم، وأخيراً سوف نحصل عليهم أمام فوهاتنا، ستجعلهم يتعجبون من أمرنا " .

وأخذ يعدو بين أنقاض الحديد منحنياً حول كومة الأخشاب المشتعلة ثانية واحدة ترددت ألياً، ثم وثبتت مسرعة كالقطة من الحفرة ولحقت بباولو الجيرا.

رفع جبهارت نفسه ببطء، كانت ركلة الجيرا مؤلمة تقريباً، وكأنه ثوراً سحق عموده الفقري، وكأنه يشعر بدوخة إلا أنه استطاع أن يجد لنفسه طريقاً، ركض خلف باولو الجيرا، ولكن بعد خطوات قليلة سقط خلف جذع شجرة ضخمة عندما سمع أزيز الرصاص من حوله يتطاير.

هجم جنود المظلات يركضون كما في المناورات، هجوماً وكأنه تطبيق لتعاليم مدرسية، أمامهم ولحمايتهم تسيير دبابات والجنود يرتدون ملابس خضر ذات بقع مموهة.

توقف الهجوم عند أول متراس، وكان بانديرا وستالوس قد أقاما هذا الحاجز بدقة، وكلما أطلقوا النار عليه، كلما غدا صعباً لرجال المظلات اجتيازه، وللدبابات أيضاً، فقد كونت الآليات الثقيلة جداراً فولاذياً عملاقاً قادراً على رد الدروع، فقد كان الهجوم في هذه النقطة غير مجدياً.

والآن ابتدأ الرمي بالقنابل بين المتاريس في رماية مباشرة، وهنا حدث تبادل مواقع إذ انسحب رجال المظلات إلى الخلف إلى مواقع ضمن المدى الآمن، كما أصاب أحد رماة القنابل برج دبابة متقدمة، فألقت بالجنود الجالسين على ظهرها إلى الأرض، وخرج دخان كثيف أسود من الدبابة، وكانت إصابة بالصدفة.

تصاعد هتاف العمال في المتاريس، وزمجروا، ثم بدؤا الغناء مرة أخرى، بأنشاد أناشيد الحرية وكان ذلك بالنسبة لهم تحرر من الضغوط الداخلية الذي يقترب منهم، وقد أنقذهم هذا الحادث لفترة قصيرة من هذا الشعور.

عاد جبهات إلى المستوصف السيار، وكان الدكتور سنتالوس ونورينا وأربعة ممرضين قد باشروا العمل، وكان الجرحى يتوافدون على تناول العلاج كما لو كانوا يسيرون على حزام أو شريط نقال واحداً بعد الآخر، وكان الدكتور سنتالوس يعمل ونصفه الأعلى عار تغطي وجهه، فقط يدها كانتا نظيفتين، فقد حرص على غسلهما قبل البدء بالعمل ووضعهما في محلول معقم، وكان أغلب الجرحى في وضع لا تجدي مساعدتهم، من بينهم ثلاثة وفاتهم مؤكدة ! فقام أحد الممرضين بإعطائهم جرعة من حقنة كبيرة، شاهد جبهات ذلك بفزع ظاهر وهو متمسك بعمود الخيمة، فقد كان ما يزال يشعر بفرصة الجيرا.

لا بد أنها ألحقت الضرر ببعض الأعصاب، فكر جبهات، ترى كم يستغرق ذلك بعد أن أصبح مشلولاً بصفة تامة ؟

" هل هذا فن طبي " قال وهو متعب.

شاهد الدكتور سنتالوس والسؤال يلوح على محياه فسأله " ما بك ؟ " .

" هذه رحمة، أنها حل " .

" من وجهة نظرك، أنتم لا تفعلون في واقع الأمر سوى الجنون في خوضكم هذا القتال ! " .

" لم يبق لدينا خيار آخر سيد كارلوس " فتح الدكتور سنتالوس جرحاً كبيراً وأخرج منه شظية قنبلة من فخذ أحد الجرحى، ودفع المريض إلى أحد المساعدين الذين واصل متطلبات علاج الجرح، وإلى جانب سنتالوس على طاولة أخرى، كانت نورينا تعمل وذراعها ملوثتان بالدماء حتى المرفقين، وكانت هي الأخرى مثل سنتالوس تعمل بيديها دون ارتداء القفازات، ولماذا يحتاج المرء الآن استخدام وقاية مطاطية ؟ لم تنظر إلى جبهات، ولكنها كانت تعلم بوجوده بالقرب منها وتتنبه لكل كلمة.

" أما زلت تعتقد بإمكانية استسلام شريفة ؟ " سأل سنتالوس.

" نعم " أجاب جبهارت.

" كم هي قليلة معرفتك للحقيقة، إنهم سوف يوعدوك، وعندما تخرج من هنا بأذرع مرفوعة إلى الأعلى، سيطلقون عليك النار كالأرانب ومن سيهتم بذلك ؟ بل من سيعلم بذلك ؟ ومن سيتحرك كرد فعل على ذلك ؟ ما يسمى بالعالم ؟ إنه سيان ما يجري هنا وسط الغابات الأزلية، احتجاجات ؟ الأمم المتحدة ؟ مؤتمرات حقوق الإنسان ؟ هذه كلها بالتأكيد أشياء لا تساعد أحداً، والآن قم وأغسل يديك وساعد نورينا بالأهتمام بالجرحي، فالوقوف هنا وهناك مبعثاً شئياً لا أطيعه " .

ظلوا يعملون حتى ما بعد منتصف الليل، كان الطريق أمام المتاريس قد تحول إلى نهار بفعل أنوار الكشافات، ولكن المظليين لم يعودوا يقتربون، ولكن وحدة أستطلاع تموضعت إلى جانب الطريق في الغابة وأخذت تراقب المتاريس، كان شيئاً غير مألوفاً، ذلك هو السكون المطبق المحيط بالجميع، حتى الطيور التي تغرد عادة بالآلاف، هربت من الصمت المطبق المخيف للغابة .

" تسعة وسبعون جريحاً وثلاثة وأربعون قتيلاً " قال د. سنتالوس عندما حمل الجريح الأخير الذي كانت أحشائه مفتوحة وظاهرة، " كنت أقدر أكثر من ذلك على حسابات حفلة القصف وإطلاق النار " .

جلس على حافة طاولة قابلة للطي، وطلب من أحد المرضين سيكارة وقدح من الكونياك، فيما أسنلت نورينا على السرير متعبة في آخر الخيمة، كانت ترتدي بلوزة مفتوحة الصدر، وأصل د. سنتالوس كأس الكونياك إلى جبهارت، كان الألماني يهز رأسه بصمت.

" عندما تهدأ سيد كارلوس " قال سنتالوس " سأقدم لك خبراً، إن أربعة وحدات، كل مؤلفة من أربعة رجال في الطريق الآن لأجل طلب المساعدة من الخارج، وهم سوف يتسللون عبر الغابة، ثم أنهم مع أصدقاء لنا سيقومون بعمليات ضد مؤخرة القوات بتكتيكات حرب العصابات، أضرب وأختف، يبيد ثم يختفي، وإذا صمدنا هنا بضعة أيام سيبدو الوضع بشكل مختلف، حتى الآن كنت نتكلم فقط والآن سوف نتعامل، وهذا وحده سيقنع " .

" تقول ذلك كمؤمن د سنتالوس " قالها جبهارت، وأخذ كأس الكونياك وأحتساه " إنك قد أطلقت علي أسم الحالم، إنني أعتقد أن في الخيمة هنا، حالم آخر كبير " .

حوالي الساعة الرابعة صباحاً، تأكدت ظنون جبهارت، إثنان من المجموعات الأربعة التي خرجت، عادت إلى المعسكر، فقد اصطدموا في وسط الغابة مع جنود المظلات وعادوا إلى المعسكر بدون قتال من أجل أن لا يظهروا للأعداء أنهم اكتشفوا.

" إنهم يرمون علينا من الغابة بقوس كبير " قال أحد الرجال " صباحاً سيقومون بمهاجمتنا من الخلف ويأتون عبر النهر من الجوانب، إنهم الآن يطوقوننا " .

" قوموا بتخريب الجسر على النهر " أمر د. سنتالوس بهدوء.

" حالاً، سوف لن يعبروا النهر، مئتان من الرجل على الضفة سيقومون بقبر المحاولة ".  
" إنكم لن تصمدوا أكثر من يومين " قال جبهارت.  
" الآن سنصمد أكثر " قال سننالوس مبتسماً بأزدياء " شيء واحد نحن على ثقة منه، إنهم سوف لن يستطيعوا أن يطلقوا القنابل دون أن يصيبوا قواتهم، كنت خائفاً من القنابل ".  
جمدت نظرات جبهارت عليه غير مصدق " يا إلهي " قال بصوت منخفض " أنت نائم مغناطيسياً بكلماتك أنت ".  
وقف سننالوس وتمطى " إذن طوبى لمن يستطيع " أجاب، ودفع نورينا واستلقى بجانبها على السرير " لا تخافي " قال لها فيما هو يستلقي قربها " سوف لن ألمسك، أريد فقط أن أنام فقط ".

أستمر الموت خمسة أيام .....

خمس أيام استمرت قنابل الدبابات تطرق على المتاريس، كان العمال فيها يرممون الحواجز، وينقلون الرجال الممزقة أحشائهم، كانوا يقصفون حافات الغابة وقد أصابت القنابل إصابات مباشرة وأبادت العاهرات من ماخور المعسكر الرئيسي اللاتي كن قد اختبئن في ملجأ مغطى بجذوع الأشجار الضخمة، أصابت القنابل المحيط البعيد للأشجار وتسبب باندلاع حريق وتساقت جمراتها على العمال وقطع عليهم أنفاسهم.

خمس أيام أستمر فيها الموت دون انقطاع، خمس أيام بطولها زمجر الجحيم وإذا كانت المدافع تصمت لالتقاط الأنفاس، ومن أجل تبريد سبطانات المدافع، يزحف فيها الرجال من بين أنقاض المتاريس والملاجئ والحواجز ويبدأون بالغناء .

كان الدكتور سنتالوس ونورينا يجرون العمليات في فترات إيقاف القصف، جبهات لم يكن يفهم، كأن هناك أعجوبة تحميهم، وبينما كانت الأحشاء تتمزق هنا حوله، كان الدم الوحيد الذي يسيل هو دماء الآخرين، كان شيئاً لا يفهم.

" الآن يقصفون بالنابالم " قال د. سنتالوس، عندما بدأت المتاريس والغابة بالاشتعال، وكان أحداً قد سكب عليها النفط ، لقد قلت لكم أنهم خنازير، والإنسانية هي فقط كلمة للتبريح والضحك " .

كان المظليون قد احتلوا النهر من كل جوانبه، ولكنهم لم يعبروه، وكان الجسر المؤقت قد تم تقديره في الوقت المناسب، وفي كلا الجانبين يكمن العمال وجنود المظلات مقابل بعضهما، كان قتال رجل لرجل يدور بوحشية بلا رحمة. هنا كانت كل حركة أي صوت، أي قرعة تحسب عدواً، وبالتالي الموت الأكيد، ولكن هنا كان القتال الفردي قد حسم، وهذا ما عرضه سنتالوس إذ وصل الجنود إلى الطريق والمعسكر، كان الأمر أشبه بالقبضة الحديدية لا مقاومة أمامهم.

" مجموعتان قد شقت طريقها " قال سنتالوس ليلة اليوم الخامس للمعركة، " لقد أعطوا أمراً بالاسلحى استلمناه بأجهزتنا، إنهم في كيرس، الهيجان في المدينة هائل وعلى الرغم من التعنيم الإعلامي التام، فإن تقارير عن نضالنا قد وصلت إلى الخارج، وصحف العالم كلها تكتب عنه، إذن فالأمر ليس عبثاً " .

شعر جبهات في هذه الدقائق بألم عميق على سنتالوس، أنه يحسب تأثير مقالات الصحف كما لو أنه ستغير العالم، إنه كان يتحدث بأن نضالهم لوحدهم سيكون بمثابة إشارة وفي ذلك، فإنه يعلم بدقة بأن مشاهدة لعبة كرة قدم غداً ستكون أكثر أهمية من موت ألفين رجل في طريق يمر عبر غابة غير معروفة وسط أدغال البرازيل.

" هل ستحصل على إسناد من الخارج ؟ " سأل جبهات " هل هناك انتفاضة شعبية ؟ " .



نظر د. سنتالوس إلى جبهات بعينون متعبة " أنا أعلم ماذا تريد أن تسمع الآن، وسوف تسمعه: كلا، هناك فقط أعمال فردية ولكن عندما تحدث الانتفاضة العظمى سنكون نحن القدوة ".

" وهل يستحق ذلك، الموت هكذا بعذاب ؟ "

" نعم، فبدون نموذج لا توجد هناك ثورة، هل كانت ستوجد مسيحية بدون مسيح معلق على الصليب، حول أي نموذج يتجمهر الناس، إذا لم يكن هناك صليب ؟ "

" وهل تريد أن تكون صليب البرازيل .. ؟ "

" نحن جميعاً هنا " وقام د. سنتالوس بإشارة كبيرة من يده، " يعلم كل أمرء ذلك، ولهذا يصمد، إنهم سيكونون سعداء بأنهم يستطيعون خدمة وطنهم، أليس صحيحاً كارلوس ؟ "

" صحيح دكتور، وبالذات نحن الألمان لدينا ما يطلق عليها البطولة حتى الشطط والإرهاق، البرازيل بدأت ذلك، فذلك يشعري بالاضطراب ".

في اليوم السابع للحصار، مضى كل شيء بسرعة، إذ هاجم جنود المظلات من ثلاث اتجاهات بعد آخر تمهيد مدفعي للمتاريس وللمعسكر، كانت تأتي من صوب الغابات مع اللهب، ولم تعد هناك دفاعات مضادة.

الجيرا كان من ضمن آخر الرجال الذين يواصلون إطلاق النار، كان مستلقياً خلف مدفع رشاش ويطلق النار من آخر الشرائط المتوفرة " إني بحاجة إلى عتاد ! " صرخ وأضاف " هناك من الجهة المقابلة قرب البلدوزر صندوقان، أجلسه هنا ! "

لم يتحرك الرجال الذين كانوا راكدين في إحدى حفر القنابل، وكانوا على مبعده حوالي عشرون متراً من صناديق العتاد، وكانت المسافة حوالي أربعين متراً ذهاباً وعودة، تمر عبر وسط الجحيم، كانت الصناديق على حافة الغابة، كما لسوء الحظ كانت ترقد هناك ثلاث جثث لجنود المظلات.

فجأة قفز أحدهم عالياً وأخذ يعدو بطريقة متعرجة فوق الطريق شخص ذو هيئة نحيلة صغيرة يرتدي سروال رجالي ذو مقاس كبير جداً وسترة ممزقة ذو شعر أسود طويل يتراقص خلال الركض بين الكتفين.

" أليا " صرخ الجيرا " أليا عودي، يا إلهي ! يا إلهي " .

أنطلق صوبها على حافة الغابة، وقام الرجال بحمايته بالنيران، وفجأة اندلع خلف من شجرة زان شعاع من اللهب عندما اختفى جسدها في النيران، كان اللهب يبدو كشعاع وآلة التصوير الشعاعية، ولم يعد يبدو منها سوى الهيكل العظمي يتوهج كالفسفور، هيكل عظمي مضئ، ثم خمد شعاع الضوء بغثة، ولم يبقى من أليا سوى بقعة سوداء على الأرض.

" يا إلهي " سقط الجيرا على الأرض وأنزلق في حفرة خلف رشاشه، وانكفأ على الجدار، بسط يديه " سامحني على كل ما سأفعله، وإنه ليس ضد ما فعلت أو سمحت بحدوثه الآن ليبق أسمك مقدساً إلى الأبد أمين.

أنتظر برهة يراقب حافة الغابة، ثم زحف من حفرتة، وأخذ يعدو إلى أنقاض المتاريس واختفى هناك بين أنقاض الحديد الممزق.

وبعد عشرون دقيقة، رمى الباكون على قيد الحياة بأسلحتهم أرضاً، وطوحوا بخوذهم، وأعطى د. سنتالوس أوامره الأخيرة. إنه يعمل مع ممرضيه ونورينا في المستوصف، عندما أحتل جنود المظلات المعسكر، ثم أنه رفع رأسه للحظة عندما دخل العقيد إلى الخيمة وحياه كما لو كان خصماً عسكرياً يماثله في الرتبة.

" أترك عملك وأتبعني " قال له العقيد بلجة أمره.

" والجرحى ؟ " قال سنتالوس وأغطس يديه الملوثنين بالدم في إناء فيه ماء.

" سوف يستلمهم أطباؤنا حالاً " نظر إليه العقيد والتقت نظراته بنورينا سامازينا وأستقر عند كارل جبهارت " السيد كارل جبهارت ؟ "

" نعم " قالها جبهارت ووضع ذراعه على كتف نورينا وأضاف " نورينا زوجتي "

أبتسم العقيد ببرود " حول ذلك سوف نتحدث فيما بعد، فلدي الأمر بأن أرافك إلى كيرس، النقيب بيرابورت عبر عنك بأطراء "

" إذن فقد كذب " سحب جبهارت نورينا إليه، والتصقت هي بوجهها على سترته القذرة، وبدأت فجأة ترتجف وأضاف " وأنا أيضاً حملت السلاح بيدي "

" وهل أطلقت منه النار ؟ "

" طبعاً ...! "

" إنه يكذب " اندفعت نورينا وأفلتت من يده " إنه يكذب إنه لا يستطيع إطلاق النار من أي سلاح حتى على حيوان، على لا شيء ... لا تصدقوه "

" سوف أفكر في هذا الأمر " حياه العقيد تحية عسكرية، وبينما كان خارجاً، أقترح جنود الخيمة وانتزعوا سنتالوس من طاولة العمليات، وضربوه بأخمص البندقية على رأسه، فأغمي عليه، فسحبوه خارجاً، ثم دفعوا جبهارت بعد أن فكوا التحامه بنورينا بالأيدي، وركلوا نورينا على بطنها، فأنتنت على نفسها من الألم بصمت وهي تصر على أسنانها، ولكنها لم تمنحهم السعادة بأن يسمعوها تصرخ، فتحملت الألم بدون صوت، وأخرجوها من الخيمة دفعاً وضرباً، ولكنها لم تطلق كلمة واحدة.

" أيها الكلاب " صرخ جبهارت " أيها الكلاب الملاعين، أيها الكلاب القذرين .. تحيا حرية البرازيل .. تحيا ..".

وتلقى ضربة بقبضة يد على فمه من أحدهم، وشعر أن الدم يسيل على ذقنه، وبدا أن وجهه يورم، فقد شعر أن رأسه أصبح كالبالون، ثم سقط، وارتطمت جبهته بطاولة العدد والآلات .... وفقد الوعي ".

عندما أفاق، كان راقداً على أريكة، كانت من النوع الذي يعود إلى عهد جدته بلون أخضر غامق في قماش من المخمل (القديفة) وله مسند ظهر عال، وغرفة شبه جرداء ذات نافذتين تحيط بكل منهما مشبك للوقاية من الشمس، وهناك كرسي من القش قرب أحد الشبابيك حيث يجلس رجل يرتدي الملابس الرسمية. إنه العقيد.

كان جبهارت يشعر بدوار في الرأس، رفع ساقيه عن الأرض، فقد رأى كل شيء وكأنها صور بعيدة غائمة باهتة تلوح ممن بعيد.

" لقد حولت الجنود الذين أسأوا لك إلى المحاسبة سيد كارلوس " قال العقيد وبدا أن صوته يأتي مع حفرة عميقة " إني أرجو السماح، ففي هذه الظروف لا يستطيع الجندي التعرف بدقة في الموضوعات السياسية، ثم أنك تتحدث البرتغالية مثلنا ".

" أين نورينا ؟ " سأل جبهارت، ولم يكن بوسعه أن يتعرف على صوته، سعل وأتكأ على ظهر الأريكة القديمة وسحب نفساً عميقاً " ماذا فعل كلابكم مع نورينا ؟ ".

" إنك تتحدث عن وحدة من قطعات النخبة في الجيش يا سيد " ونهض العقيد وجاء إلى جبهارت وانتصب أمامه وكأنه جبل، كان قوياً لدرجة أنه أغلق الأفق أمام جبهارت " نحن لدينا إثنان وأربعون قتيلاً ومائة وتسعة وستون جريحاً من الجنود بسبب العصاة، وهنا فإن الانتقام أهم عنصر وأكثر من إنسان ".

" وأين هي نورينا ؟ " سأل جبهارت بصوت عال، وقد ابتدأ جسده وأعصابه الاعتياد على العالم، وبدأ الورم يخف تدريجياً، وأن ينظر إلى العقيد كما هو عليه فعلاً: متوسط الطول ذو هيئة قوية، يحمل ثلاثة أوسمة على ملابسه العسكرية، في حوالي الخمسين من العمر، رمادي الشعر ذو وجه مكنتز ولكن قوي.

" إنها هنا في كيرس في زنزانة منفردة في السجن العسكري ".

" هل أنا في كيرس ؟ " سأل جبهارت، وهو يشعر بأنه مخدوع.

" وهل افترضت أننا نضعك على أريكة في الغابة، إنك الآن في غرفتي الخاصة في المعسكر، والأريكة التي نمت عليها عمرها أكثر من مئة عام، وهي بالأصل من عمة لي في بروكسل، حيث كان عمي قنصل البرتغال هناك ".

" ماذا حصل الآن مع نورينا ؟ " ولامس جبهارت وجهه بكلتا يديه " أنا لست هنا لأبداء أعجابي بأريكتك ". " سوف تتحسن حالة وجهك " أبتسم العقيد وقال " نورينا سامازينا تنتظر الحكم عليها ".

" إنها لم تفعل شيئاً البتة ".

" القليل بما يكفي لإطلاق النار على الناس ".

" كلا أنها لم تفعل ذلك ".

" من أجل حسم هذه المسألة، فهذا شأن المحكمة الخاصة " قدم العقيد قدحاً لجبهارت، ثم شرب القدح ببطء وكأنه عصير فواكه مثلج حلو ومر في آن واحد.

" والدكتور سنتالوس ؟ "

" هو الآخر مسكين ! " مضى العقيد إلى النافذة " المحكمة ستتعقد وتحاكم المتهمين في مجاميع، فنحن لدينا مئة وإثنان وثلاثون موقوف من العصاة ".

" مئة وإثنان وثلاثون من ألفين ؟ " قال جبهارت.

" نحن نأمل أن تنتهي هذا المساء " عاد العقيد وجلس على كرسيه. " وأطول جلسة ستكون الافتتاحية مع المتهمين السبعة الرئيسيين: باولو الجيرا، وكان من أفضل رجالك، أليس كذلك سيد كارلوس " جاء السؤال مفاجئاً مثل طلقة من الخلف، أنحنى جبهارت، قدح عصير آخر .. إنني أحترق من الداخل ...

" نعم، لم يكن هناك شيء عاجزاً عن فعله ".

" هذا صحيح " ضحك العقيد بقوة " لاحظنا هذا، فهو الوحيد الذي تمكن من النجاة بنفسه، لقد قلبنا كل جثة ثلاثة مرات بحثاً عنه، ولكنه لم يكن بين القتلى، إنه رجل يثير الدهشة، ولكن المسألة وقت فقط ".

" وهل أستطيع أن أشاهد نورينا ؟ " سأل جبهارت وأضاف " وأن أتحدث معها؟ "

" كتعويض عن سوء معاملتك، وبشكل استثنائي "، وملاً العقيد القدح وناول له جبهارت، وكان الظلام قد حل، وأخذ سيكاره " سمعت أنباء من ريو بالاتفاق مع السفارة الألمانية والشركة التي تعمل بها في ألمانيا، ستحصل على تأشيرة الخروج في الأسبوع المقبل، كما أنك ستحصل راتب عام كامل كتعويض لما أصابك من أضرار ".

" خطأ أيها العقيد " وأستند جبهارت بظهره إلى الجدار وامسك القدح من يد جبهارت بكلتا يديه " إنني سأبقى بجانب نورينا ".

" سيخلق لك هذا صعوبات يا سيد كارلوس " قالها العقيد وأخذ القدح من يد جبهارت، كما يأخذ المرء لعبة سهلة الكسر من يد كفل " الإعدام سيكون يوم الاثنين الساعة السادسة فجراً ".

كانت الزنزانة الصغيرة رطبة تعبق برائحة العفونة، وتقع تحت الأرض ولم تكن هناك نوافذ ولا تهوية، والأرضة كانت طينية والجدران من الحجر الخشن، وعلى السقف الذي كان عالياً لا يلمس، كان هناك مصباح وحيد، والباب الحديدي كان صدئاً. وفي هذا الجو العفن، عندما فتح الباب أحدث صريراً عالياً تسلل حتى العظام.

جلست نورينا على السرير المصنوع من القصب المضغوط، ونظرت إلى الباب المقفل، كانت قد عقدت شعرها وتبدو هادئة تماماً، فقط أصبعها الذي كانت تفرع به على حافة السرير ينبأ أي قوة هائلة تسيطر به هذه المرأة على قلقها.

الآن سيأتون، فكرت، وسيأخذونني دون محاكمة، دون قرار حكم، بل سيخجلون من كلمات دفاعنا، كيف سيفتلونني، رمية بالرصاص؟ أم ترى شنقاً؟ كيف يقتل القضاء العسكري امرأة؟

....

كان أول من دخل عليها جندياً، حياها فتعجبت لذلك نورينا، توقف بالقرب من الباب " لديك زوار أيتها الأنسة، ولمدة ربع ساعة "

" لا أريد أن أقابل أحداً، وليس لدي شيء أقوله بعد " قالتها نورينا وهزت رأسها " دعه في الخارج "

ثم صمنت فجأة، سكنت حال وقوع بصرها على الرجل الذي دخل الزنزانة تقريباً، وعاد الجندي إلى الممر وأغلق الباب.

" نورينا ... " قال جبهارت بصوت باهت " يا إلهي نورينا .. ماذا فعلت بنفسك "

" لماذا جئت كارليتو؟ " ونهضت واقفة وتعانقا بتتهيدة، واستمرا كذلك وكأنهما يريدان أن يذوبا " الذكريات، كانت أجمل بكثير من الواقع "

يوم السبت سنكون المحاكمة " غطس صوت جبهارت " لقد حاولت بكل السبل طوال ساعة وأنا أتحدث بالهاتف مع السفير الألماني في ريو، ليس بوسعهم مساعدتنا، إنها مسألة برازيلية داخلية، هكذا قالوا، وأن أبقى خارج هذه المسألة، ولكنني لن أستسلم "

" وماذا تريد أن تفعل كارليتو؟ " قالتها وقيلته وقد بدا الأمر وكأنها تريد أن تواسيه " إذن فهم سيقومون لنا مرافعة؟ هذا يهدأني، سيكون الأمر فظيماً أن تتم التصفية بهدوء وسكون، يجب أن يشاهد ويسمع الكل بأي فخر نتقدم للموت "

" هل هذا هو كل ما تفكرين به؟ "

" تفكرين؟ " ومسدت على وجهه المندهش، وأشارت إلى الجدار العفن المبتل " أوه .. كلا، التفكير وأنا في عالم آخر تماماً، التفكير والحلم هو شيء رائع عندما يعلم المرء بأنها تبقى فنتازيا (خيال) وبها يغلف المرء مثل ملابس ملكية، أتعلم ماذا أرى؟ إنني أملك بيتاً في مكان ما في بلد حر مسالم ذات تصميم معماري جميل، زوجة مع أطفال اثنين أو ثلاثة، لهم مثل عيوني ومثل فمك، عائلة سعيدة في عالم جنة "

" نورينا " قالها بتلعثم " كان يمكن أن يكون كذلك قبل يومين فقط، كانت لدينا الفرصة " .

" كلا ووضعت رأسها على صدره وأحاطته بكلتا ذراعيها " لم تكن لدينا هذه الفرصة أبداً، كان دائماً فقط حلم لو كنا قد تقابلنا قبل ستة شهور في ريو برازيليا... برما آنذاك، ولكن عندما جئت مع سنثالوس عندكم من المعسكر، وكل ما عدا هذه المهمة تبقى أشواقاً وأحلاماً " رفعت رأسها والتمعت عيناها السوداوتان، وللمرة الأولى يراها جبهارت تبكي " كان عليك أن لا تأتي " قالت بصوت منخفض " أنت الآن تجعل لي الإعدام صعباً " .

" لم يصدر قرار الحكم عليك بعد " يوم الاثنين الساعة السادسة فجراً يبدأ تنفيذ الإعدام، فكر جبهارت في نفسه: يومين اثنين فقط بضمنها يوم واحد من المحاكمة المهزلة، ويوم آخر للمداولات فيما يسمى إحقاق الحق، والإدانة ستكون جاهزة، ماذا يتوقع المرء أن يفعل في يومين ؟ ..

أحدهم قرع على الباب الحديدي من الخارج، أرتعش كلاهما، وتعانقا مرة أخرى، كان الوقت قد جرى منهما، يا لها من ربع ساعة عند الوداع الأبدي !..

" أذهب " قالت نورينا بشجاعة، كانت قد مسحت دموعها بستره جبهارت وابتسمت له " لا تلتفت عندما تذهب، لا أريد أن أرى عيناك، رجاء " .

" سوف أخرجك من هنا ! " قال جبهارت بحماسة " فأنا سأطير إلى ريو اليوم. " .

" إنهم سوف لن يتركوك كارليتو " وسمع صرير الباب ومد الجندي رأسه إلى الزنزانة وأشار، وفهمت نورينا وهزت رأسها.

" عش جيداً يا حبيبي " قالت نورينا ثم أضافت " نتقاسم قدرنا ومصيرنا مع كثيرين وسوف يكون هناك دائماً نساء ورجال تفرقهم الأقدار " وبدفعة واحدة تخلصت منه، وصدمة بكلتا قبضتيها، وهرعت إلى مضجعه الخشبي " والآن اذهب " صرخت " اذهب أخيراً " .

كان جبهارت يريد أن يقول شيئاً بعد، ولكن الجندي سحبه من سترته خارج الزنزانة، ترنح من الدوار، وأغلق الباب، ودار المزلاج وأغلق بصوته المعروف " دقيقة بعد " بدا جبهارت في رجاءه كطفل " دقيقة واحدة فقط، رجاء " .

نظر إليه الجندي متفحصاً إنهم ينتظروك سيد " قال وأدى إشارة وتبعه جبهارت خارجاً حيث كان يقف شخص يرتدي جبه قسيس طويلة تصل إلى الأرض، له وجه شاب في غاية الجدية، وبرغم شبابه مثل حجر متأثر بعوامل التعرية.

" باتر دي سيتا " قال القس.

" أنحدر عرق مثلج على ظهر جبهارت، ها هو القس لليوم الأخير هنا، يا لها من سخريّة، إنهم سيقتلون ويحملون خلال القتل الصليب عالياً.

" هل هذه هي حقاً إرادة الله " سأل جبهارت بقسوة " هل بوسعك أن تجيب على ذلك باتر ؟ " .

" نعم " وأشار باتر دي سيتا إلى الممر في الأسفل، " رجاء رافقتي إلى الخارج أريد أن أتكلم معك " .

ولكن طلبه لم يكن ينطوي على رنين رجاء، بل أنه سمع ذلك وكأنه أمر، تبع جبهارت القس مستغرباً ومضياً في الممر إلى الأسفل، ثم ارتقيا السلم المسور إلى الأعلى وإلى الخارج، إلى الضوء .

\*\*\*\*\*

وصل باولو الجيرا إلى برازيليا.

ولم يسأل فيما بعد كيف نجح في ذلك، فقد كان كل ما هو إنساني فيه قد مات، وبدأ يشق طريقه كحيوان متوحش فر عبر الغابات، وفي الليل أستطاع أن يسرق دراجة بخارية من المعسكر الرئيس السابق وبها وصل إلى كيرس، أوقف في الشارع سيارة، أنتزع سائقها منها وجلس في مكانه وقاد السيارة إلى برازيليا.

ما كان الجيرا يفعله لا ينتمي إلى شعوره بالوعي، كما لو أن خيلاً ورؤى تتحرك أمامه وتسافر معه حيثما ذهب. كان يشاهد فيه منظر ألياً في تلك اللحظة التي تحول فيه جسدها إلى شعاع من النار، صورة ملتبهة ماثلة أمام عينيه، وكل ما فعله في الطريق من تحطيم وتدمير، كان يبدو خلاله كإنسان قد أفلت ولا يمكن الإمساك به، ولم يعد ينتمي إلى أي تصنيف.

وهكذا وصل إلى برازيليا، وهكذا أوقف بعد ثلاثة أيام دون أن يستريح فيها ولا ساعة واحدة، وجد نفسه واقفاً أمام مجمع هائل من الزجاج والفولاذ والأسمنت المسلح وخشب المهاغوني، مجمع أركولهو التسويقي، تطلع إلى الواجهة العالية.

هناك في الأعلى، يسكن هيرمانوسانتوس بولو، فكر الجيرا، السيد الكبير بولو، يسكن هناك في الأعلى، كالنسر الذي لا يمكن الوصول إليه. هل تعلم يا سيد بولو أنه لا يوجد شيء في العالم لا يمكن الوصول إليه ؟ لا شيء بالنسبة لباولو الجيرا.

أخفض رأسه وأخذ يدلك وجهه العريض بكلتا يديه، ولكنه عندما أغلق عينيه ظلت الصورة ماثلة أمامه، جسد ألياً المضيء في أشعة النار للوقود المشتعل.

شرح بدوار، ترك ذراعيه تسقطان وجمدت أبصاره مرة أخرى على سطح المجمع، ومن حافة النافذة حيث توجد أحواض زهور ملونة، خلف الشبايك التي تسطع بالأنوار في الطابق التاسع، حيث يبدو الإنسان كمنملة كبيرة.

وببطء بدأ باولو يتحرك، وشعر ببرودة الهواء في الممر الذي عزل عن ممرات الجمهور المتسوقين، أخذ يبحث عن المصعد وأنتظره حتى هبط وفتحت بابه.

" إلى الأعلى تماماً " قال الجيرا بصوت خشن لعامل المصعد الذي يرتدي ملابس نظامية، فحياه عامل المصعد بتهذيب.

زجاج، بورسلان (خزف)، سجاد، ستائر، هدايا، تحف.

إذن هكذا ..! أنكأ الجيرا على جدار المصعد النظيف اللامع.  
كان المصعد يواصل صعوده إلى الأعلى بدون صوت.



هيرمان سانتوس بولو... يراه المرء بأنه كان غنياً، ولكن المرء لا يرى بأنه يستحق أن يشتم ويعلم من الآلاف التابعين له، وكيف ينظر المرء إلى ذلك؟ إنه يتبع يومياً التدليك والتجميل لتليين بشرة الوجه والعناية بها، وبتصرفاته الجيدة جعلت منه ينتمي إلى أوساط المجتمع البرازيلي الراقية، وهو الذي كان يمتلك النفوذ، وكان لديه أصدقاء كثيرون يمتلكون ذات الصفات والخصائص من كبار ملاكي الأراضي ممن يملكون قرى في الريف قد يبلغ حجمها بقدر سويسرا، وزراء وعسكريون، وصناعيون، ورجال أموالهم تدور بينهم، أصحاب بنوك يضاعفون أموالهم عن طريق التدليس والمضاربات والغش، أصحاب صحف من الذين لا يسمحون بظهور سطوراً واحداً في صحفهم عن إبادة أعراق هندية، فقط الكنيسة لم تكن موجودة في هذا السوق، ومثلت المعارضة الوحيدة ل (نادي المئة) الذي يحكم البرازيل.

وقد تمت المحاولات في جميع المجالات، وكافة السبل، وقبل كل شيء مساعي الأسقف هيلد كامار الشجاع، ومن التهديد إلى السخرية ومن الوشاية وتشويه السمعة، إلى الكذب. باءت جميعها بالفشل، وحتى مواقف كامارا الشجاعة لم تؤد إلى شيء، بل هو جدلي في العالم إذ جلب من أوروبا ومن الولايات المتحدة مقاولات جديدة من خلال الأم الهنود وعبودية البشر وتراكم رأس المال. ولكن أصحاب الأموال البرازيليين لم يكونوا قلقين بصفة خاصة حول هذه المحاولات، وما فعله الأسقف كامارا كان جيداً، حيث ذهب وقص على بلدان الغرب عن الفقر في بلده البعيدة عن الغرب عن الفقر في بلاده البعيدة، والأمر بالنسبة لهم سيان تماماً كما تحكى الخرافات والأساطير من جيب القساوسة، فكانوا يستمعون له بتأثر، ولكنهم يجمعون على استئصال الهنود في الغابات، ربما سينال أحد القساوسة يوماً وساماً، ولكن البرازيل سوف لن تنال شيئاً، وهذه قالها مرة بولو لوفد اقتصادي أوروبي بوضوح تام.

"أصدقائي، ما هو أهم: هل ما تحتاجون إليه أنتم وشعوبكم بشكل فوري من: القهوة، والأخشاب الثمينة، القطن، السكر والتبغ، أم الهنود.. هل تريدون أن تستثمروا في البرازيل صناعة جديدة متطورة التي ستصبح قريباً الأعظم في كل أميركا الجنوبية، أم أنكم ستصلون مع الأسقف هيلدر للراية الحمراء فوق الأمازون؟ القرار الحاسم بأيديكم أصدقائي، البرازيل ستجد شركاء ومتعاملين معها في كل مكان، وهذا البلد سينمو الآن وتفتح قميص نومها الليلي مثل سيدة جميلة، أنظروا أي كنور مطمورة هنا، تعالوا إلى هنا قبل غيركم!"

ثم ضحك، فليجلبوا لنا زجاجة نبيذ من الدرجة الأولى، أما الوفد الأوربي فلم يعد يتحدث عن الفقر والهنود والعدالة الاجتماعية، واضطهاد الأقليات، بل لم يعودوا يريدون حتى سماعها، لقد كان هذا عرضاً بسيطاً ولكنه كان فعلاً في عقد الاتفاقيات، فالمصطلحات الأخلاقية العالية لا تعمل أبداً على زيادة الأرصد المالية في البنوك.

في هذه الظهيرة الساخنة، كان بولو قد قرر أن يذهب إلى البحر وأن ينهي أسبوع العمل، وهو يسكن بمفرده في سطح المجمع التسويقي، وكانت طاعته لرغبته أكبر من حاجته، فهو يملك العديد من الفيلات الأنيقة ذات الحدائق، ولكنه كان من شقته من سطح المجمع التسويقي بوسعه أن يشاهد برازيليا كلها، هذه البناية التي كانت في المكاتب الاستشاريين للمهندسين المعماريين بأنها مدينة كاملة في بناية واحدة وهي تحمل أكثر ملامح المستقبل، فهي بناية مبردة، هي من

الزجاج والاسمنت من حيث المظهر، ما يمكن خلطه بالماء والرمل والأسمنت، وأي جمال يمكن أن يخلق، ومن هنا يمكن لبولو أن ينتقل إلى الجانب الآخر إلى بناية أخرى من إمبراطوريته، إلى البرج الزجاجي الذي يعمل فيه ألف موظف وموظفة لإدارة شركاته ذات العائدات العالية.

على منصة بولو في الغرفة الفسيحة ذات الواجهة الزجاجية العريضة التي تطل على أوسع مشهد للمدينة، هناك جهازا هاتف فقط ، الأول أبيض اللون للاستخدام الخصوصي، والآخر أخضر اللون وهو يقوم بمثابة المقسم (البدالة) يمارس من خلاله سلطته، وبكلمات مقتضبة، ولكن كل كلمة تعني مصير أولئك الذين تمسهم قراراته وتوجيهاته، وقد كان شعوراً شهوانياً أن يرفع سماعة الهاتف وأن يقول شيئاً يمكن أن يغير عالماً كبيراً أو صغيراً، أمراً يتمتع بولو.

كان بولو في يبلغ الخامسة والخمسين من العمر، متوسط الطول، عريض المنكبين، مطلق ثلاث مرات، ولكنه الآن على علاقة مع بارونة فرنسية كانت تنظره في ريو، وكن هيرمانو سانتوس بولو مصطلح يمثل القوة والسلطة.

في آخر نداء هاتفي أجراه كان مشغولاً بأبناء الأنتفاضة العمالية في طريق الغابات إلى ريوآرغوايا، كان الثوار قد تلقوا ضربات نهائية على أيدي قوات المظلات، ومن بقي منهم على قيد الحياة، ما يزالون في كيرس ينتظر الإدانة والحكم عليه، وقد تم إعداد مجموعات عمل جديدة كانوا يقفون على أهبة الاستعداد للتحرك إلى موقع العمل الكبير. وكان الفقراء يقفون أمام مكاتب التشغيل في صفوف طويلة، ولكن على أية حال، كان أسبوعاً قد انصرم وضاع، وقرر بولو بقلب قاس خصم الخسارة بتخفيض كيروتسيروس أثنين من كل تسعة ساعات عمل، ولا يمكن توقع غير هذا من بولو.

بنظرة فيها دهشة أكثر من القلق، تطلع بولو عندما فتح باب صالون بيته، دون أن يسبق ذلك قرع على الباب، وبدلاً من الخادم جوان، دخل رجل عملاق مهلهل الثياب تقريباً. أغلق الباب ورائه بقوة، ووقف وقفة استعداد على الأرض المفروشة بالسجاد الفاخر.

رفع بولو حاجبيه، ودس يديه في جيوب سرواله " قبل أن تبدأ قل لي أولاً كيف دخلت إلى هنا ؟ سأصرف الخادم جوان من العمل حالاً " قال بولو بانزعاج.

أشار باولو الجيرا برأسه إلى الباب " وهل يدعى الرجل جوان ؟ إنه لا يحتاج إلى صرف من العمل، فهو بحاجة الآن إلى تابوت " .

في هذه اللحظة سمع صوت انفجار عميق، اهتزت على أثره ألواح الزجاج الكبيرة في صالة بولو، وقبل أن يبدأ بولو أي رد فعل، دو رنين الإنذار في المجمع التسويقي، وحتى شقة بولو الخصوصية والمعزولة جيداً، تناهى إليها صرخات وصياح مئات الرجال.

" حريق " قال الجيرا بصوت عميق " حريق يا سيد بولو، وهذه كانت قنبلة والتي أرسلت المصعد يهوي إلى الأسفل، وينبغي أن تنفجر في الطابق الثاني. قف ! أبقى واقفاً في محلك " .

أراد بولو أن يتقدم إلى مكتبه، ولكن الجيرا قطع عليه الطريق وطوح به بحركة يد واحدة إلى الورا، ومضى يعرج باتجاه الجدار وأنتزع في طريقه إحدى قوائم حوض للزهور، ثم عاد للهجوم فوراً وبيده صحن حديدي، ضحك الجيرا وهز رأسه، كانت هذه الحركة مضحكة، كما لو كانت صفارة الإنذار في المجمع.

" أنت مجنون، صرخ بولو " ماذا تريد ؟ نقود ؟ وبهذه الطريقة ؟ فخلال دقائق ستكون الشرطة هنا " .

" إنهم سوف لن يستطيعوا الدخول " انتصب الجيرا مثل دب هائل أمام بولو، الذي أراد أن يصلح من وضع حوض الزهور الذي تحطم قائمته.

" لقد رأيت هذا المجمع والسوق وهو كله يعود لك، ليس الآن، في الماضي، إنها بناية جميلة ولكن بدون جهاز إطفاء الحريق الأوتوماتيكي الباهض الثمن جداً سيد بولو، طبعاً ثمنه غال جداً، إذ ما هي قيمة حياة الإنسان ، وهذا ما قلته لآليا عندما اشترينا مرة بلوزة لها من الطابق الأول، كانت آليا تبدو كأميرة عندما تطلق شعرها الأسود الطويل فوق الأحمر الوردي، صحيح ؟ "

" أنت مخطأ " زمجر بولو وقد سمع عويل صفارات الإطفاء ، وفي مكان ما سمع صوت زجاج يتفجر ويتحطم، حريق ؟ فكر بولو، ثم ثبت نظره على الجيرا، البناية تحترق، وهناك في كل مكان السلع والبضائع السهلة الاحتراق، وسوف تتسع النيران حتماً بوجود مواد قابلة للاشتعال سريعاً " لو أردنا أن نضيع المزيد من الوقت، فإن البيت ذو المدرجات سوف يحترق، وأنت معه، يمكنك أن تتصور ذلك ! أنت معه !! " . ثم صمت للحظة ...

" أسألك فيما إذا كنت تعرف الفتاة آليا، الفتاة ذات البلوزة باللون الأحمر الوردي " واصل الجيرا حديثه بهدوء.

" كلا " زمجر بولو " كلا يالشيطان .. ما لي وهذه الفتاة ..! "

" هذا ما سألت نفسي أيضاً سيد بولو، ولكن على الرغم من ذلك فقد فعلتها أنت .. "

" ماذا فعلت ؟ "

" لقد أسكرتها سيد بولو، ثم سحبتها إلى سريرك ونمت فوقها عندما جلبتها إلى الأمازون، لقد حطمت جسدها ونفسيتهما وكلاهما يعودان لي، آليا الفتاة التي كانت تعمل في مطعم المعسكر الكبير على الطريق الجديد، أتذكر ذلك سيد بولو ؟ كانت ترتدي البلوزة ذات اللون الأحمر الوردي وقد مزقتها عن جسدها، كانت فتاة خالسية جميلة، بحيث أن رجلاً أبيض كبيراً هام بها "

" ومن تكون أنت ؟ " سأله بولو، فيما كانت نظراته تشيع خوفاً. فتاة المطعم؟؟ فكر للحظة، طبعاً السمراء الصغيرة ذات الجسم الملائكي التي دافعت عن نفسها كقطة، ولكنها ألم تضع مئة كروسيروس بين ثدييها بعد ذلك ؟

" أنا بولو الجيرا " أجاب بهدوء. وابتدأ قلب بولو يقرع بقوة فيما كان صراخ الناس يتصاعد من وراء زجاج النافذة الكبيرة. وكان عمال المطافئ قد بدؤوا عملهم فيما كانت طائرتان مروحيتان تابعتين للشرطة تراقبان البناية الرائعة من الجو. على أية حال، لم يكن بولو يشاهد كم كان اللهب واسعاً وكبيراً في طابقيين، وكان الناس يجلسون على حافة الشباك ثم يقفزون من ذلك الارتفاع مفضلين الموت على هذه الطريقة بدل الاحتراق، وعلى السلام كانت الأجساد تتدحرج في فزع جنوني يطئون بعضهم بعضاً، كانت الأجساد تغلق الممرات، وألسنة اللهب تلاحق الهاربين منها.

" الجيرا ..! " انطلقت الكلمة من فمه " البرازيل بأسرها تبحث عنك ".

" أنا هنا وأريد أن أتحدث معك عن آليا ".

" بالنار وإبادة بشر لا ذنب لهم ..؟ ".

" ألم تكن آليا بدون ذنب يا سيد بولو ؟ " قالها وهجم عليه وأنتزع من يده قائم حوض الزهور وقذف بها باتجاه الشباك العريض وتحطم زجاجها، وبذلك انتهت عزلة بولو وبدأ يسمع بوضوح تام صوت الصراخ والزعيق من الناس الذين حاصرتهم النيران، وصوت ارتطام الماء من خرطوم رجال الإطفاء والانفجارات الصغيرة للنيران، وصوت سيارات الإطفاء والشرطة والجيش، التي أغلقت الشوارع المؤدية لبناية المجمع.

في هذه اللحظة، أنهار السيد الكبير بولو وأصبح إنساناً قميئاً يتوسل لإنقاذ حياته. " الجيرا " قالها منتحباً، وكان الدخان قد بدأ يتسلل إلى الغرف، دخان ذو رائحة كريهة من المواد الصناعية ورائحة شواء البشر " مليون، مليون كامل إذا اتفقنا الآن وأنا أتعهد لك بأن ألتزم الصمت " .

" آليا كانت جميلة جداً " قالها الجيرا بصوت حالم " عندما كنت أعانقها كنت أشعر بأني الرجل الأكثر ثراء في العالم ".

" ستقضي النيران علينا الجيرا، لنذهب إلى سطح البناية فالطائرات المروحية يمكنها إنقاذنا " صرخ بولو وتداعى، ومع تداعيه أنهار أيضاً كبرياؤه وجسده، فأستند إلى الجدار وجمدت نظراته على الجيرا وأخذ يرتجف من صوت الصراخ الوحشي الذي كان يقتحم شقته المرتفعة.

" سنحترق .. " وقف الجيرا بضخامته أما بولو، كانت عيناه تبدوان مشرقتان " أتعلم كيف يبدو الإنسان عندما يتناوله لهب النيران ؟ لقد رأيت ذلك للمرة الأولى، لم يكن قد بقي لحم على الجسد، توهج الهيكل العظمي وكأنه مصباح نيون مضيئ يا سيد بولو، وقد رأيت آليا وكأن عظامها تضيئ ".

زفر بولو الهواء من أعماقه، ثم قفز إلى الأمام، ورأسه غاطس إلى الأمام وليس له سوى هدف واحد: الباب المفضي إلى الممر، ومن هناك وبواسطة السلام الجدارية الخارجية المؤدية إلى الخارج، ولكنه أصطدم بشي وكأنه الصخر، كان صدر الجيرا العريض باستقباله دون أن يهتز هذا العملاق، ثم هجم عليه، فأخذ بولو من كتفيه عالياً وحمله وهو يزمر إلى خارج الصالون.

" أحترق حتى أضاء جسدها قالها وهو يحمله ويدخل الباب المؤدي إلى الممر، فقابله الهواء الساخن. النيران قد بلغت إلى مكانه، وكانت عينا الجيرا تدوران في محارها بجنون، وقد شل كل حركة دفاعية أبدأها بولو الذي بدأ يزعق ككلب بينما كان معلقاً بسهولة بين الذراعين الهائلين بولو الجيرا وكان لا ثقل له البتة " أنت لم تشاهد ذلك سيد بولو " .

\*\*\*\*\*

أستمر حريق المجمع التسويقي أوجول هو يومين قبل أن يتمكن رجال الإطفاء من السيطرة على النيران وإخمادها، وعن ذلك كتبت الصحف: بركان وبحر من اللهب أنفجر في وسط العاصمة، وتسبب في اندلاع حرائق، ويظهر أن إدارة الإطفاء لم تتمكن حتى الآن من الوصول إلى الطوابق العليا، لذلك يتعذر مكافحة النيران في الأدوار الأخيرة التي قضت تماماً على المجمع التسويقي للسيد بولو، وقد استخرجت حتى الآن 347 جثة من بين الأنقاض والركام التي يمكن بالكاد التعرف على أصحابها، كما قذف 23 شخصاً بأنفسهم من الطوابق العليا ولاقوا حتفهم، ومن بين الرجال الذين تم التعرف عليهم لحد الآن من الجثث المحترقة، ربما أن أحدها تعود للسيد بولو، ويفترض رجال الشرطة أن سبب الحريق الذي وصف بالكارثي، هو عمل تخريبي، والأكبر في تاريخ البرازيل.

ولم تخدم السنة الحريق إلا في اليوم الرابع، إذ ما زالت شرارات تنبعث وتسبب حريقاً جديداً، والآن بدأت أعمال التنظيف ورفع الأنقاض.

وعثر رجال الشرطة والإطفاء على السلم الحجري بين العمارة والمجمع التسويقي على جثتين متفحمتين تماماً، مستلقيتين قرب الجدار متلازمتين، ويقدر المختصون أنها جثة أب كان يريد إنقاذ أبنه، ولكن الطب العدلي يؤكد أنها جثتين لرجلين بالغين، أحدهما طويل القامة، ضخم، والآخر متوسط الطول.

يتعذر القول أكثر من ذلك، وقد دفنت جميع الجثث المجهولة الواحدة قرب الأخرى وعلى الصليبان التي كانت من الخشب البسيط كتب ويا للسخرية: " صديقان " .

كانت الغرفة التي خصصت للأب دي سينا في السجن العسكري تقع بالقرب من الزنانات تحت الأرض، وكانت نافذتها تطل على حوش صغير ذات أرضية قوية، وكان ستة جنود يعملون أمام جدار مرتفع من الطين الأصفر، يدقون أعمدة خشبية في الأرض بطول رجل.

وقف جبهارت على الشباك وتطلع إلى الحوش، ومن خلفه جلب القس دي سينا قدين وقنينة روم من دولاب قديم مزعزع الأركان.

" ألا تريد أن تجلس سيد كارلوس ؟ " سأل القس وهما لا يستطيعان تجاهل أعمدة الإعدام ويشاهدان عملية دقها أمامهما.

أخض جبهارت رأسه ولكنه ضل واقفاً على الشباك " إنهم سيكونون عندك " سأل بصوت منخفض.

" نعم " وتناهى إليه صوت سكب الروم في الأقداح " هذه بالنسبة لكل قس واجب مكروه ولكن لا بد منه، ماذا يتعين الحديث مع المحكوم عليهم بالموت ؟ إن الله يحبهم ؟ أن العدالة الحقيقية هي في السماء ؟ .. إن هذه الحياة هنا على الأرض محطة مؤقتة، وأن الحياة الحقيقية لا تنتهي قط ولا حتى برصاصات فصيلة الإعدام، ولكن على الرغم من ذلك، فقد قمت متطوعاً بتقديم نفسي لهذه المهمة وللدقائق الأخيرة من حياة المحكومين " .

" هل هذا واجبك أيها الأب ؟ " .

" ليس هذا فقط، لذلك أردت أن أتحدث معك دون إزعاج يا سيد كارلوس " جاء القس إلى الشباك وناولته القدر وفاحت رائحة الروم بشدة، فأخذ القدر وأفرغه بجرعة واحدة، فأحس بأنه يريد أن يسعل " بعد الإعدام سوف أذهب إلى الجامعات العمالية الجديدة التي سوف تعمل في الغابة، وبناء على نصيحتي فقد تم اتخاذ العديد من المبادرات مثل صندوق الكنيسة " . ثم تناول القس دي سينا قدحاً آخر وأفرغه دفعة واحدة وأضاف " أما العاهرات فقد كان حظهن الأوفر بين الجميع، فقد حصلن على سيارتي باص مجهزة كاملة وبأجهزة تكييف، وكذلك ثلاث باصات / بار جواله، ولكن الكنيسة لم تحصل على سيارة، لذلك فأنا ما زلت أركب دراجتي البخارية القديمة، وسأكون مثلك في الصفوف الأمامية " .

" وهل تعتقد أن المومسات لا ينبغي أن تكون لهن فرصة ؟ " . أبتسم جبهات بسخرية.

" خطأ ... أكيد " وأخذ القس القدر الفارغ من يد جبهات وذهب إلى وسط الغرفة " لا يعيش الإنسان من الطعام لوحده، فلا بد له أن يتكلم وأن يعبر عن نفسه، وأن يحرر ذاته، وهو ينتظر أن تقابل رغباته بالتفهم، ولذلك أنا هنا، أتل سأفهم كل واحد، إن الكتاب المقدس يحتوي على أفكار اشتراكية كثيرة " .

" أيها القس " والتفت جبهات إليه ببطء، كان القس يقف خلف الطاولة، سكب الروم مجدداً في الأقداح وأبتسم " أنت تريد بثوب قسيس أن .... يا إلهي " .

" " كم نفهم بعضنا جيداً يا سيد كارلوس، الكنيسة لم تتم بعد في هذه البلاد " .

" إنك واحد من القساوسة الحمر ؟ " قال جبهات بصوت منخفض " أيها الأب، بإمكانهم أن يعدموك أنت أيضاً " .

" لماذا تقول أنت الآخر كأعدائنا .. الحمر ! .. لماذا لا تقول، قس من أجل البشر ؟ لقد كانت غلطة الكنيسة في عالم ممزق معذب، يصلون ويتحدثون عن عالم الخير، إن الحديث مقبول عن عدالة السماء وانتظار الجحيم على الأرض، نحن القساوسة الشبان نرى ذلك، المسيحية يجب أن تكون سلطة لتحقيق النظام، نظام العدل لجميع البشر، هكذا نفهم نحن مهمة المسيحية، أذهب إلى جميع العالم، وما شأن الحمر بهذا أو مع الثورات التي تدمر فقط، نحن نريد البناء " .

مد جبهات يده إلى قدح الروم وأفرغه بجرعة واحدة، ولكنه لم يسعل هذه المرة " الفلاسفة النظريون كانوا بالنسبة للكنيسة الطفل المدلل، كيف تتصور الواقع العملي أيها القس " .

" إنها تطرح نفسها لوحدها، عندما يقف المرء في الخط الأمامي، التي يعمل المرء فيها وبيده المشرط ".

" وهل تريد أن تأخذ مكان سننالوس " سأل جبهارت بدهشة.

" نعم ".

كانت هذه إجابة واضحة تغني عن أسئلة أخرى، والمرء ينظر لنفسه ويعلم فجأة أن هناك صديقاً أمامه.

" ولكن نورينا .. " قال جبهارت بتأثر " هل تعتقد أنهم سيعدمون نورينا رمية بالرصاص ؟ " .

" كلا أنهم سيحكمون عليها بالسجن لمدة عشرين عاماً، وهذا في بعض الأحيان أسوأ من الموت السريع ".

مضى القس صوب النافذة وأغلقها، فضربات المطرقة التي كان الجنود يدقون بها أعمدة الإعدام على الأرض لم تعد تحتل. " هل تحب نورينا ؟ " .

جمدت نظرات جبهارت على القس كما لو كان قد ضرب " هل تسألني ذلك ؟ " .

" أتحب نورينا هكذا بلا حدود، وتقبل تحمل أس خطر بسببها ؟ " .

" ألم أثبت ذلك ؟ لقد كنت في المذبحة الوحشية إلى جانبها، كما تقدمت برجاء أن يعاملوني مثلها ".

" بطولة كهذه لا فائدة منها، وأنت لست بطلاً، وأنت تعرف ذلك بدقة سيد كارلوس، هل تعتمد على نفسك بتحمل المشاق، على الأقدام، إذا كان الأمر لا بد منه على الحيوانات في الفرار عبر الغابة ؟ عبوراً إلى بارغواي عبر جحيم ماتوكروسو الرطب ؟ " .

" لماذا " .

" مع نورينا أيها الأحمق " .

" مع ... " دق جبهارت بقبضته على الطاولة " أيها القس إذا واصلت الحديث معي هكذا سأحطم لك جمجمتك " .

" وهذا أيضاً ليس بمقدورك " دس الأب دي سيتا يده في جيبته وأخرج خارطة من برازيليا فصاعداً، الطريق من كيرس عبر الجحيم الأخضر إلى حدود بارغواي، طريق لا عودة فيه، فقط الوصول إلى الهدف أو الأفل. " أنت لديك تجارب الغابة كارلوس، وهذه ستساعدك، وعدا ذلك، هناك الرب فقط .... وقواك الذاتية " .

وبحركة يد قال " وكيف سيكون إخراج نورينا من هذه الحفرة تحت الأرض " .

" عدا الحراس، أنا الوحيد الذي أستطيع الوصول إليها، متى ما شئت ذلك " .

" هذا إذا لم تمتنع نورينا، أنت لا تعلم كم رجوتها أن تهرب معي ".

" دع ذلك لهدوء قس مثلي ".

" ولماذا نورينا بالذات ؟ "

" هل تريد أن تهرب مع سنتالوس ؟ "

" متى ؟ " سأل جبهارت وقد بدا عليه صعوبة التنفس.

" بعد صدور الحكم ".

يوم الاثنين صباحاً، ستبدأ عمليات الإعدام "

" إنهم سوف لن يحكموا على نورينا بالإعدام، إنها ستنجو من ذلك لأنها امرأة. في انتفاضة عمال الطريق نعم، في القتال قتلوا نسوة، ولكن الآن، هكذا بدون سلاح في اليد، وبضعف أمام جمال المرأة، حتى لو كان جماً خطراً، الأمريكي الجنوبي لا ينسى أنه هيدالكو (ضرب من قصة بطولة وفروسية - Hidalgo) لنتنظر ذلك "

" ثم بعد ذلك ؟ "

" الذين سيعدمون سوف ينسون بعد شهر، لم يعودوا شيئاً مهماً، هذه هي اللحظة الصحيحة "

" ولا تنسى حتى أنا سأوقف كسجين "

" من اليوم فصاعداً لن يحدث ذلك، وأنت بوسعك أن تتحرك في المحكمة العسكرية بحرية، أنت تعلم أنك سوف تبعد إلى ألمانيا "

" نعم، والسفارة الألمانية لعبت دورها "

" السياسة ! العلاقات الاقتصادية الجيدة ! سوف تتعرض للغسيل مما علق بدماعك، لقد جئت إلى هنا كممثل لشركة ألمانية، وتدخلت في الشؤون الداخلية البرازيلية "

" إنني سوف أطرق على رأس كل من لا يفهم الحقائق "

" أنت مغفل " قالها القس دي سيتا وأبتسم بنعومة كما لو أنه سامح على خطيئة " إنك سرعان ما ستكون إنساناً وحيداً، أهتم بنورينا، حبها وأعملوا أطفال حلوين، إنك ستكون مهندساً جيداً، هذه مسؤوليتك وصوتك الوحيد في ألمانيا يوف لن يفيدنا كثيراً "

بعد ذلك بساعة، كان جبهارت يجلس مرة أخرى أمام العقيد على نفس الأريكة، وقدمت إليهم أكواب شاي ذي رائحة زكية بكل أدب وترتيب.

" ماذا فعلت مع نورينا سامازينا سيد كارلوس ؟ " سأل العقيد فيما كان يعرض على السندويتش " منذ أن غادرتها وهي تبكي إلى حد الآن، إنها بدموعها أضعفت قلوب ضباطي في المحكمة



العسكرية الخاصة، اللعنة كنت أريد أن أوفر عليها السجن، عمود الإعدام كان سيكون أفضل لها  
"

في هذه اللحظة شعر جبهارت بالكرهية كما لم يشعر في حياته.

كانت مرافعات المحكمة تدور بشكل سري، وقد عقدت في مطعم المعسكر، ولم يسمح سوى الضبط بدخول الصالة، ومن أجل أن لا يزعج أحداً برئيس المحكمة مستقبلاً في نزاع معين، فقد وضعت الكراسي في المحكمة، سبعة ضباط بما فيهم رئيس المحكمة، ومن العاصمة برازيليا جاء جنرال، كما أوفدت وزارة الداخلية التي تدير جهاز الأمن، أحد أمناء السر وكان رجلاً نحيلاً غير معروف، حضر الجلسات كمراقب، كارل جبهات كان الأجنبي الوحيد الذي جلس خلف حاجز خشبي، وقد طلب العقيد حضوره المرافعات.

كان الأب دي سيتا يتحرك منذ الصباح الباكر، من زنزانية إلى زنزانية يذهب ويتحدث مع الموقوفين " كونوا شجعاناً " قال لكل من ركع أمامه وطلب رحمته، ولم يقل أكثر من ذلك، ولكن الجميع أدرك فوراً أن قرار الحكم قد صدر فعلاً، وأن فترة العمر أصبحت قصيرة، لا تشتكوا، ثقوا بأنفسكم، فقد كان يمكن أن تموتوا فعلاً وكنتم على استعداد للموت في ذلك الطريق الملعون سواء من لسعة أفعى أو في معركة سكاكين، من أجل فخذ عاهرة، أو أخيراً برصاص جنود المظلات، وما سيحدث الآن ليس أكثر من أن تقف على العمود.

كونوا شجعاناً أيها الرفاق.

وكان أول من اقتيد إلى المحاكمة هو الدكتور ستيفانو سانتالوس. كان وجهه منتفخاً ومترهلاً، فمن يتعرض للضرب بأعقاب البنادق يبدو هكذا، وعندما مر أمام جبهات أحنى رأسه تحية وأومض بجفنيه، تحية خرساء فهمها جبهات وعض على شفتيه.

" د. سنتالوس " مزق صوت العقيد الخشن صمت القاعة " إنك متهم بقيادة منظمة إجرامية، جمع من القتل والمخربين والمتمردين في عصيان مسلح ضد نظام الدولة، هل تقر بأنك مذنب ؟ "

" لتحيا البرازيل حرة !.. " كان رد الدكتور سنتالوس بفخر، وكان في صوته شيء من أزيز إذ كانوا قد حطموا له أسنانه " لا يوجد متمردين، بل وطنيين، لا يوجد نظام دولة، ولكن قساة وتفرد في الحكم لصالح أقلية، لا يوجد قتلة ومخربين في صفوفنا، ولكن فقط مناظرون من أجل العدالة الاجتماعية، ولكن هناك توجد عصابة من الأغنياء الذين يستغلون العمال، ويصفون الهنود، هذه العصابة لها جيش خاص بها وله مهمة واحدة هي القتل " .

" شكراً هذا يكفي " نهض العقيد ووضع قبعته العسكرية وأدى التحية ثم تطلع إلى اليمين وإلى اليسار، إلى الضباط الستة الآخرين في المحكمة العسكرية فأشاروا بانحناء رأس خفيفة، ثم نطاق العقيد ما يلي: إن المحكمة العسكرية الخاصة في الإدارة العسكرية قد توصلت إلى الحكم التالي: الحكم على الدكتور ستيفانو سنتالوس بالإعدام " .

عاد العقيد وجلس وخلع قبعته، أما الدكتور سنتالوس فلم يهتز قيد أنملة وتابع العقيد قوله " هل لديك شيء بعد تقوله ؟ " .

" كلا ... ولمن ؟ " .

" فعلاً " رد العقيد.

" ما كنت أريد قوله يعرفه كل واحد في هذه الصالة، أيها السادة فكروا بذلك، وقولوا بصوت عال، إلا أنكم وبرغم ثيابكم العسكرية تنقصكم الشجاعة، ليكن الله مع البرازيل ".

واستدار على عقبيه وأتجه صوب الباب، وتوقف فجأة عند جبهات قرب الحاجز الخشبي ومد يده، لم يمنعه أحد عن ذلك، تطلع الجنود حيارى إلى الضباط، ولكن الضباط ظلوا صامتين.

" لا تعتبر المسألة تراجيدياً محزنة كما هي كارلوس " قالها سنتالوس وكأنه قد تحرر " في أوربا يعتبرون أن هذا شأن أمريكي جنوبي يومي ".

ثم مضى مغادراً القاعة فخوراً بنفسه.

الدكتور سنتالوس كان الرجل الوحيد الذي تولى القيادة، ومن أجل أنجاز كافة قضايا المحكومين حتى المساء، فقد اقتيد المتهمين الآخرين في مجموعات إلى صالة المحكمة، كأن شريطاً نقالاً من المتهمين إلى المحكمة، يقرؤون أسم المتهمين، يستمعون إليهم. وكانت إجابة كل من وجه إليه السؤال: لتحيا البرازيل، وتحيا الحرية " ثم يقرأ الحكم. كان التدرج في الأحكام ضعيفاً، ممن خمسة إلى عشرين سنة سجن، وهناك أحكام الإعدام على القياديين المعروفين.

لقد تصرفوا مثل الدكتور سنتالوس، وكان القديس دي سيتا قد هياهم لهذا الموقف، وكان جو المحكمة قد أصبح محرراً وكئيبياً، ليس فقط بسبب الحرارة، بل بشعور المرء بتراكم الكراهية الذي تخلفه أي مجموعة ورائها.

استغرقت مرافعات المحكمة سبع ساعات، بينها ساعة استراحة، ولم تكن نورينا سامازينا قد اقتيدت بعد للمحكمة، وكان جبهات بحالة متعبة من الخوف، فقد ظل وحيداً في القاعة خلال فترى الاستراحة، ولم يهتم به أحد، فيما اختفى الضباط وراء الأبواب، وغادروا الصالة إلى الباحة المشمسة. وقف جبهات في ساحة التدريب العريضة التي كانت خالية، وشعر وكأنه في مدينة أشباح، ثم عاد الضباط إلى قاعة المحكمة، وعاد جبهات إلى مقعده خلف الحاجز الخشبي، عندما دخل القس دي سيتا.

" ماذا عن نورينا ؟ وأين هي، ولماذا لم يقدموها إلى المحكمة ؟ هل حدث شيء لها، سأهرب معها، قل لي الحقيقة أيها الأب ".

" لا أنها ما زالت تنتظر " رد القس دي سيتا " هذا كل شيء ".

" كيف يبدو موقفها ؟ هؤلاء الأوغاد يحطمون أعصابها، ويدعوها تحترق بنار قلقها، هل ما زالت تبكي ".

تمسك جبهات بكتفي الأب دي سيتا، هز القس رأسه وقال " بالعكس إنها هادئة، وقد استعادت رباطة جأشها بعد مقابلتك وتبدو لي هادئة جداً ".

" هل تحدثت معها ؟ ".

" ثلاث مرات حتى الآن "

" وماذا تحدثتم ؟ "

" يجب أن تبكي، ياللعنة، ولكنها عندما رأته سكتت، وهذا لم يعجبني، ربما ينبغي أن تعصر بصلة في العين قبل أن يراها أحد، ربما ستبكي إذا مسدت بيدي على رأسها بمنحها البركة " تطلع الأب دي سيتا صوب طاولة المحكمة وقبعة الرئيس على الطاولة ذات الشريط الفضى العريض يشع في أشعة الشمس.

" عندما لا تبكي، بل تتحدث .. " لم يتمكن من إكمال جملته، نهض وغادر الصالة.

" تحدث معها مرة أخرى " هتف جبهارت " رجاء أيها الأب، ربما إذا رأته .. "

كانت نورينا آخر من دخل الصالة، كان الظلام قد حل، والهواء قد أصبح ثقيلًا، والجدران ما تزال تحتفظ بحرارة النهار.

كانت طقوس التحية قد بقيت كما هي، نفس التهم ونفس الأسئلة، وكان العقيد يراقب المتهمين بدقة وينتظر. المتهمة لا تبكي، فكر في نفسه، كانت لها نظرات ترفع حرارة القاعة، وبوسع المرء أن يجعل هذه الطاقة مفيدة، وهي عندما مرت بالقرب من حبيبها جبهارت واصلت سيرها دون تردد ودون أن تلتفت برأسها، أو أن تتطلع إليه. " يا لها من امرأة "

كاد أن ينهار عندما رن صوت نورينا فجأة بصوت عال وواضح، عندما قالت " أيها الجناء، هل أفلعتم عن كونكم برازيليون، فقط لأنكم ترتدون الملابس العسكرية ؟ أيها الرائد ماركوس، لقد كان ذوبك من مزارعي التبغ، وقد جاعوا من أجل توفير نفقات دراستك، كيف عشت ؟ لقد كدوا وشقوا من أجل توفير كل كروتسيروس، هل استفاد والدك من ارتفاع أسعار التبغ عالمياً ؟ أين ذهبت النقود ؟ وأنت أيها النقيب بيريرو، ألم يكن والدك عاملاً عند السيد لومباز ؟ ألم تسمع قط أن والدك كان يتضرع إلى السيدة العذراء أن يرسل الشيطان إلى السيد بيروبيرتا ريو ؟ "

قفز العقيد من مقعده وارتدى قبعته.

وكان صوته الأمر يمزق كلمات نورينا

" إن المحكمة الخاصة للقسم العسكري قد توصلت إلى الحكم التالي ....."

" أسمعوا ماذا تقول ..! " صرخ جبهارت وقفز من مقعده، وأمسك به ضابطان كانا بجانبه وأجلساه بقوة على المصطبة، وفجأة كان الأب دي سيتا خلفه وضغط بكفه على فمه، ولكن بقوة لم يكن أحد يعهدا فيه. نهض جبهارت مرة أخرى " لماذا تخافون من امرأة " زمجر في الصالة " إذا كان بوسعكم مقاطعة كلماتها، إذن استمعوا لي، إنكم لا تستطيعون منعي، إنني مواطن حر لدولة حرة "

" قطع أبقار هذا ليس إلا " قال القس دي سيتا ولكز الضابط الذي بجانبه وقال " هاجموا بشدة أكثر ..! "

سحبوا جبهات بشدة مرة أخرى إلى الخلف، وإلى مقعده وعاد الأب دي سيتا يضغط بكتا يديه على فمه.

تنفس العقيد بعمق، وكان وجهه قد غدا حراً، وقال بصوت مرتفع: " قرار الحكم بالإعدام على نورينا سامارينا، وإنني أنهى بذلك أعمال المحكمة الخاصة " .

التفت إلى الخلف وغادر الصالة مسرعاً، ولحق به ضباطه الستة على عجل وكأنهم يتسابقون فراراً، ثم تقدم ثلاثة جنود وأقتادوا نزرينا من باب جانبي.

" الحكم بالموت " قال جبهات، عندما رفع القس دي سيتا يده عن فمه، وكان الضباط الجالسين على مصاطب المشاهدين قد غادروا الصالة أيضاً، وتطلع إلى الجنرال القادم من العاصمة وكذلك إلى ممثل وزارة الداخلية " بالإعدام " ..! " قالها جبهات وهو يشعر بفراغ في داخله، كان مندهشاً ويشعر بعد القدرة على الوقوف " وماذا الآن ..؟ " .

" لا أعلم " رد دي سيتا " المحكوم عليهم في جناح آخر من الزنانات، فهناك أمر بهذا الخصوص، ثن أنني لا أعرف الحراس بصورة جيدة، لذلك أشك بأنني سوف أتمكن من النجاح حتى فجر يوم الاثنين " .

" الحكم بالموت " قال جبهات بذهول " يا إلهي .. بالموت .. " .

" وقد ساعدت أنت في ذلك، وعليك أن تهتم الآن بالأمر " . قال القس.

بدا على جبهات وكأنه يعيش منذ إصدار الأحكام في غرفة فارغة، في عالم ميت، فقد كان بوسعه أن يتحرك بحرية ضمن مجال المعسكر، ولكن أحداً لم يكن يكلمه، ولم يقف معه أحد، وعندما كان يحاول أن يكلم أحد الجنود أو الضباط، كان هؤلاء يواصلون المسير ولا يقفون، وكأنه غير موجود بالمرّة، وحتى طعامه كان يجلب إليه بواسطة مراسل عسكري، ويضعه فوق الطاولة، ويمضي دون أن يتفوه بأي كلمة.

الليل كان مخيفاً، وقف جبهات على النافذة ذات المشبك الحديدي، يتطلع بصمت وجمود إلى النجوم التي لم تكن رائعة كما في صحراء أو في الغابة، كان يشعر بكل ضعفه وتراجع ثقته بنفسه، وعجزه الفضيع.

طالب دون جدوى ولعدة مرات بحضور القس دي سيتا، ولكن القس لم يحضر، لذلك كان يقطع غرفته مشياً من الجدار إلى الجدار، يسحب ضعفه كحمل ثقيل، كما لو كان على وشك الانهيار التام.

في الصباح التالي، استيقظ أمام أعمدة الاعداد التي دقت على أرض الساحة، وكان هناك ثمة حارس يقف كما لو كان حرس شرف، والبنديقية على كتفه في وضع الاستعداد دون حركة، فالجدار خلف الأعمدة كان قد صيغ باللون الأبيض حديثاً إشارة للمشاهدين إلى الشرف، أو ليثبت فيما بعد إلى ثقب الرصاص .. أو لأجل إثارة الدهشة من رذاذ الدم المتطاير ...؟

سوف أصاب بالجنون، فكر جبهارت، لم أعد أستطيع بعد التفكير أو التصور بأن يشد وثاق نورينا إلى إحدى هذه الأعمدة، لا بد أن يحدث شيء، لا بد أن يحدث شيء ما فوراً، لماذا لا تتدخل السفارة الألمانية، فوجودي هنا في كيرس معروف، ومعروف أنني أكافح من أجل حبي لنورينا، ولكن لا أحد يهتم بذلك، الجميع صامتون، هل من واجب الدبلوماسيين الصمت حيث ينبغي عليهم أن يصرخوا ..؟ هل يتضمن اختيار الدبلوماسيين إبقاء العيون والأذان مغلقة، أم ترى أن اهتمامات الدولة تغرق في البنوك والأوسمة والحفلات والمصافحات؟

هنا ينبغي أن يقتل الناس، لا أحد يدرك هذا ..! هل المعاهدات التجارية أهم من حياة الإنسان؟ فجأة قفز إلى الأمام وأحتضن أحد أعمدة الإعدام وأخذ يهزه بجنون ويأس، فقد تقمصته قوى مجهولة، ثم نجح فعلاً باقتلاع العمود من الأرض، وضغط به إلى صدره، ثم كذف به، هكذا كما يفعل عمال الطريق حيث كان يقذف بالكتل الخشبية، دون أن تبدر أي حركة من الحراس، ولكنه وبطرفة عينه شاهد وسمع صافرة تدوي بجنون في مكان ما ربما في بناية قيادة أركان المعسكر.

" أطلق النار ..!" " زمجر جبهارت عبر الساحة " أطلق النار! أليس واجبكم أن تقتلوني ... أقتلوني إذن " كان العرق يجري على وجهه، وكانت شمس الصباح متوهجة والهواء كالغاز الساخن، أحتضن عمود الإعدام ومضى سائراً صوب بناية القيادة، وبرز العقيد على الباب دون أن يرتدي النطاق، ولكن البيرية كانت على رأسه، فقد كان جالساً لتوه على مائدة الإفطار.

" أطلق النار " زمجر جبهارت " أنا قادم لمواجهتكم فقد جلبت عمود إعدامي معي " .

لم يحدث شيء، فقد سار في الحرارة المتوهجة عبر الساحة الكبيرة المغبرة، ووصل إلى العقيد ووضع عمود الإعدام على الأرض، كانت يده ممزقتان وجسده يهتز من العصبية، وقد بلغ الضعف بساقيه لدرجة كان عليه أن يستند على العمود كي لا ينهار، وخلف العقيد في بناية الممر رأي القس دي سيتا وبعض الضباط.

" كنت أريد أن أرحمك بأقصى ما أستطيع " قال العقيد بهدوء " والآن يتوجب علي أن أرجوك إعادة العمود إلى مكانه " .

" إنه عمود نورينا " صرخ جبهارت

" ربما، فنحن لا نضع الأسماء على الأعمدة، ماذا تريد من حديثك هذا؟ والتظاهرة العديمة الفائدة " .

" هذه بداية فقط، أريد أن أقول لك بأنني سوف لن أشاهد إعدام نورينا دون رد فعل، إنني أعرف الآن أنك تتصور أنني أحمق لا حول له ولا قوة " .

" على كل حال .. ماذا تريد " .

" أمن نخطئ، وأنتك تحتجزني إلى وقت تنفيذ الإعدام، عليك أن تنال مني أولاً " كان جبهارت قد غدا أكثر هدوءاً ومسح وجهه من العرق وأخذ مكانه خلف عمود الإعدام " إنني سوف أدافع عن نفسي، وسأضرب دون تمييز وإنني أضمن ميتاً واحداً، إنني سأرغمكم على إطلاق النار

علي، سواء أصابني بجرح أو يصيب مني مقتلاً، وعلى كل حال، ستكون شأناً من شؤون الدولة، إنني ألماني حر، وعلى المرء أن يهتم بما يجري هنا " .

أرتعش العقيد وقال بلهجة أبوية " أيها الأب، أوضح له ما هي الواقعية، فهو سوف لن يصدقها مني، سيد كارلوس نحن لدينا بلاغات عن تدخلك في الشؤون السياسية، وعن بقاؤك عندنا، الاتصال بالسفارة، والآن سعيك إلى الاشتباك مع السلطات، وكان جواب سفارتك واضحاً، إنهم يعتبرون عمالك مسألة شخصية، أنت تعلم ماذا يعني ذلك ! " .

" هذا ليس صحيحاً " قال جبهارت بقوة " لا يمكن للعالم أن يكون لا أبالياً هكذا " .

أشار العقيد إلى القس دي سيتا وقال " أكد له ذلك أيها القس " .

" نعم إن الأمر كذلك كارلوس " قال القس وأقترب من الباب .

" لا ينبغي أن تؤخذ عبر من الكذب والظلم " .

" إن مصطلح الظلم هو نسبي، بل أنه أكثر المصطلحات السياسية نسبية " أوضح العقيد .

" هناك الآن وفد من كبرى الفعاليات الاقتصادية من ألمانيا في العاصمة برازيليا، والحديث يدور عن استثمارات بالملايين " .

" وقتل الهنود ؟ " قال جبهارت بغضب .

" المدير الأعلى للوفد معجب بإمكانات بلادنا، سوق عريضة مفتوحة، مواد خام غير مستغلة، قوى عاملة كثيرة " .

" وكبار ملاكي الأرض يطردون قبائل الهنود بالسياط والنيران من أراضيهم " .

" ألمانيا ترى في البرازيل طرفاً لا يثمن لتوسع مطرد بعد أن واجهت بلادكم فوضى اجتماعية، فيوسع رجالكم عندنا، أن ينالوا امتيازات الإنتاج الرخيصة " وتقدم العقيد خطوة وضرب بقدمه عمود الإعدام وأضاف " وأنت تقف هنا كالمساكين وتريد تغيير الرياح ؟ لا يمكنك ذلك أبداً أن تدرك في أي عالم تعيش ! هيا سر إلى الخلف، أيها الأحمق وأغرس عمود الإعدام في مكانه، إذا كنت تريد من كل بد أن تعدم رميةً بالرصاص، أحضر هنا غداً في السادسة صباحاً وأنا أعدك بأن أربطك بالقرب من عمود نورينا، وأنت ستكون سعادتها الشاذة في أن تموت إلى جانبها " .

ثم ركل عمود الإعدام مرة أخرى واستدار مرتقياً سلم البناية وأغلق الباب ولم يبق في الخارج سوى الأب دي سيتا الذي توجه نحو جبهارت .

" هذا هو الطريق الخطأ كارلوس " قال بهدوء .

" إذن أوضح لي الطريق الصحيح " صاح جبهارت " بالصلوات لا يمكنك أن تحرف الطلقات عن مسارها " .

" أستطيع ذلك " قال القس ذلك وأنحنى " في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ستكون هناك سيارة جيب تقف مقابل المعسكر خلف الصيدلية تنتظر "

" جميل جداً " ضحك جبهارت ضحكة لا معنى لها في الواقع، " وأنا سأقول للحراس كفى .. إنني سأسافر "

" صحيح "

تطلع جبهارت إلى عيون القس دي سيتا، كانت عيناه قد بدأ- تلتهب وتشوهن معالم وجهه " إنه خبث حقير، وكل ما تفعله الآن مضحك " قال بحرارة

" أنت كقس .... "

" لقد تم الاتفاق مع العقيد، فأنت تستطيع مساء اليوم مغادرة المعسكر الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، الحراس مبلغون بذلك وسيتركونك تمر .. "

" بالطبع وحدي بدون نورينا ؟ "

نورينا ستكون جاهزة بانتظارك داخل سيارة الجيب "

" أهذا ممكن ؟ كيف ؟ .. كيف ستستطيع الخروج من زنزانة الإعدام أيها الأب، أنت تريد بهذه الحيلة إخراجي وتبعدني عن المسألة، وإذا خرجت من المعسكر، سوف لن يكون بوسعي العودة إليه مرة أخرى، وفي السادسة صباحاً ستدوي الطلقات .. هذه حيلة لئيمة "

" إنني أعدك بأن .....

" كيف ستخرج نورينا من زنزانة الإعدام ؟ "

" أقسم لك " قالها القس دي سيتا ولامس عمود الإعدام الذي كان جبهارت قد احتضنه " ألم تعد تصدق قسم أب قسيس ؟ "

" أنا لم أعد أصدق شيئاً بعد، أنا أصدق ما أراه فقط، وما أراه أن كل شئى جاهز لحفلة الموت " . سحب جبهارت القس، وكان وجهه الغارق في العرق والغبار يبدو معذباً " حتى أنت لا تستطيع أن تحيل نورينا إلى شبح وتهربها من زنزانتها، وكل شئى هو عبارة عن أكاذيب، أنك سوف تسميها كذبة ورعة، وبذلك تستعيد هدوءك الوجداني "

وبعد أن أعادا عمود الإعدام في مكانه قال القس: " أنك لا تمتلك كارلوس حقاً فكرة عن قواعد اللعبة في هذا العالم " ثم أنحنى القس إلى جبهارت وقال " هيا لنمضي إلى الساحة اليمنى، سأقول لك شيئاً "

ومضيا عبر الساحة المغبرة الساخنة، بمحاذاة الجدار الأبيض حيث كانت هناك أربعة أعمدة إعدام، وحارس جامد الحركة متنكباً بندقيته.



" أعتقد إنني تمكنت من النوم والأكل طيلة النهار ؟ " قال القس دي سينا وأستند إلى العمود بكتفه " إنني كنت على دراجتي البخارية وكأنتي ساعي أذهب هنا وهناك وقد جرت أحداث لا تصدق، حيث قام فدائيون بأختطاف أبنة العقيد البالغة من العمر تسعة عشر عاماً، وحولت القضية لي من أجل التوسط في شروط إطلاق سراحها، إنها مبادلة بسيطة: الأنسة بسكويلا مقابل الأنسة نورينا "

بدا الذهول على جبهارت " أيها الأب ... "

لكزه الأب بمرفقه دافعاً أياه إلى الأمام " يا للشيطان .. أمض .. أمض ..! " ومال عليه القس وأضاف " المبادلة ستبقى سرّاً، بضعة أشخاص فقط يعلمون ذلك، وحتى الجنرال لا يعلم بذلك "

" وكيف قرر العقيد ذلك ؟ "

" بسكويلا هي أبنته الوحيدة يا كارلوس "

" يا إلهي، لقد بسطت الأمر أيها الأب، ألا تبالغ، لقد قلت بأنك ستواصل عمل سنتالوس عندما ينتهي كل شيء "

" أنا لم أفعل شيئاً، عندما لعبت دور الوسيط " وتطلع الأب دي سينا إلى الأمام كان الجدار المصبوغ بالأبيض قد اقترب كثيراً وبسرعة " وعندما تفر مع نورينا غداً، ستكون هناك ضجة كبيرة، ولكن هناك لغز اختفاؤك سيبقى بدون حل، زنزانة مفتوحة ولكن باب الممر مغلق، في الساعة الواحدة ستسافر أنت ونورينا بسيارة الجيب الواقعة خلف الصيدلية، وفي الساعة الواحدة والنصف ستكون باسكويلا قد وصلت باب سكن ذويها، وفي الساعة الرابعة سيكون الإنذار. إذن فليك ثلاث ساعات بدون مطاردة لك، وهذا قليل، لكن ينبغي أن يكون كافياً، وفي السيارة ستجد خطة دقيقة وعناوين، ستأخذك إلى حدود أورغواي، وهناك سيكون بانتظارك رجل ارتباط أخير سيعبر بك الحدود "

" كيف يمكن أن أعبّر عن شكري لك أيها الأب " قال جبهارت بصوت منخفض، وكان صوته معبراً عن عجزه، كانا يقفان بقرب أعمدة الإعدام، ضغط الأب على العمود الذي كان مقتلاً وقال: سر على الأرض بثبات " قال بهدوء " هيا أفعل شيئاً، فالمرء ينتظر منك شيئاً كنوع من التعويض على تصرفك "

كانا يدكان الأرض بقدميهما حول العمود لتثبيتته، وأختبرا متانته ثم عادا أدراجهما، أخفض جبهارت رأسه ومسح ظاهر يده بسرواله.

" يبدو لي كما لو تلوّثت بالدم، كما لو أنني ساعدت على عملية قتل " قال بصوت منخفض.

" سيكون هناك دائماً بشر يموتون من أجل المثل العليا " ووضع دي سينا يده على كتف جبهارت وسحب إليه " نتأمل أن نضالنا عادل، إنها عملية غليان وحشية عندما يريد شعب أن يجتاز ويعبر حقبة تقدر بمئات السنوات في بضع سنين، فمن يؤكد على صحة الإجراءات ؟ من يمتلك القوة لتنظيم هذه العملية ؟ لهذا أشعر كارلوس شخصياً بالخوف، لا يوجد ما يدمر

الأحداث أكثر من إنسان فاقد السيطرة على ذاته، خاضع للتهيج، هذا هو قلقنا، وأنت عليك أن تصل إلى بارغواي مع نورينا بأسرع ما يمكن".

انفصلا في وسط الساحة، مضى القس إلى بناية القيادة، فيما توجه جبهارت إلى الأسفل حيث غرفته التي كان بابها على الممر، فوجد الباب مفتوحاً وكان خادم الغرفة هناك.

كان الفطور بانتظاره على الطاولة، خبز شهى ذو رائحة زكية لذيدة، زبد وعسل، لحم مدخن، عصير طبيعي وبيضة. والمراسل العسكري الذي جلب الفطور كان لما يزال واقفاً بصمت كعادته، ولكنه نطق للمرة الأولى.

"عجباً..!" قال الخادم "كيف استطعت القيام بذلك؟ كيف استطعت أن تقتلع عمود الإعدام بيديك فقط.. لم أكن أتوقع ذلك منك".

"أنا أيضاً لم أكن أتوقع ذلك مني" قال جبهارت بصوت جاف.

كان يفكر بأحداث الليلة المقبلة.

"نعم.. أنا أيضاً لم أتوقع ذلك" كرر ذلك بصوت منخفض.

في المساء، سمع قرع ثلاث دقائق قصيرة على الباب.

كان جبهارت راقداً في فراشه بدون نوم، يدخل سيكارتة التاسعة عشر، وكان القس دي سيتا قد أعطاه علبتان عموديتان (كل علبة تحتوي على 10 علب صغيرة) وتطلع ببصره إلى الساعة، كانت الواحدة إلا خمسة عشر دقيقة، قفز واقفاً، جمع حاجاته القليلة التي تبقت له، وهرع إلى الباب ومرق منه، كان الممر خالياً، والذي كان قد قرع الباب قد اختفى.

حتى هذه الدقيقة لم يكن جبهارت قد صدق أنه سيحصل حقاً على نورينا حية .. والآن فقد حصل على قوة دافعة جديدة، كان الممر مضاء بضياء خافت.

خرج جبهارت من الغرفة، تطلع حواليه، كان وحيداً، والسكون التام يعم المكان، ها قد ابتدأت منذ هذه الليلة أحداث حياته الجديدة، كانت تبدو له داكنة، فمن الممكن أن يكون كميناً، فكر في نفسه فجأة، سأمضي في الممر إلى الأسفل، وأفتح الباب إلى الساحة، وهناك يقفون ببنادق مستعدة لإطلاق النار ..... قتل أثناء محاولته الهروب .. إنها جملة مفضلة للقتل الحكومي.

مضى ببطئ في الممر، ووضع يده على أكرة الباب وتطلع مرة أخرى بحذر، الساحة كانت شبه مظلمة، المعالم مبعثرة، أبواب كثيرة، أبواب خافها بشر نائمون، أو أنهم ينتظرون، وحتى يستطيع أن يمرق من هذا الباب الأخير، ويضع أولى خطواته في المساء.

كن مرة بطلاً ... يشجع نفسه، أبتلع خوفك، وأحتفظ برأسك عالياً، ولتكن النهاية ...! ولكن هذه الخطوة الخطرة صعبة ويمكن أن تكون خطوتي الأخيرة، أفتح الباب وحتى لو كانوا بانتظارك في الخارج.. قد خدعوك .. أحتفظ بشجاعتك وكبريائك، ولكن الخطوات صعبة .. أليست البطولة هي النهاية الأخيرة، اليأس؟ إنه انفجار من موقف لا خروج منه، هيا أيها الشاب، أقفز فوق النيران التي تحرقك !....

ضغط على أكرة الباب ودفع، كان هواء الليل بارد بعد يوم ساخن الحرارة ذات الرطوبة في الغرفة، الهواء كان منعشاً كما لو صفع على وجهه، وفي نفس الوقت، أشعلت نيران خوف مجهول. سار بالقرب من البناية، ونظر جيداً كانت أمامه ساحة كبيرة مصبوغة حديثاً تبدو على ضوء القمر باللون الرمادي / الأبيض، وجدار من الطين وخمسة أعمدة تغرق في ضوء أبيض حلبي، والآن لم يكن حراس كما في النهار بل بالقرب من الأعمدة كانت قد وضعت منضدة خشبية بسيطة.

مقصورات لمشاهدة حفلة الموت ..!!!!!!

أنطلق جبهارت وبدأ خطواته الأولى في هذه الصورة التمثيلية، لم يطلق أحد النار عليه، كان وحيداً كما وعده الأب دي سيتا، وبخطى سريعة عبر الساحة، كان يركض تقريباً عندما بلغ بوابة الجدار ذات الأبواب الحديدية، ومن كشك الحراسة التي كانت غارقة في الظلام، خرج جندي دفع البوابة دون أن يتفوه بكلمة، فتح جناحاً صغيراً من الباب مرق منه جبهارت إلى الخارج، ثم أعيد غلق الباب، وأحدث صوت فتح وإغلاق الباب صوتاً في سكون الليل، وبحسب

التقاليد العسكرية للحرس، سمع ضربة القدم على الأرض، والآن فكر في نفسه، سيطلقون النار الآن .. إنني خارج المعسكر وهذا أفضل دليل على نية الهرب.

خطا ثلاث خطوات عن الباب، ثم توقف مرة أخرى، حيث جرى الدم من رأسه خوفاً. الخوف شعور طبيعي للإنسان عند مواجهته الخطر، أصابة الشلل بصورة تامة، لم يعد بوسعه أن يتنفس، فتح فمه كما لو سمكة أخرجت من الماء إلى اليابسة.

في مكان ما بعيد، ربما في برج كنيسة كيرس، رن ناقوس بصوت عميق مشيراً: الساعة الواحدة، كان العرق يتفجر من جميع مساماته، رغم أن الليل كان بارداً، شاهد لوحة الصيدلية التي ينبغي أن تكون سيارة الجيب خلفها مع نورينا.

Pharmacia : صيدلية، كانت اللوحة تلمع في ضوء القمر، لوحة من زجاج كانت باهتة عند حرف (C) بناية على الزاوية.

بدأ جبهارت بالركض، كان يترنح كسكران في الساحة أمام المعسكر وهو يعلم لأن حارساً يحمل رشاشاً يتعقبه في برج الحراسة، ويسجل حتى رمشة العين. يا إلهي كم بدت بعيدة ومسافة لا نهاية لها حتى زاوية البناية، حتى خيل له أن لوحة الصيدلية تعدو هي الأخرى أمامه ... يا إلهي سوف لن أصلها أبداً ....

خلف الستارة في الغرفة، وقف العقيد والقس دي سيتا يراقبان جبهارت وركضه حتى الصيدلية، ضم العقيد قبضته بشدة وعصبية ...

" أيها الأب " قال " أنت تضمن لي أن أبنتي سوف تصل لي خلال نصف ساعة ؟ "

" نعم .. وإذا لم يحدث ذلك، فبوسعك أن تربطني إلى أحد الأعمدة أيها العقيد "

" وماذا أحصل أنا من ذلك ؟ أنت تموت وأنت تصلي، ولكني أضيع أبنتي الوحيدة إذا تقدم الفدائيون بمطالب جديدة أخرى "

" سوف لن يفعلوا ذلك، لأنهم يعلمون بدقة أن تلك المطالب سوف لن تلبى "

" هل يعلمون ذلك ؟ "

" نعم، إنهم يعرفونك أيها العقيد أنكم سوف تنفذون أحكام الإعدام حتى لو ضحيت بأبنتك. لقد كان بوسعك أن تخرج نورينا سامازينا من الأمر لأنك تعلم جيداً بأنها لم تعد تشكل خطراً، إنها ستسافر مع كارلوس إلى ألمانيا، ولكن د. سنتالوس ... "

" أبدأ أيها الأب " قال العقيد بتصميم " إنني جندي "

" حقاً " قالها الأب وسحب الستائر قليلاً من أجل رؤية أفضل، فيما كان جبهارت يهرول نحو الساحة وكان قد وصل إلى منتصفها.

" أنت تكره الجنود أليس كذلك أيها الأب ؟ " قال العقيد مستظلاً.

" إنني مندهش من عنادك، وأنا لا أستطيع أن أفهم ذلك، أن يتناسى أمرء ما بمجرد ارتدائه الملابس العسكرية، يتعذر عليه إدراك وتفهم الواقع والحقائق، إنني أرتعد من هذه الآلية الباردة ومن الإنسان الآلي (الأوتوماتيكي) الذي يعمل كالروبوت يتلقى الأوامر، فهذا هو أسوء من الكراهية أيها العقيد "

" الآن، ها قد وصل إلى الزاوية " وأنحنى العقيد بتوتر إلى الأمام " ترى هل هو خائف ؟ "

" ولم لا ؟ فهو إنسان وله قلب " تطلع القس إلى الساعة وقال أسمح لي الآن بالذهاب أيها العقيد لكي أكون بأستقبال أبنتك " ثم تريث وتنفس بعمق " كم محكوم سينفذ به اليوم ؟ "

" الجميع " وقام العقيد بإشارة من يده بحيوية " في الساعة التاسعة سيكون كل شئى قد أنتهى "

" سأبدأ في الساعة الثالثة بإقامة الصلوات في الزرنانات " وشاهد جبهارت قد وصل إلى سيارة الجيب، ترك القس يد لتهبط الستارة، وأضاف " أتصل بعد نصف ساعة ببيتك وسيكون بوسعك أن تكلم أبنتك "

وصل جبهارت إلى الصيدلية، وكان قد شعر بدوار عند الزاوية، وشاهد سيارة الجيب واقفة في ظل البناية، وشاهد هيئة شخص يرتدي السواد جالساً في السيارة على الكرسي بجانب السائق.

" نورينا ... " وخرس جبهارت ومد ذراعيه أثناء ركضه.

دار محرك السيارة، فقد أدارت هي مفتاح التشغيل، وبثلاث وثبات كان جبهارت قد أصبح إلى جانبها، وضمها إليه بقوة، كان وجهها في ضوء القمر الساقط يمنحها بشرة الأموات، وبدت له صغيرة وطفلة، شعر بالفزع، ثم نظر إليها مرة أخرى، كانت تبكي ... بدون أن تصدر صوتاً دون حركة، كانت الدموع تسيل من عيونها كالتيار، كنبع ماء، أدرك أنها تبكي، ولكنه لم يجد الكلمات لكي يواسيها.

لقد عاشت، وسوف تواصل العيش، في أورغواي، ولاحقاً في ألمانيا، وستكون هي زوجة صالحة له، وكأم طيبة لأطفالها، ولكنها ستبقى له بجزء من قلبها، ولكن جزء من عواطفها ومشاعرها وحبها ستبقى في البرازيل، ستكون أشواقها لوطنها إلى الغابات والأنهار الهائلة، وإلى الشواطئ الرملية البيضاء، إلى المزارع، لذلك هي الآن تبكي، ولم يكن يمتلك كلمات لكي يواسيها بها.

" أنمضي ... ؟ " قال جبهارت بصوت منخفض، وأعتدل في جلسته وأمسك بالمقود، ووضع معدل السرعات على الأول، وعندما سارت سيارة الجيب الصغيرة، وضعت نورينا رأسها على كتفه، وأخذت تفكر به، وضغطت بنفسها إليه، بحيث أمته قليلاً، وأنشبت أظافرها في ظهره، وكأنها تريد أن تتأكد من وجودها معه.

ألقت جبهارت، ثم ضغط على عتلة البنزين، كانت كيرس أمامه.

مضت ثلاث ساعات، في الرابعة قرع الإنذار في المعسكر، والسيارة تغد المسير ولكن ما هي ثلاث ساعات في بلد يصل بحجم مساحته عشر مرات أكبر من ألمانيا .. ؟

" ما هي المحطة القادمة ؟ " سأل بصوت مرتفع، كان ضغط أظافر نورينا على ظهره قد تركت علامة على ذراعه، رفعت رأسها إليه وأزاحت خصلات الشعر المتناثرة على وجهها، ومسحت بظهر يدها الدموع من وجهها.

" رجل اسمه غويا لورنزو في أيتابريا " كان صوتها وقد أدهشه ذلك قوياً و متماسكاً " في سوق المدينة عليك أن تنحرف إلى اليمين في الطريق إلى غويانا "

" ومن ثم ؟ "

" نواصل السير على الطريق حتى كامب غراناما، ومن هناك يمكننا أن نتجه إلى أورغواي أو باراغواي "

" وإلى أين تريدان أنت نورينا ؟ "

تطلعت إليه لحظة كانت عيناها السوداوتان كما كان يعرفهما: شجاعة، عاقلة، فيها قوة غامضة " وهل يلعب ذلك دوراً كارليتو ؟ " قالت بعد برهة قصيرة " في كل مكان تطير منه الطائرات إلى ألمانيا "

" وإذا شئت نبقي هنا " قالها بتلعثم .

هزت رأسها علامة النفي، ومدت يدها إلى رأسه ووجهه ولامسته بحب " كلا، ولماذا كارليتو ؟ إنني أحبك ويجب أن أعتاد على أنتمي لك وليس لشئ آخر "

وكان هذا أستسلاماً أمام ذاتها، أحس جبهارت بذلك، وأمتنع عن قول أي كلمة، فالآن أي كلمة ستكون مزعجة، إنها تودع وطنها البرازيل، وإنها ستصبح زوجتي، بأكملها لي، هذه سعادة شئ لا يمكن مشاهدته، بل يشعر به المرء.

أنحى إلى الأمام، وجمدت نظراته على الطريق الغارق في الضياء الأبيض الذي يبثه القمر..... وضغط على مفتاح البنزين.

\*\*\*\*\*

في الساعة السادسة، وصل الدكتور سنتالوس أول المحكومين إلى الساحة، ومضى صوب عمود الإعدام، وكان القس دي سيتا إلى جانبه يصلي.

على المنصة جلس الحضور في أربعة صفوف، الضباط وكبار موظفي الدولة، ومحافظ مدينة كيرس، وبعض الرجال من جهاز الأمن، جنرالين قدما من العاصمة برازيليا، وثلاث ممثلين لوزارات، وكان المعسكر قد جرى ترتيبه وتنظيمه لهذه الغاية، وكان جنود المظلات قد ضربوا طوقاً حول المكان، لم تكن هناك تظاهرات، بل كان الخوف يسود تلك الساعة.

في الساعة السادسة وتسعة دقائق، بدأت الطبول تفرع، ومد جنود فصيلة الإعدام بناد

قهم، وقد رفض الدكتور سنتالوس تعصيب عيناه، ونظر بكبرياء وفخر إلى منصة الحكام، وكان القس دي سيتا يقف على مبعدة خمسة أمتار عن عمود الإعدام، يرفع الأنجيل عالياً، في سماء الفجر المائلة إلى الحمرة، والأربعة الآخرون بجانب الدكتور سنتالوس بدأوا يزمجرون:

لتحيا البرازيل .....لتحيا الحرية

ثم مزق أزيز الرصاص الكلمات الأخيرة ....

كان الدكتور سنتالوس، لم يمت بعد، فقد أستلزم إطلاق النار عليه من مسدس قائد فصيلة تنفيذ الإعدام، القس دي سيتا كان يقف إلى جانبه وهو يمد يده أمامه، ومن فوق الأنجيل، أطلق الضابط النار على رأس الدكتور سنتالوس.

لم يلاحظ أحد في تلك اللحظة عيون القس الشاب .....

بعد حوالي أسبوعين، وصل جبهارت ونورينا إلى قرية بيبة أيهيو وهي عبارة عن بضعة بيوت فقيرة على حدود بارغواي، كانا مرهقين جداً، بحيث أنهما ناما لمدة يومين وليلتين، وكانت هوسبيديرو المحل الوحيد المخصص لنوم القادمين في المنطقة، وكان قذراً لدرجة تحمل الضيف على التساؤل فيما أنه قد يموت من قذارة الأسرة والأغطية، ولكنهما استيقظا وأتجها صوب كيونكيكون، ومن هناك أشتري جبهارت صحيفة برازيلية.

عن انتفاضة عمال الطريق لم يعد أحد يتحدث عنه، وأيضاً موت الدكتور سنتالوس ورجاله، فقد أسدل ستار من الصمت ولكن نشرت بعض الصور عن البرازيل كانت تحمل عناوين فخورة:

- إنه الطريق الجديد العريض عبر الغابة.

- افتتاح عصر جديد.

- الأمازون سيعود قريباً إلى العالم.

" العصر البرازيلي الجديد قد أبتدأ " كتبت الصحيفة " اليوم ينظر العالم إلى البرازيل بلد المستقبل " .

" متى نظير إلى ألمانيا ؟ " سألت نورينا وقذفت بالصحيفة جانباً.

" متى تشائين " .

" إذن بأسرع ما يمكن " وألتفت صوب الحدود البرازيلية " هل تعتقد بأننا سنسمع في ألمانيا ما سيحدث هنا في بلادي ؟ ومتى سأحكي عن ذلك ؟ ومتى سأكتب .. " .

" لا أعتقد ذلك " قال جبهارت " حيثما تستثمر الملايين، فإن العالم سيكون بخير " .

كانت هذه سخريه لعينة ومؤسفة بما لا حدود له.